مُحَاضَرَاتٌ فِي

التَّارِيخِ وَالحَضَارَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

- حول منهج النبي ﷺ مع المخالفين.
- سقوط الدول والحضارات في المنظور القرآني.
- الكُرد في ظلال التاريخ الإسلامي.
- لحظات مع الصِّدِّيقين والشهداء.
- ابن خلدون وإشكالية الفلسفة...



تأليفُ

أ. د. عِمَاد الدِّين خَلِيل

دارُ السَّلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

محاضرات في

التاريخ والحضارة الإسلامية

- حول منهج النبي ﷺ مع المخالفين.
- سقوط الدول والحضارات في المنظور القرآني.
- الكُرْد في ظلال التاريخ الإسلامي.
- لحظات مع الصِّدِّيقين والشهداء.
- ابن خلدون وإشكالية الفلسفة...

تأليف

أ. د. عماد الدين خليل

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

خليل، عماد الدين.
محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية/ تأليف عماد الدين خليل. - القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٢٠م.
٣١٢ ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٩ - ٤٦١ - ٧١٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - التاريخ الإسلامي - مقالات ومحاضرات.
٢ - الحضارة الإسلامية - مقالات ومحاضرات.
أ - العنوان.
٩٥٣,٠٤

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر حينها.

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة: القاهرة: ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف: ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع الأزهر: ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف: ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع مدينة نصر: ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف: ٢٠٨٠٢٨٧٦ - فاكس: ٢٠٨٠٢٦٨٠ (٢٠٢+)
المكتبة: فرع الإسكندرية: ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ - فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا: القاهرة: ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني: info@daralsalam.com
مكتبتنا على الإنترنت: www.daralsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

في التراث الإسلامي

في فكر ابن خلدون

متفرقات

* * *
* *
*

مُقـدِّمَة

هذه جملة من المحاضرات التي أُلقيت عبر مدن شتى من عالم الإسلام على مدى ربع القرن (١٩٨٩ - ٢٠١٣م) في المساجد والجامعات والمؤتمرات والندوات والمراكز الثقافية والمجامع العلمية والفضائيات.. انتقيتها من بين كمّ كبير من التي ضاعت خططها أو رؤوس موضوعاتها عبر الزمن، أو تلك التي لم يعد موضوعها في تماسٍّ مباشرٍ مع هموم المثقف المعاصر، وأعملت فيها جهدي وذاكرتي لكي تُـكتب قريبًا من الصيغة الشفاهية التي قُدّمت فيها لأوّل مرة..

بعض هذه المحاضـرات التي يجدهـا القارئ بين يديه يديـر كاميرتـه على جوانب مؤثرة من حياة الرسول المعلّم - عليه أفضل الصلاة والسلام -، وبعضها الآخر يمضي مع فلسفة التاريخ والحضارة، أو تفسيرهما؛ لكي يحلّل نشوء الحضارات ونموّها من المنظور القرآني، أو تدهورها وسقوطها من ذات المنظور، ولكي يتحدث عن قيمة التاريخ، وعن علاقة الأدب بالتاريخ، وعن منهجي في البحث فيه، وخبرتي مع الاستشراق، وعن الفكر الخلدوني في التصوّر الإسلامي، وابن خلدون وإشكالية الفلسفة.

وثمة محاضرات أخرى تسعى لتحليل ظاهرة الفتوحات الإسلامية، أو تقف لحظات مع الصدّيقين والشهداء، أو تسلّط الضوء على دور الكرد والأتراك في تاريخنا الإسلامي، أو تطرح منهجًا في التعامل مع التراث، أو تناقش المفردات المنهجية لأقسام التاريخ في الجامعات العراقية.

والمحاضرات جميعًا تدور في سياق **التاريخ والحضارة الإسلامية**.. ولذا جاء هذا الكتاب يحمل العنوان نفسه..

فعسى أن أكون قد وفقت في اختيار المحاضرات التي آن الأوان لأن تصدر في كتاب يطوي جناحيه على موضوعاتها المتنوّعة، ويكون متداوَلًا بأيدي القرّاء الذين يهمهم أن يطلعوا على تاريخ أمتهم وحضارتها المتألقة، وأن يؤمموا جهدهم ووجودهم لاستعادة دورها الضائع بمعونة اللّـه..

ودائمًا نقـول بأن المقاربة والتسديـد هي بفضل اللّـه وحـده.. أما القصور والأخطاء فمما صنعت أيدينا.. منتظرين من قرّائنا الأحبّـة تصويب الخطأ والإرشاد إلى الصواب.

وإلى اللّـه وحده

نتوجَّهُ بالكلمات والأعمال

أ.د. عماد الدين خليل

مع رسول اللَّه ﷺ

- شيء مما يقوله الآخر عن رسول اللَّـه ﷺ.
- بعض المنتمين للإسلام يتحدثون عن رسول اللَّـه ﷺ.
- لحظات صعبة في حياة الرسول ﷺ.
- حول منهج النبي ﷺ مع المخالفين.
- مجابهة الرسول ﷺ للإغراء.

في ذكرى الهجرة:
شيء مما يقوله « الآخر »
عن رسول اللّه ﷺ

هل نستطيع ونحن نعيش ذكريات الهجرة النبوية الشريفة سنة بعد أخرى، أن نجعل من حلقات السيرة حقلًا للاكتشاف؟ أن نجتاز دروبها وساحاتِها فتمنحنا الدهشة والإعجاب، وتفجّر في عقولنا وأرواحنا جداول الحب والعشق واليقين.. أن تكهرب أوصالنا بمفرداتها المتألّقة، فتضعنا وجهًا لوجه قبالة الحقائق الإنسانية العارية التي لم يرن عليها صدأ، ولا اعتراها زيف أو تزوير؟

في علم الجمال.. معروف أن الإلف والاعتياد يقتلان الدهشة، ويطمسان على ألق الحقائق والتجارب والأشياء، فتفقد بمرور الوقت قدرتها على الإثارة والانبهار..

إن (كاستون باشلار) – مثلًا – في « جماليات المكان » يؤكد على هذا المعنى المرة تلو المرة.. ويسحبه « كويّو » و « لانجر » و « سانتيانا » و « كاسيرر » و « مالرو » و « ميرلو بونتي » وغيرهم من علماء الجمال وفلاسفته، على ظواهر الطبيعة والخبرات البشرية كافة.

فماذا لو حاولنا كسر الطوق، وتجاوزنا حصار الإلف والعادة، وتسطّحهما باتجاه العودة كرة أخرى إلى مواقع الدهشة والإعجاب والانبهار؟

ومن يدري.. فلعل أولئك الذين أخذوا يتعاملون مع مفردات السيرة من الخارج.. من خارج دائرة الإسلام، لم يكونوا بحاجة إلى بذل جهد كهذا.. ووجدوا أنفسهم يقفون بعفوية بالغة، وجهًا لوجه، أمام حقائق هذه السيرة في صفائها العجيب، وقدرتها الفذة على التأثير.

فماذا لو وقفنا عبر الصفحات التالية عند اثنين فحسب من هؤلاء وحسبما يتيحه المجال، لمتابعة بعض ما قالاه، وهو كثير غزير.. وهما يعاينان التجربة فتدهشهما حقائقها المتألقة، وتأسرهما مقولاتها الربانية، وشخصية نبيّها الإنسان:

- الدكتور نظمي لوقا من أقباط مصر؟

- ونصري سلهب من مسيحيي لبنان؟

ولكل من الرجلين أكثر من كتاب عن جوانب من حياة الرجل النبي الذي قُدّر له أن يقلب موازين العالم، ويغيّر خرائط الدنيا..

- (**محمد الرسالة والرسول**) و (**محمد في حياته الخاصة**) لنظمي لوقا.

- (**لقاء المسيحية والإسلام**) و (**في خطى محمد**) لنصري سلهب.

ومن هذه الكتب الأربعة سنقتبس بعض المقاطع:

د. نظمي لوقا:

١ - « ما كان محمد [ﷺ] كآحاد الناس في خلاله ومزاياه، وهو الذي اجتمعت له آلاء الرسل [عليهم السلام] وهمّة البطل، فكان حقًّا على المنصف أن يكرم فيه المثل ويحيّي فيه الرجل ».

٢ - « لقد تخطف الموت فلذاتِ أكباد الرسول [ﷺ] ليكون ذلك إيذانًا بأن البشر الرسول ليس له امتياز على سائر بني آدم، فتسقط دعوى الناس في التقصير عن الاهتداء به ».

٣ - « إن هذا الرسول، حينما وقعت له تجربة الوحي أول مرة، وهو يتحنّث في غار حراء، صائمًا قائمًا، يقلب طرفه بين الأرض والسماء.. لم يأخذ هذه التجربة مأخذ اليقين، ولم يخرج إلى زوجه خروج الواثق بها، المتلهف على شرفها. بل ارتعدت فرائصه من الروع وقد ثقلت على وجدانه تلك التجربة الفذة الخارقة.. ودخل على زوجه وكأن به رجفة الحمى.. ».

٤ - « إن لباب المسألة كلها أنك كنت يا أبا القاسم أكبر من سلطانك الكبير، يدهش رجل بين يديك ويرتعش فتقول: هوّن عليك، لست بملِك! إنما انا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة.. إن مجد هذه الكلمة وحدها ليرجح في نظري فتوح الغزاة كافة وأبّهة القياصرة أجمعين. أنت بأجمعك في هذه الكلمة، وما أضخمها أيها الصادق الأمين ».

٥ - « أي الناس أولى بنفي الكيد عن سيرته من أبي القاسم، الذي حوّل الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة اللّـه رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى السموّ والإيمان. ولم يفد من جهاده لشخصه شيئًا مما يقتتل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام ».

٦ - في آخر خطبة له، وقد تحامل على نفسه وبرز إلى المسجد، قال: « **أيها الناس، أَلَا من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالًا فهذا مالي فليأخذ منه. أَلَا وإنَّ أحبَّـكم إليّ مَنْ أخذ مني حقًّا إن كان له، أو حلّلني فلقيت ربي وأنا طيّب النفس** »[1].. ما أعظم وأروع! فما من مرة تلوت تلك الكلمات، أو تذكرتها، إلَّا سَرَتْ في جسمي قشعريرة. كأني أنظر من وهدة في الأرض إلى قمة شاهقة تنخلع الرقاب دون ذراها. أبعد كل ما قدّمتَ - يا أبا القاسم - لقومك من الهداية والبرّ والرحمة والفضل، إذ أخرجتَهم من الظلمات إلى النور.. تراك بحاجة إلى هذه المقاصة كي تلقى ربك طيب النفس وقد غفر لك من قبل ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ ولكن العدل عندك مبدأ. العدل عندك خلق وليس وسيلة.. ».

٧ - « بماذا يقاس الإيمان، إن لم يكن مقياسه الثبات عليه في أشد الظروف حلكة، وأدعاها للبأس؟ وإن لم يكن مقياسه الصبر في سبيله على المكاره؟ وإنها لمكاره من كل نوع. لعلّ المعنوي منها أقسى من المادي.. لم يساوم هذا الرسول ولم يقبل المساومة لحظة واحدة في موضوع رسالته، على كثرة المساومات واشتداد المحن.. فحيثما تعرض الأمر لدعوته وعقيدته فلا محل لمجاملة مهما قويت بواعثها. أهذا شأن مَنْ يملك من الأمر شيئًا؟ أهذا شأنُ مَنْ لا تسيطر عليه قوة قاهرة أقوى من مراده وهوى نفسه؟ لقد ضُرب وشُج وأُهين في كل مكان فلم يَعْنِهِ من ذلك شيءٌ سوى خوفِه أن يكون باللّـه عليه غضب، فإلَّا يكن ربه غاضبًا عليه فلا يبالي. وقريش تمنّيه بانقلاب الحال إلى ملك مؤثر وثراء مذلل فلا يفكر بشيء

---

(١) ذكره بنحوه عبد الرزاق في المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، توزيع المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، (١٨٠٤٣)، ومحمد بن سعد: الطبقات الكبير، تحقيق إدوار سخاو ورفاقه، طبعة مصورة عن طبعة ليدن - بريل (١٣٢٥هـ) (٢/ ١٩٦).

من ذلك طرفة عين، ويعرض عنه بغير مبالاة. فإلَّا يكن هذا هو الصدق الصادق فقد ارتكست مقاييس تجعل من صاحب هذه المواقف مساومًا.. طالب مغنم ».

نصري سلهب:

١ - « في مكة.. أبصر النور طفل لم يمرّ ببال أمه - ساعة ولادته - أنه سيكون أحدَ أعظم الرجال في العالم، بل في التاريخ، ولربما أعظمهم إطلاقًا ».

٢ - « غدا اسم محمد [ﷺ] أشهر الأسماء طرًّا، وأكثرها ترددًا على الشفاه وفي أعماق القلوب. وحسبه شهرةً وترددًا أن ملايين المؤمنين في العالم يؤدون، كل يوم أكثر من مرة، شهادة مقرونة باسم اللّـه وباسمه ».

٣ - « مَنْ يُنعِمِ التفكير في سيرة هذا الرجل [ﷺ] يرَ نفسه منساقًا إلى الإقرار بأن ما حققه وقام به يكاد أن يكون من دنيا غير التي يعرفها البشر ».

٤ - « هنا عظمة محمد [ﷺ]. لقد استطاع خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن، أن يُحْدِثَ ثورة خُلُقية وروحية واجتماعية، لم يستطعها أحد في التاريخ بمثل تلك السرعة المذهلة ».

٥ - « لا ليس بين الرسل واحد كمحمد [ﷺ] عاش رسالته عمقًا وصعدًا، بُعد مدى، ذوب كيان، عصف بيان، عنف إيمان ».

٦ - « لكأني بمحمد [ﷺ] آلى على نفسه أن يترك للمؤمنين ثروة روحية وأخلاقية، ينفقون منها فلا تنضب ولا تشح؛ لأنها بحجم روحهِ، وهل أن روح النبي تنضب أو تشح؟ ».

٧ - « إن محمدًا [ﷺ] كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، فإذا بهذا الأميّ يُهدي الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية، منذ كانت الإنسانية، ذاك كان الكتاب الـذي أنزلـه اللّـه على رسوله ».

٨ - « ليس في القرآن كله ذكر لمعجزة أو لأعجوبة صنعها النبي [ﷺ]، فحسبه أن المعجزة الكبرى كانت بواسطته، حسبه أن اللّـه اختاره من دون البشر لينزل عليهم تلك الثروة التي لم يرو التاريخ أن ثروة بحجمها جاءت على لسان رجل

واحد. حسبه أن يكون قد نثر تلك الثروةَ بحر فيتها على الناس، فأفادوا منها جميعهم. وستظل مدى الدهر ينبوعًا يرده العطاش إلى الحقيقة والجياع إلى ملكوت اللّٰـه ».

٩ - « إن أُولى الآيات البيّنات كانت تلك الدعوة الرائعة إلى المعرفة، إلى العلم عبر القراءة.. اقرأ.. وقول اللّٰـه هذا لم يكن لمحمد [ﷺ] فحسب، بل لجميع الناس؛ ليوضح لهم منذ الخطوة الأولى، بل منذ الكلمة الأولى، أن الإسلام جاء يمحو الجهل وينشر العلم والمعرفة ».

١٠ - « ذلك العظيم الذي كان يحاول تغيير التاريخ، ويعد شعبًا لفتح الدنيا من أجل اللّٰـه.. ذلك الأمي اليتيم الفقير الذي خاطب الأباطرة والملوك والأمراء من ندّ إلى ندّ، بل كمن له عليهم سلطان.. ذلك الملهم الذي كان همّه أن يعيد الصلة بين الأرض والسماء. ذلك الرجل وجد الوقت الكافي ليلقي على الناس دروسًا في آداب المجتمع، وفي أصول المجالسة وكيفية إلقاء السلام! ».

١١ - « هذا الرجل الذي ما عرف الهدوء ولا الراحة ولا الاستقرار، استطاع، - وسط ذلك الخضمّ الهائل - أن يرسي قواعد دولة، وأن يُشرّع قوانين ويسنّ أنظمة ويجود بالتفاسير والاجتهادات، ولم ينسَ أنه أب وجدّ لأولاد وأحفاد فلم يحرمهم عطفه وحنانه. فكان بشخصيته الفذة، الغنية بالقيم والمعطيات والمؤهلات، المتعددة الأبعاد والجوانب، الفريدة بما أسبغ اللّٰـه عليها من نعم وصفات وبما حباها من إمكانات، كان بذلك كله عالمًا قائمًا بنفسه ».

١٢ - « لم يكن النبي [ﷺ] رسولًا وحسب، يهدي الناس إلى الإيمان، إنما كان زعيمًا وقائد شعب، فعزم على أن يجعل من ذلك الشعب خير أمة أخرجت للناس، وكان له ما أراد ».

* * *
* *
*

بعض المنتمين للإسلام
يتحدثون عن رسول اللّـه ﷺ

هذه طائفة من غير المسلمين الذين انتموا إلى الإسلام، رجالًا ونساء، يدلون بشهاداتهم عن رسول اللّـه ﷺ، فلعلّ فيها الردّ المناسب على كل أولئك الذين تجرّؤوا ويتجرؤون على مقام النبي العظيم من سفلة القوم في الغرب وحاقديهم ومتعصّبيهم وأخيرهم وليس آخرهم رسام الكاريكاتير الدنماركي.

فلنتابع عبر حلقات سبع شهادات أولئك الذين كانت شخصية الرسول المعلم نفسه ﷺ بألقها المدهش ومزاياها المتفردة من بين دوافع عديدة قادتهم إلى اعتناق هذا الدين.

١ - إبراهيم خليل أحمد:

قسّ مبشِّر من مواليد الإسكندرية عام (١٩١٩م)، يحمل شهادة عالية في علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الأمريكية.

عمل أستاذًا بكلية اللاهوت بأسيوط، كما أُرسل عام (١٩٥٤م) إلى أسوان سكرتيرًا عامًّا للإرسالية الألمانية السويسرية، وكانت مهمته الحقيقية التنصير، ولكن تعمقه في دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان بهذا الدين، وأشهر إسلامه رسميًّا عام (١٩٥٩م).

كتب العديد من المؤلفات أبرزها ولا ريب: (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن)، (المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي)، و (تاريخ بني إسرائيل).

« هذه هي حقيقة يثبتها التاريخ؛ فبينما كان العالم الشرقي والعالم الغربي بفلسفاتهما العقيمة، يعيشان في دياجير ظلام الفكر وفساد العبادة، بزغ من مكة المكرمة في شخص محمد رسول اللّـه ﷺ نورٌ وضياء أضاء على العالم فهداه إلى الإسلام »[1].

---

(١) إبراهيم خليل أحمد: محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، مكتبة الوعي العربي، القاهرة (١٩٦٤م) (ص٤٧).

« إن سيدنا عيسى عليه السلام تنبأ عن الرسول الكريم محمد ﷺ بقوله: وأما متى جاء ذلك: روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية. إنجيل يوحنا ١٦: ١٢ و ١٣ »[١].

« يقول برنابا: (سيأتي مسيا - أي الرسول - المرسل من اللّـه لكل العالم.. وحينئذ يسجد للّه في كل العالم وتنال الرحمة) إنجيل برنابا ٨٢: ١٦ - ١٨ »[٢].

« كلمة إنجيل كلمة يونانية تعني بشارة أو بشرى، ولعل هذا الذي نستفيده من سيرة سيدنا عيسى عليه السلام، أنه كان بشرى من اللّـه للرحمة، وبشرى تبشيره عن المسيا الذي سيأتي للعالمين هدًى ورحمة، أَلَا وهو الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ »[٣].

« يقول عيسى عليه السلام في إنجيل برنابا: (لأن اللّـه سيصعدني من الأرض، وسيغيّر منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إيّاي، ومع ذلك فإنه حين يموت شرّ ميتة أمكث أنا في ذلك العار زمنًا طويلًا في العالم، ومتى جاء محمد رسول اللّـه [ﷺ] المقدس تزال عني هذه الوصمة). ١١٢: ٨ - ١٨ »[٤].

٢ - د. م. ح. دوراني:

« سليل أسرة مسلمة منذ القدم، أصبح نصرانيًا في فترة مبكرة من حياته وتحت تأثير إحدى المدارس التبشيرية المسيحية. قضى ردحًا من حياته في كنيسة إنكلترا، يعمل قسيسًا منذ عام (١٩٣٩م) وحتى عام (١٩٦٣م) ».

حيث جاءه الإسلام « كما يأتي فصل الربيع، فعاد إلى دين آبائه وأجداده ».

« أستطيع أن أقول بكل قوة: إنه لا يوجد مسلم جديد واحد لا يحمل في نفسه العرفان بالجميل لسيدنا محمد ﷺ لما غمره به من حب وعون وهداية وإلهام، فهو القدوة الطيبة التي أرسلها اللّـه رحمةً لنا وحبًّا بنا حتى نقتفي أثره »[٥].

---

(١) إبراهيم خليل أحمد: محمد في التوراة والإنجيل والقرآن (ص٩٨).

(٢) المرجع السابق (ص١٠٥). (٣) المرجع السابق (ص١١٤).

(٤) المرجع السابق (ص١٤١).

(٥) عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، دار القلم، الكويت (١٩٧٣ - ١٩٨٣م) (٤/ ٢٧ - ٢٨).

« وأخيرًا أخذت أدرس حياة النبي محمد ﷺ، فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني الذي أقام مملكة للَّه بين أقوام كانوا من قبل متحاربين لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال المشينة، فغيّر طرق تفكيرهم، لا بل بدّل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة، وقانون واحد، ودين واحد، وثقافة واحدة، وحضارة واحدة، وحكومة واحدة، وأصبحت تلك الأمة التي لم تنجب رجلًا عظيمًا واحدًا يستحق الذكر منذ عدة قرون، أصبحت تحت تأثيره وحده تنجب ألوفًا من النفوس الكريمة التي انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه، ونظام الحياة الإسلامية، وتعلم الناس أمور الدين الجديد »(١).

« تحمَّل النبي محمد ﷺ ثلاثة عشر عامًا كاملة من المتاعب في مكة دون انقطاع، وثمانية سنوات في المدينة دون توقف، فلم يتزحزح شعرة عن موقفه، وكان صامدًا، رابط الجأش، صلبًا في أهدافه وموقفه. عرضت عليه أمته أن تنصبه ملكًا عليها وأن تضع عند قدميه كل ثروات البلاد إذا كف عن الدعوة إلى دينه ونشر رسالته، فرفض هذه الإغراءات كلها، واختار بدلًا من ذلك أن يعاني من أجل دعوته.. لماذا؟ لماذا لم يكترث أبدًا للثروة والجاه والملك والمجد والراحة والدعة والرخاء؟ لا بد أن يفكر المرء في ذلك بعمق شديد إذا أراد أن يصل إلى جواب »(٢).

« هل بوسع المرء أن يتصور مثالًا للتضحية بالنفس وحب الغير والرأفة بالآخرين أسمى من هذا المثال؛ حيث نجد رجلًا يقضي على سعادته الشخصية لصالح الآخرين، بينما يقوم القوم أنفسهم الذين يعمل على تحسين أحوالهم ويبذل أقصى جهده في سبيل ذلك، يقومون برميه بالحجارة والإساءة إليه ونفيه وعدم إتاحة الفرصة له للحياة الهادئة حتى في منفاه؟ وأنه رغم كل ذلك يرفض أن يكف عن السعي لخيرهم؟ هل يمكن لأحد أن يتحمل كل هذا العناء والألم من أجل دعوة مزيفة؟ هل يستطيع أي مدخول غير مخلص.. أن يبدي هذا الثبات والتصميم

(١) عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا (٤/ ٢٨، ٢٩).
(٢) المرجع السابق (٤/ ٢٩، ٣٠).

على مبدئه، والتمسك به حتى آخر رمق، دون أدنى وجل أو تعثر، أمام الأخطار وصنوف التعذيب التي يمكن تصورها، وقد قامت عليه البلاد بأكملها وحملت السلاح ضده؟ »[١].

« إن هذا الإيمان والسعي الحثيث، وهذا التصميم والعزم الذي قاد به محمد ﷺ حركته حتى النصر النهائي، إنما هو برهان بليغ على صدقه المطلق في دعوته؛ إذ لو كانت في نفسه أدنى لمسة من شك أو اضطراب، لما استطاع أبدًا أن يصمد أمام العاصفة التي استمر أوارها أكثر من عشرين عامًا كاملة. هل بعد هذا من برهان على صدق كامل في الهدف، واستقامة في الخلق، وسمو في النفس؟ كل هذه العوامل تؤدي لا محالة إلى الاستنتاج الذي لا مفرّ منه، وهو أن الرجل هو رسول اللَّـه ﷺ حقًّا.

هذا هو نبينا محمد ﷺ؛ إذ كان آية في صفاته النادرة، ونموذجًا كاملًا للفضيلة والخير، ورمزًا للصدق والإخلاص.. إن حياته وأفكاره وصدقه واستقامته وتقواه وجوده، وعقيدته ومنجزاته، وكل أولئك براهين فريدة على نبوّته. فأي إنسان يدرس دون تحيّز حياته ورسالته سوف يشهد أنه حقًّا رسول من عند اللَّـه، وأن القرآن الذي جاء به للناس هو كتاب اللَّـه حقًّا. وكل مفكر منصف جاد يبحث عن الحقيقة لا بد أن يصل إلى هذا الحكم »[٢].

٣ - أُتيين دينيه:

تعلَّم في فرنسا، وقصد الجزائر، فكان يقضي في بلده بو سعادة نصف السنة من كل عام، وأشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين (١٩٢٧م)، وحج إلى بيت اللَّـه الحرام (١٩٢٨م)، وألّف عددًا من الكتب أبرزها: (محمد رسول اللَّـه)، و (أشعة خاصة بنور الإسلام).

« إن الشخصية التي حملها محمد ﷺ بين برديه كانت خارقة العادة، وكانت ذات أثر عظيم جدًّا، حتى أنها طبعت شريعته بطابع قوي جعل لها روح الإبداع

---

(١) عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا (٤/ ٣٠).
(٢) المرجع السابق (٤/ ٣٠ - ٣١).

وأعطاها صفة الشيء الجديد »[١].

« إن نبيّ الإسلام هو الوحيد من بين أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات، وليست عمدته الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم »[٢].

« إن سنة الرسول الغراء ﷺ باقية إلى يومنا هذا، يجلوها أعظم إخلاص ديني تفيض به نفوس مئات الملايين من أتباع سنته منتشرين على سطح الكرة »[٣].

« كان النبي محمد ﷺ يُعنى بنفسه عناية تامة، إلى حد أن عرف له نمط من التأنق على غاية من البساطة، ولكن على جانب كبير من الذوق والجمال.. وكان يتمشط أو يسوّي طيات عمامته.. وهو في كل ذلك يريد من حسن منظره البشري أن يرضي الخالق سبحانه وتعالى »[٤].

« لقد دعا عيسى عليه السلام إلى المساواة والأخوة، أما محمد ﷺ فوُفِّق إلى تحقيق المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته »[٥].

٤ - د. أحمد نسيم سوسة:

« باحث مهندس من العراق، وعضو في المجمع العلمي العراقي، وواحد من أبرز المختصين بتاريخ الري في العراق، كان يهوديًا فاعتنق الإسلام متأثرًا بالقرآن الكريم، وتُوفي في مطلع ثمانينيات القرن الماضي.

ترك الكثير من الدراسات في مختلف المجالات وخاصةً في تاريخ الري، ومن مؤلفاته الشهيرة: (مفصل العرب واليهود في التاريخ)، و (في طريقي إلى الإسلام) الذي تحدث فيه عن سيرة حياته ».

« أي غاية أسمى وأقرب إلى الإنسانية ودين اللّـه من تلكم الغايات التي كان يرمي إليها الرسول ﷺ في توحيد القلوب وإظهار الحقيقة؟ لنتصور محمدًا ﷺ

---

(١) إتيين دينيه: أشعة خاصة بنور الإسلام، ترجمة: راشد رستم، المكتب الفني للنشر، سلسلة الثقافة الإسلامية، بيروت (١٩٦٠م) (ص١٥).
(٢) المرجع السابق (ص١٦).
(٣) إتيين دينيه: محمد رسول اللّـه (ص٥١). (٤) المرجع السابق (ص٣١٢).
(٥) المرجع السابق (ص٣٢٣).

وهو يُملي على أهل الكتاب وحي اللّـه قائلًا: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[١] [٢].

« إن نبي الإسلام شخصية تاريخية مبجلة، وما حياة الرسول ﷺ سوى سلسلة وقائع تاريخية عظيمة الشأن، نبيلة المرمى، يتجلى فيها مقامه السامي من الحلقة الإنسانية »[٣].

« كان محمد ﷺ أنموذجًا للحياة الإنسانية، بسيرته وصدق إيمانه، ورسوخ عقيدته القوية، بل مثالًا كاملًا للأمانة والاستقامة، وإن تضحياته في سبيل بث الرسالة الإلهية خير دليل على سمو ذاته ونبل مقصده، وعظمة شخصيته، وقدسية نبوته »[٤].

« إن التاريخ ينبئنا أن محمدًا ﷺ ضحَّى بكل شيء من أجل رسالته؛ إذ أتيح له مرات فرصة الاختيار بين أمرين، **أولهما**: حياة راحة وهناء وغنًى على أن ينبذ دعوته، **وثانيهما**: حياة عسر واضطهاد مقرونةً بنشر رسالته، وقد فضل الأمر الثاني؛ لأن إيمانه برسالته كان قويًّا، وكان قد أُوحي إليه بأنه قد اختاره ربه لبث هذه الرسالة إلى الإنسانية جمعاء، فكان ما أراد اللّـه له »[٥].

٥ - ليوبولد فايس (محمد أسد):

« مفكر وصحفي نمساوي، أشهر إسلامه وتسمى بمحمد أسد، وكان يهوديًّا، وحكى في كتابه القيِّم (الطريق إلى مكة) تفاصيل رحلته إلى الإسلام، وقد أنشأ بمعاونة (وليم بكتول) الذي أسلم هو الآخر مجلة الثقافة الإسلامية في حيدر آباد الدكن، بالهند (١٩٢٧م)، وكتب فيها دراسات وفيرة معظمها في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام، وتُوفي عام (١٩٩٢م) بعد أن ترك مؤلفات جمة؛ أهمها: (أصول الفقه الإسلامي)، و (الطريق إلى مكة)، و (منهاج الإسلام في الحكم)،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٤.
(٢) أحمد نسيم سوسة: في طريقي إلى الإسلام، القاهرة (١٩٣٦م) (١/ ٧٢، ٧٣).
(٣) المرجع السابق (١/ ١٧٤).
(٤) المرجع السابق (١/ ١٧٤ - ١٧٥).
(٥) المرجع السابق (٢/ ١٣٠).

و (الإسلام على مفترق الطرق)، كما ترجم (صحيح البخاري) بتعليق وفهرس ».

« إن العمل بسنة رسول اللّـه ﷺ هو عمل على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه، وإن ترك السنة هو انحلال الإسلام، لقد كانت السنة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الإسلام، وإنك إذا أزلت هيكل بناء ما، أفيدهشك أن يتقوض ذلك البناء كأنه بيت من ورق؟ »(١).

« إن السنة هي المثال الذي أقامه لنا رسول اللّـه ﷺ من أعماله وأقواله، إن حياته العجيبة كانت تمثيلًا حيًّا وتفسيرًا لما جاء في القرآن الكريم، ولا يمكننا أن نصف القرآن الكريم بأكثر من أن نتبع الذي قد بلّغ الوحي »(٢).

« إنه على الرغم من جميع الجهود التي بُذلت في سبيل تحدي الحديث على أنه نظام، فإن أولئك النقاد العصريين من الشرقيين والغربيين لم يستطيعوا أن يدعموا انتقادهم العاطفي الخالص بنتائج من البحث العلمي، وأنه من الصعب أن يفعل أحد ذلك؛ لأن الجامعين لكتب الحديث الأولى، وخصوصًا الإمامين البخاري ومسلم، قد قاموا بكل ما في طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضًا أشد كثيرًا من ذلك الذي يلجأ إليه المؤرخون الأوربيون عادةً عند النظر في مصادر التاريخ القديم »(٣).

« إن رفض الأحاديث الصحيحة، جملةً واحدة أو أقسامًا، ليس حتى اليوم إلا قضية ذوق، قضية قصرت على أن تجعل من نفسها بحثًا علميًّا خالصًا من الأهواء »(٤).

« إن العمل بالسنة يجعل كل شيء في حياتنا اليومية مبنيًّا على الاقتداء بما فعله الرسول ﷺ، وهكذا نكون دائمًا، إذا فعلنا أو تركنا ذلك، مجبرين على أن نفكر بأعمال الرسول وأقواله المماثلة لأعمالنا هذه. وعلى هذا تصبح شخصية أعظم رجل متغلغلة إلى حدٍّ بعيد في مناهج حياتنا اليومية نفسها، ويكون نفوذُه الروحي

---

(١) ليوبولد فايس: الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين (١٩٦٥م) (ص٨٧).

(٢) المرجع السابق (ص٨٨).

(٣) المرجع السابق (ص٩٢).

(٤) المرجع السابق (ص٩٧).

قد أصبح العالمَ الحقيقي الذي يعتادنا طوال الحياة »(١).

٦ - الليدي إيفلين كوبولد:

« نبيلة إنكليزية، اعتنقت الإسلام وزارت الحجاز، وحجت إلى بيت اللَّـه الحرام، وكتبت مذكرات عن رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان: الحج إلى مكة، (لندن ١٩٣٤م)، والذي تُرجم إلى العربية بعنوان: (البحث عن اللَّـه) ».

« هذه هي مدينة الرسول ﷺ.. تعيد إلى نفسي ذكرى جهوده في سبيل **لا إله إلا اللَّـه**، وتلقي في روحي صبره على المكاره، واحتماله الأذى في سبيل الوحدانية الإلهية »(٢).

« وكان العرب قبل محمد ﷺ أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلماء جاء محمد ﷺ بعث هذه الأمة بعثًا جديدًا يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات، فغلبت العالم وحكمت فيه آجالًا وآجالًا.. »(٣).

« لعمري، ليجدن المرء في نفسه، ما تقدم إلى قبر الرسول ﷺ، روعةً ما يستطيع لها تفسيرًا، وهي روعة تملأ النفس اضطرابًا وذهولًا ورجاءً وخوفًا وأملًا، ذلك أنه أمام نبي مرسل ورجل عظيم لم تلد مثله البطون حتى اليوم.. إن العظمة تهز القلوب وتثير الأفئدة، فما بالك إذا انتظمت مع النبوة؟ وما بالك بها وقد راحت تضحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية؟ »(٤).

« لقد استطاع النبي ﷺ أن يحمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام وقبول الوحدانية الإلهية.. لقد وُفق إلى صياغة العرب صياغة جديدة ونقلهم من الظلمات إلى النور »(٥).

« مع أن محمدًا ﷺ كان سيد الجزيرة العربية، فإنه لم يفكر في الألقاب، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل على حاله مكتفيًا بأنه رسول اللَّـه ﷺ، وأنه

---

(١) ليوبولد فايس: الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين (١٩٦٥م) (ص١٠٩).

(٢) إيفيلين كوبرلد: البحث عن اللَّـه ترجمة عمر أبو نصر، المكتبة الأهلية، بيروت (١٩٣٤م) (ص٣٩ - ٤٠).

(٣) المرجع السابق (ص٥١).

(٤) المرجع السابق (ص٥٢).

(٥) المرجع السابق (ص٦٦ - ٦٧).

خادم المسلمين، وينظف بيته بنفسه، ويصلح حذاءه بيده، كريمًا بارًّا كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحيان قليلًا لا يكاد يكفيه »(١).

٧ - عبد اللَّه كويليام:

« مفكر إنكليزي، ولد سنة (١٨٦٥م)، وأسلم سنة (١٨٨٧م)، وتلقب باسم (الشيخ عبد اللَّه كويليام).. من آثاره: (العقيدة الإسلامية)، و (أحسن الأجوبة) ».

« كان محمد ﷺ أعظم ما يكون من كريم الطباع، وشريف الأخلاق، ومنتهى الحياء، وشدة الإحساس.. وكان على خلق عظيم، وشيم مرضية، مطبوعًا على الإحسان »(٢).

« إن بعض كتّاب هذا العصر الحاضر كادوا أن يعرفوا بأن الطعن والقدح والشتم والسب ليس بالحجة ولا البرهان، فسلّموا بذكر الكثير من صفات النبي ﷺ السامية، وجليل أعماله الفاخرة »(٣).

« وما اهتدى مئات الملايين إلى الإسلام إلا ببركة محمد ﷺ الذي علمهم الركوع والسجود للَّه، وأبقى لهم دستورًا لن يضلوا بعده أبدًا، وهو القرآن الجامع لمصالح دنياهم ولخير أُخراهم.. »(٤).

« لما شرّف محمد ﷺ ساحة عالم الشهود بوجوده الذي هو الواسطة العظمى والوسيلة الكبرى إلى اعتلاء النوع الإنساني وترقّيه في درجات المدنية، أكمل ما يحتاجه البشر من اللوازم الضرورية على نهج مشروع، وأوصل الخلق إلى أقصى مراتب السعادة بسرعة خارقة، ومن نظر بعين البصيرة في حال الأنام قبله وما كانوا عليه من الضلالة.. ونظر في حالهم بعد ذلك وما حصل لهم في عصره من الترقي

---

(١) إيفلين كوبرلد: البحث عن اللَّه ترجمة عمر أبو نصر، المكتبة الأهلية، بيروت (١٩٣٤م) (ص٦٧).

(٢) عبد اللَّه كويليام: العقيدة الإسلامية، ترجمة، محمد ضيا، القاهرة (١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) (ص٩٦ - ٩٧).

(٣) المرجع السابق (ص١١٣ - ١١٤).

(٤) المرجع السابق (ص٣٨).

العظيم، رأى بين الحالين فرقًا عظيمًا، كما بين الثريا والثرى »[١].

« امتدت أنـوار المدينة بعد محمد ﷺ في قليل من الأزمان ساطعةً في أقطار الأرض من المشرق إلى المغرب، حتى أن وصول أتباعه في ذلك الزمن اليسير إلى تلك المرتبة العليا من المدنية قد حيّر عقول أولي الألباب، وما السبب في ذلك إلّا كون أوامره ونواهيه موافقةً لموجب العقل، ومطابقة لمقتضى الحكمة »[٢].

* * *
* *
*

(١) عبد اللّـه كويليام: أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوربا، بغداد (١٣٣٠هـ) (ص٢١ - ٢٢).
(٢) المرجع السابق (ص٢٢ - ٢٣).

لحظات صعبة في حياة الرسول ﷺ

دعونا نرحل - عبر هذه المحاضرة - في عدد من اللحظات الصعبة والمشحونة، من حياة رسول اللّـه ﷺ.. هذا النبي المجاهد، الصبور، المكافح، الذي مزج الليل بالنهار، وواصل العمل لمدى ثلاثة وعشرين عامًا، فحقّق بذلك أعظم إنجاز في تاريخ البشرية، فيما دفع باحثًا أمريكيًّا مسيحيًّا كـ (هارث) إلى أن يضعه في قمة المائة الأوائل الذين اختارهم في كتاب له يحمل العنوان نفسه.. وكان معياره: القدرة على الإنجاز فيما هو ديني ودنيوي معًا.

هذا النبي المقاوم الذي جابه ببطولة نادرة كل صنوف الإغراء وتفوّق عليها: السلطة، الأمان، المال، الطعام، النوم، التفرّد، الكبرياء، وعظمة البطولة..

وما هي إلّا لقطات سريعة من بين حشود كثيرة مزدحمة أخرى من اللحظات المشحونة بالهمّ، والتحدّي، والحزن، والجوع، والسهر..

أولى هذه اللحظات الصعبة، المشحونـة، هي صدمـة الوحـي.. بكل قوّتها، وفجاءتها، وغرابتها، وزخمها، وعنفوانها.. حيث كان في كل لقاء تتفصّد جبهته عرقًا في الليالي الشاتية.. إننا إذا مسّنا تيار خفيف من الكهرباء، ارتعبنا، واصفرّت وجوهنا، وارتعدت أطرافنا.. فكيف بمس التيار الأعظم في هذا الكون؟ كيف بفجاءته على غير توقّع؟ كيف بضغطه الرهيب على الجملة العصبية.. على الدماغ.. على اللحم والدم.. رحماك يا رسول اللّـه.. كيف تحمّلت هذا كلّه على مدى ثلاثة وعشرين عامًا؟

ثم ما يلبث هذا المعلّم الكبير أن يُؤمر بإعلان دعوته على الملأ من قريش، حيث يبدأ مسلسل المساومة، والملاحقة، والأذى، والعـذاب.. وهو صابر محتسب، صامد كالجبال الرواسي.. « **واللّـه يا عمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره اللّـه أو أهلك دونه!!** »[1].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م) (١/ ٢٦٦).

في إحدى المرّات، حيث كان يصلّي بجوار الكعبة، أُغري أحد أشقياء مكة بوضع جزور متعفّن على رأسه الشريف وهو يمارس السجود، فينهض قائمًا وهو ينتفض، فرأته ابنته فاطمة فبكت وقالت: كيف يفلح قوم آذوا رسولهم ووضعوا على رأسه الجزور؟ وجاءه الملك جبريل عارضًا عليه أن يطبق الأخشبين - وهما جبلان بمكة - على رؤوس المكيين، لكي يجعلهم خبرًا من الأخبار.. لكنه ﷺ رفض العرض، مؤملًا في هداية قومه، وقال: « **اللّـهم اغفر لقومي واهدهم فإنهم لا يعلمون** »(١)!!

عندما أيقنت قريش أنها قد هُزمت في محاولتها استرداد المهاجرين إلى الحبشة، وأن الإسلام أخذ ينتشر بين القبائل، فضلًا عن إسلام عمر بن الخطاب الذي عزز جانب المسلمين في صراعهم ضد الوثنية، قرر زعماؤها اعتماد أسلوب جديد في مجابهة الحركة الإسلامية يقوم على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب الذين كان أبو طالب قد دعاهم إلى ما هو فيه من منع الرسول ﷺ دون قريش، وكل مَنْ يساندهم وينتمي إليهم مسلمين ومشركين، وأن تكون هذه المقاطعة شاملة لكافة المعاملات والعلائق الاجتماعية والمالية، فلما سرى النبأ في مكة دخل بنو هاشم وبنو طالب إلى شعب أبي طالب في الجبال المحيطة بمكة.

استمرت المقاطعة سنتين وعدة أشهر، كان لا يصل المسلمين خلالها شيء إلّا سرًّا.. ولاقى المسلمون ونبيهم ﷺ خلال ذلك آلامًا قاسيةً من الجوع والخوف والعزلة والحرب النفسية.. وخلال ذلك شددت الزعامة الوثنية حملتها ضد النبي ﷺ وراحت تهمزه وتهزأ به وتخاصمه وتدفع مَنْ يرميه بالحجارة ويضع في طريقه الشوك، ولكنه مضى في دعوته لا يصده عائق، وتنزلت آيات القرآن متتالية كالحمم تقرَع رؤوس الوثنية واحدًا واحدًا..

طالت أيام الحصار، واشتد الأذى بالمنقطعين في الشِّعب، فلم يكن لأحد من قريش أن يزوجهم أو يتزوج منهم، ولا أن يبيع أو يبتاع منهم، فعصرهم الجوع عصرًا،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) بنحوه، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ).

وتضاغى صبيانهم فسمع ضغاءهم من وراء الشِّعب، حتى أن أحد المحاصرين اضطر يومًا أن يطحن قطعةً من جلد بعير ويمزجها بالماء ويلتهمها التهامًا..

إلّا أنَّ تذمُّر بعضِ رجال قريش وشبابها من هذا الظلم الصارخ دَفَعَهُم إلى وقف القطيعة، وتمزيق الصحيفة الغادرة، وإعادة الأمور إلى مجاريها.

* * *

ما لبث الرسول ﷺ أن فُجع بأعز أقربائه إليه: زوجته البرّة خديجة، وعمه أبي طالب، ففقد بذلك سنديه النفسي والاجتماعي، وحزن لفقدهما حزنًا عميقًا، حتى إن ذلك العام الذي سبق الهجرة بثلاث سنين سُمي بعام الحزن، وانتهزت قريش الفرصة فألحقت بالرسول من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب. وقد اعترضه مرة أحد سفهاء قريش في الطريق، ونثر على رأسه ترابًا، فدخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إحدى بناته لتنفضه عنه وهي تبكي، ورسول اللّـه يقول لها: « **لا تبكي يا بنية؛ فإن اللّـه مانع أباك** »[(١)].

* * *

أدرك الرسول ﷺ أن القيادة الوثنية في مكة مصرّة على الوقوف في وجه دعوته، ماضيةٌ في إلحاق أذاها به، واضطهاد أتباعه وفتنتهم عن دينهم، فرأى أن يغادرها إلى مكان آخر ينشر فيه دعوة الإسلام ويطلب من أهله النصرة والمنعة، فوقع اختياره على الطائف حيث تقطن ثقيف كبرى القبائل العربية بعد قريش، فغادر مكة في شوال من السنة العاشرة للبعثة يصحبه زيد بن حارثة، ولمّا انتهى إلى هناك عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذٍ سادتها وأشرافها، فجلس إليهم ودعاهم إلى اللّـه، وعرض عليهم المهمة التي جاء من أجلها وهي أن ينصروه على الإسلام ويمنعوه من قومه، فلم يلتفتوا إليه وعلقوا على دعوته ساخرين، فقال أحدهم: إنني أمزّق ثياب الكعبة إن كان اللّـه قد أرسلك!! وقال الآخر: أما وجد اللّـه أحدًا يرسله غيرك؟! وقال الثالث: واللّـه لا أكلمك أبدًا.. لئن كنت رسولًا من عند اللّـه كما تقول لأنت أعظم

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤١٦)، والبيهقي: دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) (٢/ ٢٤٠).

خطرًا من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على اللّـه ما ينبغي لي أن أكلمك!!

فغادرهم الرسول ﷺ بعد أن طلب منهم أن يكتموا ما جرى بينه وبينهم؛ إذ كره أن يبلغ قومَه ذلك فيجرؤهم عليه، لكن زعماء ثقيف لم يستجيبوا لطلبه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به، ويرمونه بالحجارة، فلم يكن يرفع قدمًا ويضع أخرى إلّا على الحجارة، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى بستانٍ لعتبةَ وشيبةَ ابني ربيعة، وكانا هناك، فتفرق عنه سفهاء الطائف وقدماه تنزفان دمًا، فعمد إلى ظل كرمة ونادى ربه: « **اللّـهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس.. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكنْ عافيتُك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت ليه الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك** »[1]!!

❋ ❋ ❋

نجحت تجربة المؤاخاة التي سعى الرسول ﷺ من خلالها إلى حلّ المشكلة المعيشية للمهاجرين الذين تركوا أموالهم ودورهم في مكة وجاؤوا إلى المدينة وهم لا يكادون يملكون شيئًا.. ذلك أن الأرضية التي أقيمت عليها والقيادة التي خططتها ونفذتها، استكملت كل شروط النجاح في مجتمع شاب يحكمه مبدأ العطاء قبل الأخذ، وتشده أواصر العقيدة وحدها، ويوجهه الإيمان العميق في كل فاعلياته، ويقوده الرسول الأسوة الذي ضرب بتجرده وإيثاره وانسلاخه عن الأخذ وعطائه الدائم، مثلًا عاليًا ومؤثرًا يحرك حتى الحجارة الصمّ لكي تنبجس فيتدفق منها الماء. وأنى لتجربة كهذه أن تفشل وتتعثر والرسول ﷺ يخوض مع أصحابه تجربة الفقر والجوع في سني الهجرة الأولى ويعاني كما يعانون، بل أكثر مما يعانون، دون أن يفكر يومًا بأن يمتطي (منصبه الأعلى) ليسلك طريقًا آخر

---

(١) ابن كثير جامع المسانيد والسُّنَنُ الهادي لأقوم سَنَن، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٩ - ١٩٩٨م) (٥/ ١٢٥).

غير الذي يسلكه أتباعه، فيثرى ويفتقرون، ويشبع ويجوعون، ويأخذ ويُعطون. أو لم يشكُ له أصحابه يومًا الجوع ويكشفوا عن بطونهم التي شد كل منهم عليها حجرًا لكي يؤكدوا له ما يعانون، فإذا به يبتسم، وقبل أن يتكلم يكشف عن بطنه فإذا بقطعتين من الحجارة قد شُدّتا عليها؟!

روى البخاري أن أنس بن مالك قال: ما أعلم النبي رأى رغيفًا مرققًا حتى أُلحق باللّـه، ولا رأى شاةً سميطًا بعينه قط. وعن عائشة ﵂ قالت: إنا كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلّة في شهرين وما أوقدت في بيوت رسول اللّـه نار. فقال لها عروة ابن الزبير: ما كان يعيشكم يا خالة؟ قالت: الأسودان: التمر والماء. وقالت: لقد توفي رسول اللّـه ﷺ وما في رفّي من شيء يأكله ذو كبد إلّا شطر شعير في رقّ لي.

* * *

في معركة أُحد عام ثلاث للهجرة، وعندما احتدم القتال بين الطرفين، راح حمزة عم الرسول ﷺ يقطف رؤوس القرشيين واحدًا واحدًا، ويحدث في صفوفهم خللًا واضطرابًا، وهو ينهد عليهم يمينًا وشمالًا، لولا أن كمن له وحشي غلام جبير ابن مطعم، الذي يجيد الإصابة بحربته الحبشية، والذي كان قد وُعد من قِبل سيده أن ينال حريته إذا ما تمكّن من قتل حمزة.. ويحدثنا وحشي كيف قضى على العملاق: « وهززت حربتي حتى إذا رضيت عنها، دفعتها عليه فوقعت في ثنّته حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوي فغلب فوقع، وأمهلته، حتى إذا مات جئت وأخذت حربتي ثم تنحيت إلى العسكر، ولم تكن لي بشيء حاجة إلى غيره.. ».

بعد المعركة خرج الرسول ﷺ يبحث عن جسد عمه حمزة فوجده في بطن الوادي قد بقرت بطنه، فقال: « **لولا أن تحزن صفية (شقيقته) ويكون سُنة من بعدي، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني اللّـه على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلًا منهم** »[(١)]!!

فلما رأى المسلمون حزن الرسول ﷺ وغيظه قالوا: واللّـه لئن أظفرنا اللّـه بهم

(١) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة (١٩٦١ - ١٩٦٢م) (٢/ ٥٢٨)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٩٥).

يومًا من الدهر لنمثلن بهم مثلةً لم يمثلها أحد من العرب. إلّا أن الآيات القرآنية ما لبثت أن تنزّلت بالقيم الإنسانية الثابتة التي تتجاوز مواقف الانفعال والآلام: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[1]، فعفا الرسول ونهى عن المثلة، ثم أمر بحمزة فسُجّي ببردة ثم صلى عليه، ثم أمر بالقتلى يوضعون إلى جانب حمزة واحدًا واحدًا، فصلى عليهم وعليه، حتى أنه صلى عليه اثنتين وسبعين صلاةً هي عدد القتلى من المسلمين!!

وجاءت صفية بنت عبد المطلب وقد سمعت بأن أخاها قد مُثّل به، فقالت: ما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء اللّه..

ثم وقف عليهم رسول اللّه وقال: « **أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في اللّه إلّا ويبعثه اللّه يوم القيامة يَدْمَى جرحه، اللون لون دم والريح ريح مسك** »[2]!!

* * *

لم يرتح المسلمون لأحداث صلح الحديبية ونتائجه، سيما وأنهم جاؤوا يحملون أملًا بدخول مكة والطواف بالبيت العتيق في أعقاب رؤيا الرسول ﷺ، وها هم يعودون من حيث جاؤوا دون أن يتحقق أملهم، هذا فضلًا عما في بنود الصلح نفسها وصيغته من أمور رأوا فيها تنازلًا للمشركين. ثم أن الرسول ﷺ لم يستشر أصحابه، على غير ما ألفوا منه، في هذا الاتفاق، مع أنه في شؤون الحرب والسلم التي سلفت كان يرجع إليهم، وربما نزل على رأيهم وهو له كاره كالذي حدث في معركة أُحد.. لكنه اليوم ينفرد بالعمل ويُقرّ ما يكرهون على غير ضرورة ملجئة، ثم جاءت قضية تسليم أبي جندل لأعدائهم إثارة جديدة لأعصابهم المرهقة وحنقهم الذي عبّر عنه عمر بن الخطاب ﷺ صراحةً.

---

(١) سورة النحل: الآيات ١٢٦ - ١٢٨.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣٣)، ومسلم (١٨٧٦).

من أجل ذلك كلّه دخل عليهم من الهمّ والغم أمرٌ عظيم حتى كادوا يهلكون، وعندما أمرهم الرسول ﷺ بنحر الهدي وحلق رؤوسهم إيذانًا بالعودة للمدينة لم يستجيبوا له لأوّل مرة في حياتهم.. وكانت لحظات صعبة أحاقت بالرسول ﷺ الذي وجد نفسه إزاء عصيان أصحابه.. فما كان منه إلّا أن يدخل خيمة زوجته البرّة أم سلمة يعرض عليها محنته، فأشارت عليه بأن يخرج عليهم فينحر ويحلق رأسه، وبذلك يضعهم أمام الأمر الواقع.. فلما رأى أصحابه ذلك راحوا ينحرون ويحلقون وهم يتميزون غيظًا وألمًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا من الغم، دون أن يدركوا أن الصلح الذي تمخض عن مرونة الرسول وتنازله عن بعض الشكليات في صياغة الوثيقة وبنودها، كان أكبر فتح في تاريخ الدعوة الإسلامية منذ انبعاثها قبل تسع عشرة سنة، وأن الرسول بموقفه ذاك قد فتح طريقًا جديدًا أمام الحركة الإسلامية أوصلها إلى آفاق جديدة ومساحات واسعة لم يكن أحد من المسلمين يطمع في الوصول إليها قبل سنين وسنين.

* * *

في السنة الثامنة للهجرة كان على الرسول ﷺ أن يتخذ موقفًا حاسمًا إزاء القبائل العربية النصرانية الموالية للبيزنطيين، بعد المواقف الغادرة التي اتخذها بعض أمرائها من دعاة الإسلام ورسلهم إلى الشام. وكانت حادثة مقتل الحارث بن عمير الأزدي مبعوث الرسول ﷺ إلى ملك بصرى على يد شرحبيل بن عمرو الغسّاني في مؤتة هي التي استفزت الرسول لتأديب عرب الشمال الموالية للبيزنطيين، فجهز جيشًا كبيرًا نسبيًّا يبلغ ثلاثة آلاف مقاتل ولّى قيادته زيد بن حارثة، وأمره بالانطلاق صوب الشمال لتأديب القبائل العربية على فعلتها إن لم تستجب لدعوة الإسلام، وإشعارها بقوة الدولة الإسلامية وقدرتها على ردع الغادرين والمعتدين الذين يرون في الحماية البيزنطية سببًا يدفعهم إلى الجرأة والعدوان، ولاستطلاع قوة وكفاية وطبيعة الأرض هناك.

ونظرًا لبعد الطرق واحتمال مجابهة قوًى كثيرة العدد، ألحق الرسول ﷺ بقائد الجيش قائدين احتياطيين هما جعفر بن أبي طالب وعبد اللّـه بن رواحة، يتوليان

الأمر أحدهما بعد الآخر في حالة إصابة القائد الأوّل، مما يدل على بُعد النظر الذي كان الرسول ﷺ يتمتع به.

لكن هذا الجيش بوصوله إلى مؤتة فوجئ بحشد كبير من الروم وأنصارهم العرب، يفوقه بكثير.. وبدأت المعركة القاسية التي راح قادة الجيش الإسلامي يتساقطون فيها الواحد بعد الآخر.. وتصل أنباء مصارعهم إلى رسول اللّـه ﷺ، بطريقة أو أخرى، فيتجرع كؤوسًا من العلقم.. فها هم ثلاثة من خيرة أصحابه يستشهدون، فكيف لا تملأ نفسه المرارة وينتابه الحزن العميق.. ولولا تولّي خالد ابن الوليد قيادة الجيش والانسحاب به دون أن يخسر سوى بضعة عشر رجلًا لتعرّض مقاتلوه للإبادة.. ولذلك، وتثمينًا من رسول اللّـه ﷺ لقائده خالد أطلق عليه لقب (سيف اللّـه المسلول).

وصلت القوات المتراجعة إلى المدينة، بعد مسيرة مجهدة في جحيم الصحراء، وتلقّاهم رسول اللّـه ﷺ والمسلمون، والصبيان يعدون من ورائهم ويهتفون: يا فرّار! فررتم في سبيل اللّـه؟! فيجيبهم الرسول، وهو يكتم في وجدانه حفنات من المرارة: « **ليسوا بالفرّار، ولكنهم الكرّار إن شاء اللّـه تعالى** »[1]. ولقد كرّوا فعلًا على أعدائهم بعد قليل، فأمة يستنكر فيها الهزيمة حتى أطفالها الصغار الذين لم يعتادوا عودة كبارهم مقهورين، لا بدّ أن يجول كبارها جولات وجولات حتى تتحقق الكلمة التي حملوها إلى العالم!!

* * *

في الانتصارات الكبيرة للقادة الزعماء، يدخلون فاتحين وقد رفعوا رؤوسهم إلى السماء ودفعوا بصدورهم إلى الأمام تباهيًا وإعجابًا بما حققوه.. وإن المرء ليتذكر هنا صورة لنابليون بونابرت رسمها له أحد مصوريه المرافقين لحظة انتصاره على ألمانيا في معركة ينّا عام (١٨٠٧م).. صورة يبدو فيها نابليون وقد امتطى حصانه الأشهب، دافعًا بصدره إلى الأمام كأنه يقول لجماهير الناس: ها أنا ذا البطل التاريخي الذي قدر على كسر العسكرية الألمانية التي لا تُغلب، ها أنا ذا

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٨٢).

أنتصر عليها وأسحقها وأدخل ألمانيا فاتحًا منتصرًا..

نقارن هذا بلحظة دخول رسول اللّـه ﷺ مكة، عاصمة الوثنية العربية فاتحًا، وهو الانتصار الأكبر عبر صراعه الطويل.. فإذا به وهو يمتطي ناقته القصواء يطأطئ رأسه، ويطأطئه حتى كادت لحيته الشريفة تمسّ ظهر القصواء.. خجلًا وامتنانًا للّه الذي مكّنه من هذا النصر العظيم.. إنها لحظات تطيش لها ألباب القادة والزعماء الذي يسعون لتعبيد الناس لأنفسهم.. لكن الأنبياء لهم منطق آخر!!

* * *

إنما كانت حادثة الإفك، من أشد اللحظات مرارةً في حياة رسول اللّـه!!

كيف وهو يُطعن في شرفه!! وممّن؟ من خصومه المنافقين، ومن عدد من أصحابه المسلمين أنفسهم.. وهو لا يدري كيف يردّ عليهم، ويُسْكِتُ شائعاتِهم الخبيثة التي راحوا يروّجون لها لغرض في نفوسهم..

ونترك الحديث لأم المؤمنين نفسها، عائشة المبرّأة الصدّيقة رضي الله عنها، فهو أبلغ من كل كلام، قالت: « كان رسول اللّـه ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاة غزاها فخرج سهمي، فخرجت معه بعدما أُنزل الحجاب، فأنا أُحمَلُ في هودج وأُنْزَلُ فيه. فسرنا، حتى إذا فرغ رسول اللّـه ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذن فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي أركب وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلهن ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن اللعقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج، وكنت جاريةً حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا. فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منزلهم وليس فيه أحد، فأممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليّ. فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني، وكان يراني قبل

الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرّسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك!!

وكان الذي تولى الإفك عبد اللَّـه بن أُبيٍّ ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت بها شهرًا والناس يفيضون في قول أصحاب الأفك، ويريبني في وجعي أني لا أرى من النبي اللُّطفَ الذي كنت أرى منه حين أمرض، إنما يدخل فيسلم فيقول: « **كيف تيكم؟** »، لا أشعر بشيء من ذلك، حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح في حاجة لنا، فعثرت في مرطها فقالت: تعس مسطح!! فقلت لها: بئس ما قلت! أتسبين رجلًا شهد بدرًا؟! فقالت: ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسول اللَّـه ﷺ فقلت: ائذن لي إلى أبويّ، وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلهما، فأذن لي، فأتيت أبويّ فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنيَّة، هوّني على نفسك الشأن، فواللَّـه لقلّما كانت امرأة قط وضيئةٌ عند رجل يحبها ولها ضرائر إلّا أكثرن عليها! فقلت: سبحان اللَّـه! ولقد تحدّث الناس بهذا؟!

وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي، وقد بكيت ليلتين ويومًا حتى أظن أن البكاء فالق كبدي.. فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول اللَّـه ﷺ فجلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل لي ما قيل قبلها، وقد مكث شهرًا لا يُوحى إليه في شأني بشيء، فتشهّد ثم قال: « **يا عائشة، لقد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك اللَّـه، وإن كنت ألمَمْتِ بذنب فاستغفري اللَّـه وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب اللَّـه عليه** ».

فلما قضى رسول اللَّـه ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عني رسول اللَّـه. قال: واللَّـه ما أدري ما أقول لرسول اللَّـه! فقلت لأمي: أجيبي عني رسول اللَّـه فيما قال. قالت: واللَّـه ما أدري ما أقول لرسول اللَّـه! وكنت جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن، فقلت: واللَّـه لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم وصدَّقتم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة - واللَّـه يعلم إني لبريئة - لا تصدقونني بذلك، ولئنِ اعترفتُ لكم بأمر -

واللَّـه يعلم إني لبريئة - لتصدقونني، واللَّـه ما أجد لي ولكم مثلًا إلّا أبا يوسف إذ قال: ﴿ .. فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾(١).

ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرّئني اللَّـه، ولكن واللَّـه ما ظننت أن ينزل في شأني وحيًا يُتلَى، وأنا أحقَر في نفسي من أن يتكلم القرآن في أمري، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول اللَّـه في النوم رؤيا يبرّئني اللَّـه بها، فواللَّـه ما رام مجلسَه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ. فلما سُرّي عن رسول اللَّـه ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: « **يا عائشة، احمدي اللَّـه فقد برأك اللَّـه** ». فقالت لي أمي: قومي إلى رسول اللَّـه. فقلت: لا، واللَّـه لا أقوم إليه ولا أحمد إلّا اللَّـه. فأنزل اللَّـه ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٢).

وكان رسول اللَّـه ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال: « **يا زينب، ما علمتِ مما رأيتِ؟** ». فقالت: يا رسول اللَّـه، أحمي سمعي وبصري، واللَّـه ما علمت عليها إلّا خيرًا. وهي التي كانت تساميني، فعصمها اللَّـه بالورع »(٣).

* * *

وبعد.. فمهما قلنا، ومهما تحدّثنا، فسيظل في حياتك يا رسول اللَّـه بعدٌ لن نبلغه أبدًا؛ لأن أحدًا منا لم يكن معك مهاجرًا، مطاردًا، وغريبًا، ليسمع قلبك الكبير وهو ينبض بآمالٍ وأمانٍ لا يحتملها قلب إنسان، وينوء بها كل وجد إلّا وجدك يا رسول اللَّـه، ذلك الذي خفق بانتظار اليوم الذي ستجتاح فيه خيول أصحابك وأتباعك ديار المشارق والمغارب، وتغيّر خرائط العالم.

إن بعدًا روحيًّا غيبيًّا يكمن في كل خطوة خطوتها يا رسول اللَّـه، وأنت القائل:

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٨. (٢) سورة النور: الآية ١١.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٥٠، ٢٦٦١)، ومسلم في صحيحه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (٢٢٧٠).

« لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا »[1]!!

فعفوًا رسول اللّـه إن قصّرنا أو أخطأنا ونحن نتحدث عنك حديث المحبّين الذين يلجؤون إليك لكي تمنحهم المزيد من التعاليم.. وسلامٌ على النبي الإنسان!!

* * *

* *

*

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٥)، ومسلم (٢٣٥٩).

حول منهج النبي ﷺ مع المخالفين

تمهيد:

أوّل ما يلحظه المرء وهو يتابع ظاهرة تعامل النبي ﷺ مع المخالفين رؤيته النافذة لمطالب اللحظة التاريخية، وتنويعه صيغ التعامل بما يتناسب وتلك اللحظة، وعدم تشنُّجه على صيغة نمطية واحدة (ساكنة) تنزل كالمسطرة على كل الحالات.

ابتداءً، وكمبدأ عام، نلحظ كيف أنه ﷺ يعتمد الخط الجهادي العسكري، جنبًا إلى جنب مع الخط السياسي الديبلوماسي، والخط التربوي التوجيهي جنبًا إلى جنب مع الخط التشريعي، وبناء الإنسان الفرد جنبًا إلى جنب مع بناء الجماعة، والخطاب الدعوي جنبًا إلى جنب مع بناء المؤسسات.. والإلزام جنبًا إلى جنب مع الاختيار.. واعتماد القرار المركزي جنبًا إلى جنب مع الشورى.. وهكذا إزاء سائر الثنائيات أو التقابلات الأخرى في الحياة على امتدادها.

وقد أتاح له هذا حرية الحركة، والقدرة على التأثير والحسم والإنجاز، كما أتاح له أن يكسب المساحة الأوسع من المخالفين، داخل الدائرة الإسلامية وخارجها، وأن يجعل معظم حلقاتها طوع يديه بدلًا من أن تكون « عليه ».

والمخالفون ليسوا سواء، ويمكن متابعتهم وفق الدوائر التالية:

١ - المسلمون.   ٢ - المنافقون.

٣ - أهل الكتاب.   ٤ - الوثنيون.

ولن يتسع المجال لاستقصاء مفردات هذه الدوائر الأربع من أطرافها كافة؛ لأن هذا سيقودنا - بالضرورة - إلى فتح ملف السيرة النبوية على مصراعيه، وإنما هي مجرد تأشيرات على (المحطات) الأكثر أهمية والتي قد تغني عن التفاصيل وتجيب في الوقت نفسه عن السؤال التالي الذي هو موضوع البحث: كيف كان رسول اللّـه ﷺ يتعامل مع المخالفين؟

١ - في الدائرة الإسلامية:

في الدائرة الإسلامية يمكن أن نتوقف قليلًا عند المحطات التالية:

١ - الشورى وتغيير القرار.

٢ - الأمور الإجرائية (الفنية).

٣ - التسامح في ضوء المعطيات الشخصية.

٤ - رفض ادعاء الفرادة والقداسة ومصادرة الآخر فيما لا يسمح له بإبداء وجهة نظره الخاصة.

قبيل معركة بدر (٢هـ) يستشير الرسول ﷺ أصحابه ويذيع عليهم تفاصيل ما ورده من أنباء عن قريش، فيقوم أبو بكر الصديق فيقول ويُحسن، ويقوم عمر ابن الخطاب فيقول ويُحسن، ثم يقوم المقداد بن عمرو فيقول: « يا رسول اللّـه، امضِ لما أراك اللّـه فنحن معك، واللّـه لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون،فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مدينة في الحبشة) لجالدنا معك من دونها حتى تبلغها ».

وبهذا عبّر المهاجرون على لسان قادتهم عن رغبتهم العميقة في القتال وإطاعة الرسول ﷺ الذي رأى وجوب أخذ رأي الأنصار بعد ذلك، ولا سيما وأنهم في بيعتهم له في العقبة لم يلتزموا بقتال خارج مدينتهم، فسألهم: « **أشيروا عليَّ أيها الناس..** »، فقام سعد بن معاذ فقال: « قد آمنا بك وصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، فامضِ يا رسول اللّـه لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضتَهُ لخُضْنَاه معك ما تخلَّف عنك رجلٌ واحد ». فسُرّ رسول اللّـه ﷺ وقال لأصحابه: « **سيروا وأبشروا، فإن اللّـه قد وعدني إحدى الطائفتين، واللّـه لكأني أنظر إلى مصارع القوم** »[1]. وتقدم بأصحابه حتى

---

(١) عبد الملك بن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة (١٩٦٤م)، (ص١٥٢ - ١٥٣)، محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٤٣٤ - ٤٣٥)، محمد بن سعد: كتاب الطبقات الكبير (٢/ ١ - ٨)، ابن المبارك الزبيدي: =

إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به، فسأله الحباب بن المنذر: يا رسول اللّـه، أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلك اللّـه ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فأجاب: « **بل هو الرأي والحرب والمكيدة** »، فقال الحباب: يا رسول اللّـه فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله، ثم نغوّر ما وراءه، ثم نبني عليها حوضًا فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فما كان من رسول اللّـه ﷺ إلّا أن يقول: « **لقد أشرت بالرأي** »، ثم يأمر بتنفيذ خطته. وعرض عليه سعد بن معاذ أن يُقام له عريش يتولى منه قيادة المعركة، فنفذ الرسول رأيه[(١)].

ففي **الأمور الفنية الإجرائية** ما كان الرسول ﷺ يتردد في قبول ما يخالف رأيه ويرحّب به، وكلّنا نذكر موقفه من مسألة تأبير النخل التي تراجع فيها عن رأيه وقال للمزارعين: « **أنتم أعلم بأمور دنياكم** »[(٢)].

في معركة أحد (٣هـ) حيث كان المهاجمون ثلاثة أضعاف المسلمين، عرض الرسول ﷺ على أصحابه أن يظلوا في المدينة، ويدعوا قريشًا حيث نزلت: « **فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها** ». فكأنه كان يريد أن يعتمد الخطة التي يسمونها اليوم (حرب الشوارع) أو (الحارات)، فحيثما كان المهاجمون أكثر عددًا من المدافعين كان الأجدرَ أن يحتمي هؤلاء داخل مدنهم، كي يتمكنوا من إنزال ضرباتهم بالعدو الذي سيجد نفسه مضطرًّا إلى التشتت في أنحاء المدينة التي لا يعرف الكثير عن منعطفاتها وزواياها، هذا فضلًا عن أن قتالًا كهذا سيتيح حتى للنساء والأطفال أن يشاركوا في القتال. إلّا أن المسلمين

= التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للبخاري، الطبعة الثانية، دار الإرشاد، بيروت (١٣٨٦هـ)، (٢/ ٧٦).

(١) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (ص١٤٥ - ١٥٥، ١٥٦ - ١٥٧)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٤٢٥، ٤٤٠ - ٤٤١)، محمد بن عمر الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونس، مطبعة جامعة أكسفورد (١٩٦٦م)، (١/ ٥٣ - ٥٤، ٥٦، ٥٨ - ٥٩)، أحمد بن يحيى البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد اللّـه، دار المعارف، القاهرة (١٩٥٩م)، (١/ ٢٩٣)، ابن سعد: الطبقات الكبير (٢/ ١ - ٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) بنحوه.

الذين فاتهم شرف القتال في بدر، وخاصة الشباب منهم، ألحّوا بالخروج، وقالوا: يا رسـول اللّـه، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنّا جبنّا عنهم وضعفنا. وأيّدهم في ذلك عدد من كبار الصحابة، الأمر الذي يفسر لنا استجابة الرسول ﷺ لوجهة النظر هذه وعدم تردده في قبولها اعتمادًا على ثقته الكبيرة بهذا العدد الكبير من أتباعه الراغبين في الخروج[١].

في واقعة فتح مكة حرص الرسول ﷺ خلال التجهز على كتمان الأمر حتى عن أقرب أصحابه إليه، من أجل أن يفاجئ المكيين بهجومه الحاسم فلا يستطيعون مقاومة ودفاعًا فيذعنون للأمر وتحقن الدماء. وعندما ألح عليه أبو بكر بسؤاله: أين تريد يا رسول اللّـه؟ أجابه: « **قريشًا، وأخف ذلك يا أبا بكر** »[٢]. ودعا الرسول ربه: « **اللّـهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها** ». واستجاب اللّـه لدعاء رسوله، وأعلمه وحيه الأمين أن محاولة لإخبار قريش بتحرك الرسول ﷺ قام بها أحد المسلمين (حاطب بن أبي بلتعة) حيث كتب إلى قريش بهدف الرسول ﷺ كتابًا حمّله امرأة أخفته في طيات شعرها وانطلقت صوب مكة، فأدركها علي والزبير وأخذا الكتاب منها وقفلا عائدين ليسلماه للرسول ﷺ، فدعا الرسول ﷺ حاطبًا وسأله: « **ما حملك على هذا؟** »، فأجاب: أما واللّـه إني لمؤمن باللّـه ورسوله، ما غيّرت ولا بدّلت، ولكني كنت امرأً ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليه. فقال عمر: يا رسول اللّـه، دعني فلأضرب عنقه فإن الرجـل قد نافق. فـقال الرسول ﷺ: « **وما يدريك يا عمر، لعل اللّـه اطلع إلى أصحاب بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** »[٣].

إن ماضي حاطب في الجهاد في سبيل الدعوة، وإسهامه مع رفاقه في مقاومة الوثنية في أوج عنفوانها يحجب عنه الآن الزلة الكبيرة التي ساقته قدماه إليها،

---

(١) الواقدي: المغازي (١/ ١٩٩-٢٠٠، ٢١٠-٢١٣، ٢٢٣).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٧٩٢).

(٣) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (ص ٢٨١-٢٨٢)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٤٧ - ٤٩)، ابن سعد: الطبقات الكبير (٢/ ١/ ٩٧)، الواقدي: المغازي (٢/ ٧٩٦ - ٧٩٩)، البلاذري: أنساب الأشراف (١/ ٣٥٤).

والماضي الكبير يحجب الخطأ الكبير ما دام الإيمان لم ينقلب بعد إلى كفر صريح.

بل إن الرسول ﷺ في مجابهته المدهشة لإغراء الفرادة والقداسة، واندماجه مع أصحابه واحدًا منهم لا يتميز عنهم بشيء إلّا بتبليغ الوحي، كان ينتزع من نفوسهم أي ظل من ظلال التقديس والرهبة التي تشل أصحابها عن أن يقولوا رأيًا مخالفًا وتدفعهم دفعًا إلى الإذعان المطلق والفناء في شخصية الآخر فيما يلغي ابتداءً أية فرصة للتشاور وإبداء الرأي.

لقد رفض ﷺ حتى اللحظة الأخيرة أن يستعلي على جماهير أمته بأي معيار من المعايير، رغم أن كل الظروف والمعطيات كانت ترفعه إلى سماوات التفرّد والقداسة، كان يقول: « **لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنَّتي فليس مني** »[1].. وناداه رجل: يا سيدنا وابن سيدنا. فقال: « **لا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبدِ اللَّه، عبدُ اللَّه ورسوله، واللَّه ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي** »[2]، وكان أصحابه إذا رأوه قادمًا عليهم لم يقوموا له، وهو أحب الناس إليهم، لما يعرفونه من كراهيته لقيامهم. وكان يكره أن يمشي أصحابه وراءه، ويأخذ بيد مَنْ يفعل فيدفعه إلى السير بجانبه.. رآه رجل فارتعد، فقال: « **هوّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد** »[3].

ما كان يغلق دونه الأبواب، ولا يُغدى عليه بأواني الطعام، وكان مَنْ أراد مقابلته يقابله..

في المهمات العامة كان يعمل مع أصحابه، واحدًا منهم، لا يتميز عنهم بشيء.. شوهد وهو يشارك في حفر الخندق، يضرب بالفأس ويرفع المكاتل، والتراب والعرق يغطيان صدره الشريف.. وكان يمارس دوره في الحراسة ليلًا عند حافات الخندق قبالة البرد والجوع والخوف، ويتوسل إليه أصحابه أن يرتاح فيرفض.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٣٦)، ومسلم (١٤٠١) واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٥٥١) طبعة مؤسسة الرسالة بتحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٢١٢) طبعة دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

ثمة - أخيرًا - حادثة كسوف الشمس يوم تشييع ابنه إبراهيم.. ظن بعض المشيعين أنها انكسفت حزنًا على وفاة ابن رسول اللّـه، وكان بمقدور رسول اللّـه ﷺ أن يصمت كي يوحي لأصحابه بأن الظواهر الكونية تقدّسه وتشاركه العزاء، ولكنه ردّ بالحزم الذي يستهدف إزالة أية شبهة في هذا الاتجاه: « **إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللّـه، لا تنكسفان ولا تنخسفان لموت أحد من الناس** »!![1].

٢ - في دائرة المنافقين:

في دائرة المنافقين نلتقيه ﷺ وهو يرفض التصفية الجسدية، ويطرح بدلًا منها مبدأ: « **إن النبي لا يَقتل بالإشارة** »[2]، ومعيار: « **هل شققت عن قلبه؟** »[3]، ولم يعطِ خصومه أية فرصة على الإطلاق لكي يقولوا: إن محمدًا يقتل أصحابه.. لكنه في الوقت نفسه يتخذ الإجراء الصارم الذي يتطلبه الموقف، وذلك بإصدار أمره القاطع بإحراق مسجد الضرار الذي أنشأه المنافقون للدسّ على المسلمين ورسولهم ﷺ.

فمنذ بدايات العصر المدني برزت إلى الوجود قوة جديدة في مواجهة الحركة الإسلامية، سببت لها الكثير من المتاعب والمحن، ووضعت في دربها الكثير من الحواجز والعقبات، ومارست إزاءها من الداخل عمليات تخريبية لا حصر لها. وكان على الرسول ﷺ أن يصارع هذه القوة، فضلًا عن صراعه مع القوى الخارجية: الوثنية واليهودية والنصرانية.

إلّا أن مشكلة هذا الصراع تكمن في أن هذه القوة المعادية غير واضحة الأبعاد، منسربة في صفوف الجماعة الإسلامية، قديرة على الاستخفاء في أعقاب أي تخريب تمارسه.. ثم، وهذا هو الأنكى، لم يكن بإمكان الرسول ﷺ أن يعاقب على التهمة ويأخذ بالظنة، وينفذ أسلوبًا (روبسبييريًّا) طالما حصد به طواغيت العالم مئات وربما ألوف الرؤوس التي (يشك) أنها تتآمر على سلامة الدولة وزعيمها، وحاشا للأنبياء أن يفعلوا ذلك.

لذا نجده يرفض مرارًا وتكرارًا عـروضًا من صحابتـه الكـرام بقتل رؤوس

(١) أخرجه البخاري (١٠٤٠)، ومسلم (٩٠١). (٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٩).
(٣) أخرجـه الإمام أحمد في مسنـده (١٩٩٣٧).

المنافقين، وقطع رقابهم بمجرد أن يعلن الرسول ﷺ موافقته، لكنه لم يوافق حتى النهاية على قتل رجل يشهد في ظاهره بشهادة الإسلام. وهنالك حادثة ذات دلالة في هذا المجال: عندما دخل الرسول ﷺ مكة فاتحًا أمر قادته ألّا يقاتلوا، لكنه طلب منهم في الوقت نفسه قتل عدد من المكيين سمّاهم لهم، حتى ولو تعلقوا بأستار الكعبة، وكانوا بضعة عشر رجلًا. وجيء بأحدهم، وكان قد أسلم ثم ارتد إلى الوثنية، وبعد فتح مكة توسط لدى عثمان بن عفان في طلب الأمان، فصمت الرسول طويلًا ثم قال: « **نعم** ». فلما انصرف عنه عثمان قال لمن حوله من أصحابه: « **لقد صمتّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه** »، فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إليّ يا رسول اللّـه؟ قال: « **إن النبي لا يقتل بالإشارة** »[(١)].

هذا إزاء رجل كان قد ارتد وجاء يطلب الأمان، فكيف برجال يشهدون خمس مرات في اليوم بشهادة الإسلام؟ إنه كان بإمكانه أن يحصدهم في غداة واحدة، إلّا أن مقياسًا دقيقًا لمعرفة إيمان كل منهم لم يكن بيديه، وإنما تُوكَل السرائر للّـه، ويحاسب الناس بأعمالهم الظاهرة.. وهؤلاء منافقون، وظاهرهم المكشوف ظاهر إسلامي على خلاف مع باطنهم، فكيف يعاقبهم؟ وكان الرسول ﷺ يقدّر - فضلًا عن هذا البعد الأخلاقي - أن ممارسة القتل الجماعي أو الفردي تجاه أناس من أتباعه، محسوبين على معسكره، سوف يعطي لأعدائه في الخارج سلاحًا دعائيًا ممتازًا لمهاجمة الإسلام، وقد أدرك الرسول ﷺ ذلك، فعن جابر بن عبد اللّه قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول اللّه ﷺ: « **ما بال دعوى الجاهلية ؟** » قالوا: يا رسول اللّه! كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال: « **دعوها، فإنها منتنة** » فسمعها عبد اللّه بن أبي فقال: قد فعلوها. واللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل. قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: « **دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه** »[(٢)].

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) واللفظ له.

وهذا حق، فهم على المستوى السياسي والقانوني من أتباع محمد ﷺ، وما دام أي منهم لم يمارس عملًا (جرميًا) محددًا فإن من الصعوبة بمكان عزله أو قتله.

وكان بديل هذا الأسلوب، شيئًا نادرًا في تاريخ الدعوات. تتبع الرسول ﷺ خطط المنافقين وتخريبهم بيقظة كاملة، ولم يحدد أسلوبًا ثابتًا في مجابهة مواقفهم المتلونة، وإنما راح يضع لكل حالة خطة تتناسب تمامًا وحجم المحاولة التخريبية، وتكبتها قبل أن تجيء بثمارها المرة، وقبل أن تزرع شوكها في طريق الدعاة. ومن وراء الرسول ﷺ آيات القرآن الكريم تتنزل من اللّه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، محللة التكوين النفسي للمنافقين، مشخصة نماذج منهم نكاد نلمسها بأيدينا وهي تُتلى علينا، فاضحة خططهم اللئيمة قبل أن تقع، مندِّدة بأساليبهم المرذولة وهم يعملون في الظلام دسًّا ووقيعة، صابَّةً عليهم غضبها المخيف في أعقاب أية محاولة يستهدفون من ورائها فتنة أو خديعة أو مكرًا[1].

وهكذا نجد ظاهرة النفاق، رغم كونها ظاهرة مرضية في حدودها النفسية والاجتماعية، إلا أنها في إطار الدعوة الإسلامية تبدو ظاهرة صحة وعافية، أشبه بالأمصال المخففة التي تحقن في دم الإنسان لمقاومة مرض من الأمراض وتمكينه من مجابهته وقد عرف طعمه ولونه وقدرته على الفتك واستعد لذلك كله.

لقد أدى وجود المنافقين في صفوف المسلمين إلى أن يكونوا حذرين دومًا، يقظين أبدًا، لا يغفلون ولا ينامون ولا يلدغون من جحر مرتين. وبسبب هذا الحذر واليقظة والسهر المستمر تمكن المعسكر الإسلامي ليس فقط من الانتصار على أعدائه في الخارج، بل - وهذا هو الأهم - تعزيز وحدته الداخلية ورصّ صفوفه، وتذويب الأجسام الغريبة أو شلّها وتكييسها أو طردها كي لا تدمر المجتمع الجديد وتنخره من الداخل. إنها حكمة اللّه في أن يوجد في كيان المسلمين ما يتحداهم من الداخل دومًا، ويدفعهم إلى الاستجابة والإبداع.. وحكمة رسول اللّه ﷺ

(١) عن المواقف القرآنية إزاء المنافقين يُنظر كتاب محمد عزة دروزة: سيرة الرسول؛ صور مقتبسة من القرآن الكريم، الطبعة الثانية، مطبعة عيسى البابي، القاهرة (١٩٦٥م)، فصل (المنافقون في العصر المدني) (٢/ ٧٣ - ١٢٠).

التي تتسع وتتسع حتى تشمل كل حالة وتجابه كل وضع بعيدًا عن الجمود على وضع واحد يصل إلى هدفه من أقصر طريق، لكنه أرخص طريق وأكثرها احتقارًا للدم البشري.. طريق الإعدام بالجملة وحصد رؤوس مئات من الأتباع والمنتمين لمجرد تهمة تدور حولهم، بمقصلة تنزل وتصعد، أو سيف يضرب يمينًا وشمالًا، أو إشارة صامتة تعقبها أنهار من الدماء.. إن (النبي) غير (الزعيم)، والمعلم غير (الإرهابي)، و (الانقلابي) غير (الطاغية)، و (محمد) غير (روبسبيير).

٣ - في دائرة أهل الكتاب:

في دائرة أهل الكتاب: يهودًا ونصارى، يحترم أحبارهم ورهبانهم.. يتحاور معهم.. يقدّر موروثهم الديني الأصيل.. يصدر الوثيقة التي ينظّم فيها العلاقة السياسية والعسكرية مع اليهود.. يوظف خبراتهم الزراعية.. يعقد معهم العهود والمواثيق.. يدفع بأصحابه للهجرة إلى الحبشة هروبًا من اضطهاد قريش، وحيث الملك النصراني الذي لا يُظلم عنده أحد.. يحزن وأصحابه لهزيمتهم أمام الوثنية الفارسية.. يفتح معهم شبكة من الاتصالات الديبلوماسية.. يدعوهم إلى الدين الحق وإلى ألّا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون اللّـه.. ولكنه - عند الضرورة وفي الحالات التي تتطلب ذلك - يعلن الحرب عليهم، ويخرجهم من ديارهم، ويصدر أحكام الإعدام بحق خونتهم، فيما هو متعارف عليه لدى أمم الأرض كافة.

٤ - مع اليهود: البدايات الأولى:

لنبدأ باليهود حيث لم يكونوا في يثرب بقادرين - أول الأمر - على إعلان مجابهتهم المكشوفة للدولة الإسلامية الناشئة، وأتباعها من عرب المدينة يزدادون كثرةً يومًا بعد يوم. ولم يكن من مصلحتهم أيضًا أن يتولوا بأنفسهم كبر مقاومة الإسلام، وقريش لا تزال على قوتها وقدرتها على الضرب، فلتلق تبعة الصراع إذن على قريش، وليظل اليهود في المواقع الخلفية يشاهدون الصراع ويخططون على ضوء نتائجه المتوقعة. وهكذا وافقت معظم القبائل اليهودية على الدستور أو الصحيفة التي أعلنها الرسول ﷺ لتنظيم الأمور السياسية والمدنية في يثرب، ودخلت هذه القبائل أطرافًا في الصحيفة. ورغم أنها كانت تنصّ على إسهام اليهود مع المسلمين

في صدّ أي عدوان قرشي يقع على المدينة، وتغطية النفقات المالية للقتال، فإن اليهود لم ينفذوا هذا البند ماليًا ولا عسكريًا، ولم يشأ الرسول ﷺ أن يلحّ عليهم لتنفيذه ما دامت استراتيجيته في الصراع تقوم على عدم ضرورة فتح أكثر من جبهة، والتعاون مع أهل الكتاب ضد الوثنيين باعتبارهم العدوَّ المشترك!! كما أن المهم هو أن يجمد اليهود نشاطهم ضد الإسلام كي يتفرغ الرسول ﷺ للمجابهة الحاسمة مع قريش، وهذا ما يفسّر لنا جواب الرسول ﷺ للأنصار يوم أُحد عندما سألوه: يا رسول اللّـه، أَلَا نستعين بحلفائنا اليهود؟ فكان جوابه: « **لا حاجة لنا فيهم** »[(١)].

كان الغرض الذي يرمي إليه الرسول ﷺ من وراء الصحيفة وما إليها من العهود التي عقدها مع بطون يثرب، هو هدم النظام القديم وإيجاد نظام جديد يمكن أن تتوحد به العناصر اليثربية، وأن تعود يثرب بعد فرقة أحيائها مدينة واحدة[(٢)]. ويُلاحَظُ أن الصحيفة قد ذكرت اليهود الموالين للبطون العربية، وأهملت ذكر القبائل الأخرى من اليهود، وذلك يتفق تمامًا مع ما كانت عليه الحالة السياسية في يثرب، فإن البطون اليهودية الصغرى كانت قد دخلت في أحلاف مع الأوس أو مع الخزرج، وذلك بعد سيادة هؤلاء في يثرب. أما قبائل اليهود الكبرى الثلاث فقد اعتزت بقوّتها، وبقيت محتفظة بشخصيتها، ثم إنها ناوأت الإسلام وأظهرت عداءها. ومع ذلك فقد وضعت الصحيفة بندًا هامًّا لدخول اليهود في الدولة، احتمالًا لما قد يحدث من دخول هذه القبائل في النظام الجديد. وفعلًا أُلحقت هذه القبائل بالدولة في محالفات ملحقة[(٣)].

٥ - دوافع الصراع:

وفي أعقاب الهجرة، ولفترة من الوقت، سارت العلاقات بين الرسول ﷺ واليهود سيرًا حسنًا، وكان الرسول ﷺ يطمح من جهته أن يتفهم اليهود دوافع حركته

---

(١) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (ص١٧٥ - ١٧٦).

(٢) إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة الاعتماد، القاهرة (١٩٢٧م)، (ص١١٦ - ١١٧).

(٣) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة (١٩٦٥م)، (ص٣٩٤ - ٣٩٥).

الدينية، وأهدافها والعوامل المشتركة التي تربط الأديان السابقة، بما فيها اليهودية بالإسلام، ولا سيما وأنهم يرون أمام أعينهم في صفحات كتبهم تلك التأكيدات المستمرة على نبوة محمد ﷺ. وقد أدى المصدر الواحد لكلا الدينين إلى أن تمارس بعض الطقوس والشعائر الإسلامية وفق بعض (الأشكال) التي يمارسها اليهود. وقد أمَّل هؤلاء، في مطلع العهد المدني، وقد رأوا هذا التعاطف الإسلامي تجاههم، دون أن يفهموا أسبابه العميقة، أن الرسول ﷺ ربما يقرّ بأرجحية العقيدة التي يؤمنون بها، وأنه سيتركهم وشأنهم مكتفيًا بتشكيل وحدة يثربية تضم الطرفين، وتحمي مصالحها المشتركة بوجه العرب المشركين في الداخل والخارج، بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك وظنوا أنهم ربما تمكّنوا يومًا من استمالة الرسول ﷺ إليهم وإدخاله وصحبه في دينهم.

إلّا أن ظنهم سرعان ما خاب عندما أدركوا أن محمدًا ﷺ ليس مجرد زعيم يحترف السياسة ويعتمد كل أسلوب لتحقيق أهدافه، وإنما هو صاحب رسالة عظمى إزاء العالم كلّه، رسالة تتجاوز تعاليمها ومتطلباتها الحدود الإقليمية ليثرب، أو حتى الجزيرة العربية كلها، باتجاه الإنسان في كل مكان. وازداد الأمر وضوحًا عندما توالت دعوات الرسول ﷺ وتأكيداته على ضرورة دخولهم الدين الجديد، إن أرادوا الحفاظ على جوهر يهوديتهم التي حملها موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، وعندما راحت آيات القرآن الكريم تنزل سخطها وغضبها على ما يمارسه اليهود بحق دينهم وكتبهم من تزييف وتحريف من أجل أن يحموا مصالحهم، أضف إلى ذلك ما كان يلقاه الإسلام من انتشار متزايد في يثرب وأطرافها، الأمر الذي كان يعني عزل اليهود والحدّ من نشاطهم الديني والاقتصادي على السواء، فضلًا عن الوحدة العميقة التي أنشأها الإسلام بين الأوس والخزرج وسدّ بها الطريق على اليهود واستغلالهم المعروف للصراع الدامي بين الحيين.

وبدا يتضح لليهود - يومًا بعد يوم - المصدر الأساسي للخطر الذي تشكله الدعوة الجديدة بمواجهة اليهودية: أن النبي ﷺ يدعو إلى (توحيد) غير الذي

يؤمن به اليهود على أساس قومي استعلائي مغلق، وإذن فلا تهادن بينهم وبين محمد ﷺ الذي يسعى إلى تحطيم تلك القواعد المقررة التي سار عليها اليهود، وقامت بينهم وبين النبي ﷺ محاجات ومجادلات ما لبثت أن اتخذت من جانبهم موقف التحدي والمعاندة، بل إنهم اندفعوا في عدائهم فتورطوا في تفضيل الأصنام على التوحيد(١).

وبدأ اليهود مسلسل مجادلاتهم الدينية وحربهم النفسية وحملاتهم الإعلامية ضد المسلمين، ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا يتصلون بقريش زعيمة الوثنية ويؤلِّبونها ضد الدولة الإسلامية، ويتآمرون معها لسحق المسلمين، بل إنهم أعدّوا العدة لاغتيال الرسول ﷺ.

٦ - حالات استثنائية:

ورغم هذه المواقف العدائية العامة التي صدرت عن مراكز القوى الرئيسة لليهود، فإننا نجد ثمة آيات قرآنية تضمنت استثناءً لبعضهم وتنويهًا بسلامة مواقفهم واعتدالهم، ومنها ما تضمن إشارة إلى إيمانهم وإخلاصهم، مما يدل - من جهة - على أن فئة من اليهود - وفيها فريق من العلماء - قد استطاعوا أن يفلتوا من المؤثرات العنصرية والنفسية التي خضع لها اليهود، فلم يسعْهم إلّا أن يصدِّقوا بالنبي ﷺ ويؤمنوا بالتنزيل، ومن جهة أخرى على أن الدعوة النبوية قد قوبلت باستجابة حرة لا إكراه فيها من بعض اليهود في العهد المدني، وهذا يؤيد أنه لم تكن هناك أية فكرة مضادة منذ البدء لليهود كعنصر ولليهودية كدين.

ولقد قامت علاقة طيبة بين المهاجرين وبعض اليهود، حتى إنهم ليترددون على مجالسهم، ويذهبون إلى بيوت مدارسهم، يتحدثون إليهم ويسألونهم ويسمعون منهم، ويرون التوراة تصدق القرآن والقرآن يصدق التوراة(٢).

٧ - قبول الآخر:

ورغم الدور المعروف لزعماء يهود خيبر في تحزيب الأحزاب الوثنية ضد دولة

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول (ص٤١٢ - ٤١٥).
(٢) المرجع السابق (ص٤٧٤)، عن تفسير الطبري (٢/ ٣٨١ - ٣٨٤).

الإسلام، والتي قادت إلى معركة الخندق (عام ٥هـ) وكادت أن تطيح بالإسلام والمسلمين وبرسولهم ﷺ، ورغم المجابهة الشرسة للقوات الإسلامية من قِبل يهود خيبر بعد سنتين، فإن الرسول ﷺ بعد انتصاره عليهم وتمكّنه منهم وافق على طلبهم بأن يجليَهم عن المنطقة وأن يحقن دماءهم. ثم ما لبثوا أن عرضوا عليه أن يبقيهم في أرضهم لقاء أن يدفعوا للمسلمين نصف حاصلاتهم من الزرع، فوافق الرسول ﷺ على العرض تقديرًا منه لإمكاناتهم الزراعية، ورغبة منه في الإفادة من أية طاقة في إعمار الأرض واستثمارها، إلّا أنه بيّن لهم أن موافقته هذه غير ملزمة إلى الأبد تحسبًا لمواقفهم في المستقبل[١].

وهناك أمر يستوقف النظر، وهو أنه كان بين الغنائم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر، صحائف متعددة من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي ﷺ بتسليمها لهم. الأمر الذي يدل على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول ﷺ من المكانة العالية، مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي ﷺ بالبنان؛ حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم واقتحموها سنة (٧٠ ب. م) إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس، حين أحرقوا أيضًا صحف التوراة، جنبًا إلى جنب مع التراث الإسلامي. هذا - كما يقول المؤرخ اليهودي المصري إسرائيل ولفنسون - هو البون الشاسع بين الغزاة ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام[٢].

ولما سمع يهود فدك، القرية اليهودية المجاورة، بما حل برفاقهم في خيبر من معاملة طيبة، بعثوا إلى الرسول ﷺ يعلنون رغبتهم في المصالحة على مناصفة

---

(١) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (ص٢٦١ - ٢٦٤)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٣/ ١٠ - ١٥، ٢٠، ٢١)، ابن سعد: الطبقات (٢/ ١ - ٨٠)، الواقدي: المغازي (٢/ ٦٤٣ - ٦٧٧، ٦٩٠، ٦٩١)، البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (١٩٥٦ - ١٩٥٧م)، (١/ ٢٥، ٢٦)، أنساب الأشراف (١/ ٣٥٢).

(٢) ولفنسون: تاريخ اليهود (ص١٧٠).

أراضيهم[(١)]، وكذلك فعل مع يهود وادي القرى بعد أن تمكن من فتح ديارهم. ولما بلغت يهود تيماء أنباء الانتصارات الإسلامية، صالحوا الرسول ﷺ على الجزية وأقاموا في بلدهم[(٢)].

وما لبث الرسول ﷺ أن راح يكتب إلى زعماء التجمعات اليهودية في أقصى الشمال لتحديد مواقفها من الدولة الإسلامية، فبعث إلى بني جَنْبَةَ بمَقْنَا القريبة من أَيْلَةَ على خليج العقبة: « أما بعد فقد نزل عليّ رسلكم راجعين إلى قريتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون، لكم ذمة اللّه وذمة رسوله، وأن رسول اللّه غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم، لا ظلم عليكم ولا عدى، وأن رسول اللّه جاركم مما منع منه نفسه.. وإن عليكم.. ربع ما أخرجت نخلكم، وربع ما صادت عروككم (مراكبكم)، وربع ما اغتزل نساؤكم، وأنكم برئتم - بعد - من كل جزية أو سخرة، فإن سمعتم وأطعتم فإن على رسول اللّه أن يكرم كريمَكم ويعفو عن مسيئكم.. وأن ليس عليكم أمير إلّا من أنفسكم أو من أهل رسول اللّه ».

وكتب لجماعة أخرى من اليهود تدعى بني غاديا: « .. أن لهم الذمة وعليهم الجزية، ولا عداء ».

كما كتب لبني عريض كتابًا يحدد فيه ما عليهم أن يدفعوه للمسلمين لقاء حمايتهم لهم وكفّ الظلم عنهم[(٣)].

وكتب ليهود جرباء وأذرح: « أنهم آمنون بأمان اللّه وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، واللّه كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ومَنْ لجأ إليهم من المسلمين »[(٤)]. وبذلك تمكّن الرسول ﷺ من تحويل هذه التجمعات اليهودية في أقصى الشمال إلى جماعات من المواطنين في الدولة الإسلامية، يدفعون لها ما تفرضه عليهم من ضرائب نقدية أو عينية، ويحتمون

---

(١) الواقدي: المغازي (٢/ ٧٠٦، ٧٠٧)، البلاذري: فتوح البلدان (١/ ٣٣).
(٢) الواقدي: المغازي (٢/ ٧٠٩، ٧١١)، البلاذري: فتوح البلدان (١/ ٣٩ - ٤٠).
(٣) ابن سعد: الطبقات الكبير (١/ ٢ - ٢٨ - ٣٠).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٢ - ٣٧ - ٣٨).

بقوتها وسلطانها، ويتمتعون بعدلها وسماحتها.

ولقد ظل اليهود بعدئذ، كمواطنين وليسوا كتلًا سياسية أو عسكرية، يمارسون حقوقهم في إطار الدولة الإسلامية، لا يمسّهم أحد بسوء، وعاد بعضهم إلى المدينة، بدليل ما ورد عن عدد منهم في سيرة ابن هشام ومغازي الواقدي.

وهناك الكثير من الروايات والنصوص التاريخية التي تدل على أن الرسول ﷺ كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح، حتى إنه أوصى عامله على اليمن معاذ بن جبل: « **بألّا يفتن اليهود عن يهوديتهم** ». وعلى هذا النحو عُومل يهود البحرين؛ إذ لم يُكلفوا إلّا بدفع الجزية، وبقوا متمسكين بدين آبائهم. كما يمكن أن نشير إلى تلك الحقوق والامتيازات التي منحها الرسول ﷺ لآل بني حنيفة الخيبرية وعدد من الأسر اليهودية هناك، ما عدا الإقرارَ على الأراضي وإبقاءَه لهم نصف الثمار، وقد نصّ على ذلك ابن هشام والبخاري(١).

٨ - مع النصارى:

فإذا ما جئنا إلى الشق الآخر من أهل الكتاب وهم النصارى، فإننا سنجد كيف أن مكة كانت تضم عددًا كبيرًا منهم من مختلف الأصول، وكيف كان أناس من نصارى الحبشة قد جاؤوا إلى مكة؛ ليحيُّوا النبي الجديد الذي أعرب عن عطفه على دينهم، فدمغ باطل المشركين بالحجج البالغة التي يقره عليها أهل الكتاب(٢).

ولا ريب في أن إيراد قصة ولادة يحيى وعيسى عليهما السلام، وإنكار ألوهية عيسى، مما يوحي بأن أكثر المخاطبين من أهل الكتاب كانوا نصارى، ثم إن خبر انهزام الروم والبشرى بفوزهم مما يدل على ذلك أيضًا. وتلهم الآيات القرآنية أن النبي ﷺ قد اتصل بهؤلاء النصارى ودعاهم إلى التصديق برسالته، وأن منهم من كان ذا سعة في المال يمكّنه من الإنفاق في سبيل الخير، وأن منهم من كان

---

(١) ولفنسون: تاريخ اليهود (ص١٧٥ - ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨١)، ويُنظر: البلاذري: فتوح البلدان (١/ ٦٦، ٨٥، ٩١).

(٢) إميل درمنغم: حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (١٩٤٩م)، (ص١٢٥ - ١٢٦).

لا يبالي بلوم المشركين، وأن منهم من كان متميزًا بثقافته الدينية بحيث كان أهلًا للرجوع إليه والاستشهاد به في أمر الرسالة[١].

وكان القرآن الكريم منذ الوقت المبكر من العهد المكي يؤكد - وظل على ذلك في مختلف أدوار التنزيل - على وحدة المصدر الذي صدر عنه القرآن والكتب السماوية، ووحدة الأهداف والمبادئ التي تضمنها القرآن وتلك الكتب، وتأييد القرآن والنبي ﷺ للأنبياء السابقين والكتب السابقة، والتنويه بهم، واستشهد، وظل يستشهد بأهل الكتاب، على صحة رسالته النبوية والتنزيل القرآني بأسلوب يلهم استعدادهم للشهادة الإيجابية والثقة بهم والاعتماد عليهم فيها، كما يلهم طبيعة وتوقع استجابتهم للدعوة الإسلامية واندماجهم فيها ونصرها وتأييدها[٢].

ولم يُخْفِ محمد ﷺ عطفه على النصارى، والقرآن مملوء بالشواهد على ذلك، فكان محمد ﷺ يرى المثال في شهداء النصارى في اليمن (شهداء الأخدود)، وكان يثني على القسّيسين والرهبان الذين قدّر فضائلهم في تخوم الشام. وسَرّ محمدًا ﷺ ما أسفر عنه انتصار الروم من عدم هدم كنائس النصارى وبيعهم التي ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾[٣]. وكان محمد ﷺ يرى في أهل الكتاب الحلفاء الذين يؤيدون ما يقول، ويؤمنون بالحق الذي يدعو إليه، والذين ﴿ إِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[٤]. وكان محمد ﷺ يتخذ من انضمام حَمَلَةِ العلم من أهل الكتاب إليه دليلًا على صدق الإسلام وبطلان دعوى المشركين، وكان يصرّح بأن رسالته مما بشّر به الكتاب المقدس[٥].

وللمسيح عليه السلام في القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس،

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة (ص٢٣٣ - ٢٣٣).

(٢) تُنظر: سورة المدثر: ٣١، سورة الأعلى: ١٨، ١٩، سورة الأعراف: ١٥٦، ١٥٧، سورة فاطر: ٣١، ٣٢، سورة يونس: ٣٧، ٩٤، سورة يوسف: ١١١، سورة الأحقاف: ١٢، سورة طه: ١٣٣، سورة الشعراء: ١٩٧، سورة الأنعام: ٢٠، ٨٤ - ٩٠، ٩٢، ١١٤، سورة غافر: ٥٣، ٥٤، سورة الشورى: ١٣، سورة الأنبياء: ٧، ٩٣، دروزة: عصر الرسول (١/ ٣٣٥ - ٣٤٤).

(٣) سورة الحج: الآية ٤٠.

(٤) سورة المائدة: الآية ٨٣.

(٥) إميل درمنغم: حياة محمد (ص١٢٨ - ١٣٠).

وهو رسول اللّـه الذي خاطبه اللّـه جهرًا.. وهو كلمة اللّـه الناطقة من غير اقتصار على الوحي وحده. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى كلمة اللّـه أو روح اللّـه ألقاها إلى مريم وإنه من البشر. وهو يذم مذهب القائلين بألوهية المسيح.. ولا يسع النصرانيَّ إلّا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلَّف من اللّـه وعيسى ومريم: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[١].

ومن الطبيعي أن يكون النبي ﷺ قد وقف منذ البدء موقف المسالم المتحبِّب من الكتابيِّين في مكة، المتحد معهم في الأهداف والمبادئ، المحترم لأنبيائهم وكتبهم، والمعترف بها والمؤيد لها. ومضامين المفردات القرآنية التي أشرنا إليها، والأسلوب الهادئ الذي ظل متسقًا في أدوار التنزيل الأولى واحتوى استشهاد أهل الكتاب، هذا إلى ما احتواه القرآن المدني من حملات عنيفة على اليهود بسبب مواقفهم الجاحدة الماكرة في المدينة. كل ذلك يسوِّغ القول: إن الكتابيِّين في الإجمال قد وقفوا منذ البدء من الدعوة القرآنية موقف العطف والتأييد، وظلوا كذلك إلى آخر العهد المكي، وإنه لم يقع بينهم وبين النبي ﷺ احتكاك وعداء كما وقع مع اليهود في المدينة[٢].

إلَّا أن الكتابيِّين لم يبقوا عند هذا الحد، بل حققوا ما كان متوقعًا من استجابتهم للدعوة واندماجهم فيها. ففي سورة الأعراف (آية ١٥٧) نجد أن فريقًا من النصارى واليهود في مكة وجدوا صفات النبي ﷺ مطابقة لما في أيديهم من أسفار التوراة والإنجيل، فآمنوا به واتبعوه ونصروه فاستحقوا التنويه الذي احتوته الآية[٣]. ولقد ذكرت روايات السيرة وكتب التراجم أسماء كثير من الكتابيِّين الذين اندمجوا في الدعوة في مكة، تحمل طابع الأسماء النصرانية. كما أن بعض الروايات ذكرت قدوم وفد نصراني إلى مكة بعد البعثة مستطلِعًا نبأ

(١) سورة المائدة: الآية ١١٦، إميل درمنغم: حياة محمد (ص١٣١ - ١٣٢).
(٢) دروزة: عصر الرسول (١/ ٣٤٤ - ٣٤٥).
(٣) المرجع السابق (١/ ٣٤٥ - ٣٤٨)، وتُنظر: سورة القصص: الآيات ٥٢ - ٥٥، والإسراء: الآيات ١٠٧ - ١٠٩، والأحقاف: الآية ١٠، والرعد: الآية ٣٦.

النبي العربي، وأعلن إيمانه به[١].

وفي الوقت نفسه تنزلت آيات أخرى تعرض واقع الكتابيين من الاختلاف والنزاع والانشقاق مذاهب وشيعًا فيما بينهم، ودعوتهم إلى الانضواء إلى راية القرآن الذي يمتّ إلى المصدر الذي تمت إليه كتبهم، والذي يعود بدين اللّـه إلى صفائه ومبادئه السامية التي لا تحتمل خلافًا، واتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، والتسليم بما جاء به القرآن من حلول لمشاكلهم وخلافاتهم المذهبية والنفسية. ولعل من الحق أن يقال: إنه كان لهذه الدعوة القرآنية أثر فيما كان من تنبيه الكتابيِّين في مكة في مبدأ الأمر إلى ما وصل إليه أمرهم من خلاف، فكان ذلك عاملًا في إقبالهم على الإسلام[٢].

٩ - العلاقات الودية:

وبعد قليل احتضن نجاشي الحبشة المهاجرين من اضطهاد مكة، أولئك الذين قال لهم رسولهم ﷺ وهو يبحث لهم عن موطن يأوون إليه ريثما تنكسر حدة العدوان الوثني: « **لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق** »، وردّ المبعوثَين اللذَيْنِ أرسلتهما قريش لاسترداد المسلمين، بعد أن أبى إلّا أن يستمع لصوت الإسلام بمواجهة صوت الوثنية متمثلًا بآيات من القرآن الكريم اختارها جعفر بن أبي طالب من سورة مريم، دفعت النجاشي إلى أن يرفع عودًا صغيرًا من الأرض ويقول: واللّـه ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود! فاعترض بطارقته، فأسكتهم، وقال للمهاجرين: اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي، مَنْ سبكم غرم، مَنْ سبكم غرم. ثم التفت إلى المبعوثَين المشركَين قائلًا: انطلقا، فلا واللّـه لا أسلمهم إليكما[٣].

وفيما بعد، عندما خطب الرسول ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان وهي بأرض

---

(١) دروزة: عصر الرسول (١/ ٢٤٨ - ٢٤٩).

(٢) المرجع السابق (١/ ٣٥٠ - ٣٥٣) وتُنظر: سورة هود: الآية ١١٠، وفصلت: الآية ٤٥، والشورى: الآيات ٣، ١٤، والزخرف: الآيات ٥٣ - ٦٥، والجاثية: الآيتان ١٦ - ١٧، ومريم: الآيات ٣٤ - ٣٦.

(٣) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (ص٧٢ - ٧٧).

الحبشة، تقديرًا لموقفها الفذ في سبيل الدعوة، بمواجهة إغراءات أبيها زعيم الوثنية، أصدقها النجاشي عن رسول اللّـه ﷺ أربعمائة دينار، وهو الذي أناب عن الرسول ﷺ في خطبتها، وكانت قبله عند عبيد اللّـه بن جحش الذي كان قد ارتد إلى النصرانية(١).

وفي المقابل نجد المسلمين، وهم قلة مضطهدة في مكة، يهزهم نبأ الهزيمة الساحقة التي مني بها الروم المسيحيون على أيدي الفرس الوثنيين، ويصيبهم بحزن عميق إزاء الفرح الذي غمر قلوب مشركي قريش، وتتنزل آيات القرآن الكريم تتحدث عن الواقعة وتتنبأ بالانتصار الحاسم الذي سيحققه المعسكر النصراني ضد أعدائه المجوس؛ حيث يفرح المؤمنون: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٢).

وقد تحققت النبوءة القرآنية التي لا تخطئ، وبعد بضع سنين ألحقت القوات البيزنطية بقيادة هرقل هزيمة ساحقة بالقوات الفارسية، استردت في أثرها بلاد الشام وفلسطين وأجزاء واسعة من العراق، وذهب هرقل إلى بيت المقدس لكي يسجد شكرًا للّـه، وغمرت الفرحة قلوب القلة المضطهدة في ظلمات الوثنية.

١٠ - مكاتبة الملوك والأمراء:

والحق أن المعسكر البيزنطي - النصراني هو الذي حظي بالقسط الأعظم من حركة الرسول العالمية المعروفة في التاريخ باسم (مكاتبة الملوك والأمراء)، ربما لأن الرسول ﷺ أدرك أن الوشائج التي تربط الإسلام بهذه الجبهة، باعتبارها تنتمي إلى دين سماوي تنص مصادره الكتابية على نبوة الرسول ﷺ، ستقودهم إلى تفهم دعوته التي انطلق بها سفراؤه إلى ملوك وحكام هذا المعسكر، فضلًا عن قربه الجغرافي من شبه الجزيرة، إلّا أن ردود الفعل النصرانية لم تكن سواء، وتدرجت

---

(١) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (ص٣٨١)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٦٥٣ - ٦٥٤).
(٢) سورة الروم: الآيات ٢ - ٥.

بين الانتماء إلى الدعوة الجديدة، أو الموقف الودّي منها، وبين الرفض الغاضب الوقح!!

في أعقاب صلح الحديبية، بعث الرسول ﷺ أربعة من رجاله إلى العالم النصراني: دحية بن خليفة الكلبي إلى الإمبراطور هرقل، حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر، عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي حاكم الحبشة، شجاع ابن وهب الأسدي إلى المنذر بن الحارث الغساني حاكم دمشق(١).

وكان من نتيجة السفارات الأربع أن أعلن النجاشي ملك الحبشة إسلامه، وأعرب كل من هرقل إمبراطور الروم والمقوقس حاكم مصر عن موقف ودّي دون الاستجابة لدعوة رسول اللَّه ﷺ، بل إن المقوقس مضى خطوة أخرى فبعث إلى رسول اللَّه ﷺ بجملة من الهدايا إعرابًا عن تقديره واحترامه.. أما المنذر الغساني فقد ثارت ثائرتُه، بخلاف سادتهِ الروم، وأعد العدة للهجوم على المدينة، لولا أن منعه هرقل(٢).

ونحن نجد في رسائل الرسول ﷺ إلى حكام العالم، تأكيده الدائم على شهادة (لا إله إلا اللَّه) في عصر طغت فيه الربوبيات الزائفة واتخاذ الناس بعضهم بعضًا أربابًا من دون اللَّه، ولم يتهادن الرسول ﷺ في رفع هذا الشعار إزاء حكام العالم، كما لم يتهادن به في صراعه مع الوثنية العربية منذ أول لحظة، فهو المنطلق الأساسي للدعوة الجديدة، والقاعدة التي يقوم عليها صرح الإسلام، وبدونها يتميَّع ويتفكك ويضيع. ونلمح - في الوقت نفسه وفيما وراء هذا الشعار - مرونة وتكييفًا ديبلوماسيًّا كان الرسول ﷺ يصوغ بموجبه رسائله إلى الحكام، فيعرض عليهم بعض جوانب اللقاء الديني بين الإسلام والنصرانية، ويمنّيهم بالخير العميم في الدنيا والآخرة في حال انتمائهم للدين الجديد، الذي هو ليس سوى إتمام للشوط الذي كان موسى وعيسى عليهما السلام قد سارا عليه من قبل. ولكنه ﷺ كان يدفع خلال السطور كلمات وعبارات ينذرهم فيها أنهم إن لم يستجيبوا فإنهم سيعرضون

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٦٤٤).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٦٥٢)، ابن سعد: الطبقات الكبير (١/ ٢/ ١٧).

مراكزهم للخطر وزعاماتهم للبوار!! وكان ﷺ - فضلًا عن هذا وذاك - يقدر طبيعة الموقف الذي يصدر عنه (الحاكم) فيرد عليه بما يشبهه ويوازيه: تهديدًا للحاكمين الذين يتمادَوْن في الضلال، ويشيحون عن مصدر النداء، ويعربون عن مواقفهم بكلمات وألفاظ عدائية، وقبولًا وانفتاحًا على الساسة الذين يصدرون عن نيات طيبة وإخلاص صادق.

١١ - نصارى الشمال:

أفاد الرسول ﷺ من غزوة تبوك عام (٩هـ) في القيام بسلسلة من الاتصالات بزعماء القبائل النصرانية المنتشرة في شمالي جزيرة العرب، وفي تلقي سفاراتهم، وراح يعقد معهم معاهدات الصلح والتعاون، ويقطع - بذلك - ولاءهم للدولة البيزنطية، ويحوّلهم إلى مواطنين أو حلفاء للدولة الإسلامية، وهو الهدف الذي كان يطمح لتحقيقه منذ بدء صراعه مع الروم. وكان ممن جاء إلى تبوك يوحنا ابن رؤبة صاحب أيلة، حيث صالح الرسول ﷺ ووافق على منحه الجزية. كما جاءه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية التي تعني إشعارًا ماديًا بانتمائهم إلى الدولة الإسلامية وقطع علاقاتهم وارتباطاتهم بمَنْ سواها. وقد كتب الرسول ﷺ ليوحنا عهدًا يمثل (نموذجًا) للعهود التي كان يكتبها للجماعات النصرانية، مانحًا إياهم فيها حرية الدين والمواطنة على السواء، ومؤكدًا على كونهم قد غدَوْا مرتبطين بالدولة الإسلامية وحمايتها وسلطتها: « بسم اللّـه الرحمن الرحيم. هذه أمنةٌ من اللّـه ومحمد النبي رسول اللّـه ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم في البّر والبحر، لهم ذمة اللّـه وذمة محمد النبي، ومَنْ كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمَنْ أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يردونه من بر أو بحر »[١].

كما وجّه الرسول ﷺ خالد بن الوليد على رأس كتيبة إلى أمير دومة النصراني

---

(١) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (ص٣٣٢ - ٣٣٤)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٣/ ١٠٨ - ١٠٩)، ابن سعد: الطبقات الكبير (١/ ٢/ ٢٨ - ٢٩، ٣٧، ٢/ ١/ ١٢٠)، الواقدي: المغازي (٣/ ١٠٢٥ - ١٠٣٢)، البلاذري: فتوح البلدان (١/ ٧١ - ٧٣).

المدعو أكيدر بن عبد الملك، فتمكن خالد من أسْرِه والعودة به إلى رسول اللّـه ﷺ الذي حقن دمه، وصالحه على الجزية، ثم أطلق سبيله فرجع إلى بلده[١].

١٢ - وفد نجران:

في عام الوفود (٩هـ) استقبل الرسول ﷺ وفد نجران النصرانية، الذي قدم المدينة في أعقاب كتاب بعثه إليهم الرسول ﷺ جاء فيه: « .. إني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب. أما بعد، فإني أدعوكم إلى عبادة اللّـه من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية اللّـه من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب، والسلام »[٢].

وكانت النصرانية تسود جنوبي الجزيرة، كما تسود شماليها، فرأى المسلمون وهم في حرب مع دولة الروم أن يحددوا موقفهم من نصارى الجنوب، خصوصًا وأن الروم كانوا يغدقون العطايا على مبشريهم هناك، ويبنون لهم الكنائس، ويشجعونهم على المضي في تمصير القبائل المتوطنة في تلك الأرجاء[٣].

كان الوفد يضم أربعة عشر رجلًا من أشراف النصارى، دخلوا المسجد فسلّموا على الرسول ﷺ فردّ عليهم السلام، ودعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم شيئًا من القرآن، فأبوا ودخلوا معه في مناقشات عقيمة حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام، تضيع في لجتها ملامح الحق المبين الذي جاء به القرآن، فما كان من الرسول ﷺ إلّا أن يوقف الجدل الذي راح يلف ويدور حول الحقائق، ويدعوهم للمباهلة: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[٤].

---

(١) المراجع السابقة نفسها.

(٢) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف (١٩٦٤م)، (٢/ ٧٠ - ٧١).

(٣) محمد الغزالي: فقه السيرة، الطبعة السادسة، دار الكتب الحديثة، القاهرة (١٩٦٥م)، (ص٤٥٨).

(٤) سورة آل عمران: الآيات ٥٩ - ٦١.

إلا أن رجال الوفد سرعان ما تخوّفوا من نتائج المباهلة، وعرضوا على الرسول ﷺ أن يحكم فيهم بما يراه، فصالحهم وكتب لهم عهدًا يمثل صورة من صور العدل والسماحة والحرية، لم يفرض عليهم فيه سوى جزية عينية قدرها ألفا حلّة في السنة، وقد جاء فيه: « ولنجرانَ وحاشيتهم جوارُ اللّـه وذمة محمد النبي رسول اللّـه على أنفسهم.. وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم، لا يغيروا أسقفًا عن أسقفيته، ولا راهبًا عن رهبانيته، ولا واقفًا عن وقفانيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. ومَنْ سأل منهم حقًّا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين.. ولا يؤخذ أحد منهم بظلم آخر. وعلى ما في هذه الصحيفة جوار اللّـه وذمة النبي أبدًا حتى يأتي اللّـه بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم.. »[(١)]. وقد دخل يهود نجران في هذا الصلح.

إذ كانوا كالأتباع لهم[(٢)]، وبتلك المعاهدة السمحة[(٣)] قطع الإسلام الصلة بين أولئك العرب المتنصّرين وبين دولة الروم التي يشتبك معها في الحرب، بعدما ضمن الحرية الدينية لمَنْ سالموه وكفوا أيديهم عنه.

١٣ - دائرة الوثنيين:

فإذا ما انتهينا إلى دائرة الوثنيين، فإننا سنجد أنفسنا إزاء الدّايناميكية المرنة التي شهدناها في الدوائر السابقة، باعتماد الصيغ المتنوعة والمناسبة لكل حالة، فيما جعل الرسول ﷺ في نهاية الأمر يصفّي الوجود الوثني، ويوحّد جزيرة العرب، ويحميها في الوقت نفسه من الجيوب المضادة، لحظة انطلاق الجيوش الإسلامية المجاهدة لبدء مرحلة عالمية الإسلام.

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبير (١/ ٢/ ٣٦، ٨٤ - ٨٥)، الزبيدي: التجريد الصريح (٢/ ٩٧ - ٩٨)، البلاذري: فتوح البلدان (١/ ٧٦ - ٧٨)، ويُنظر: دروزة: عصر الرسول (٢/ ٢٣٧ - ٢٣٨) (بالتفصيل).

(٢) البلاذري: فتوح البلدان (١/ ٧٨).

(٣) يُنظر عن نصوص المعاهدات المتعلقة بنصارى نجران: محمد حميد اللّـه: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، الطبعة الثالثة، دار الإرشاد، بيروت (١٩٦٩م)، (ص١٤١ - ١٦٦).

فهو ﷺ على المستوى العسكري، يعتمد في مجابهة المشركين أسلوب (السرايا)، أو حروب العصابات بالتعبير المعاصر، جنبًا إلى جنب مع الحروب النظامية (حروب المجابهة بين جيشين)، لكنه لا يكتفي بهذا، وإنما يسعى لتوظيف مبدأ المفاوضات والهدنة، بل وحتى تقديم التنازلات الشكلية - إذا صحّ التعبير - من أجل أن يحصل على مكاسبَ دعويةٍ أكبر بكثير.

وهو إلى جانب هذا وذاك يعتمد تكتيك الانسحاب الموقوت (كالذي حدث في حصار الطائف) بحثًا عن بدائل أخرى أقلّ خسارة، كما يعتمد محاولة الدخول السلمي إلى مكة، قاعدة الوثنية، تحاشيًا لسفك الدماء، ويسحب الراية من سعد بن عبادة ﷺ الذي أراد أن يعلنها حربًا ثأرية.. بل ويصدر عفوه العام عن مشركي مكة، رغم أنهم أصبحوا في قبضته، ورغم جهودهم المستميتة لوقف الدعوة الإسلامية وتدمير حركتها ودولتها معًا.. ولكنه - في الوقت نفسه - لم يتهاون مع بضعة عشر رأسًا من رؤوس الوثنية أصدر حكم الإعدام بحقهم؛ بسبب من ممارسات مضادة اقتضت موقفًا صارمًا كهذا.. وهو - كذلك - يرفض المساومة مع وفد الطائف الذي جاءه إلى المدينة لكي يعلن إسلامه، شرط أن يمنحه الرسول ﷺ بعض التساهلات.. ثم هو فوق هذا وذاك يتحرك في نهاية الأمر، وفي ضوء آيات صدر سورة التوبة؛ ليعلن حربه الشاملة على الوثنية واستئصالها من الوجود باعتبارها حالةً لا حضاريةً متخلفةً، وموغلةً في رجعيتها.

١٤ - المرحلة المكية:

قبل أن يشتد عود الدعوة اعتمد الرسول ﷺ أسلوب العمل السرّي، فأمر أتباعه بالتزام الحيطة والحذر والتخفي وعدم الإعلان عن الإسلام إلى أن يقضي اللّه أمره، فكانوا إذا أرادوا الصلاة خرجوا فرادى إلى الشعاب والبرية يصلّون على حذر، ولهم عيون ترى القادم لتنبيه المصلين عليه فلا يؤخَذوا على غِرة ويظهر أمرهم للناس، وقد بقوا على ذلك طوال مدة الاستخفاء[(١)]. ودخل الرسول ﷺ

---

(١) جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام (السيرة النبوية)، بغداد، مطبعة الزعيم (١٩٦١م)، (١/ ١٥٩).

وأصحابه بيت الأرقم بن أبي الأرقم، وبقي فيه مختفيًا مع جماعته لا يخرج إلى أن أذن اللّـه له بالخروج. وكان بعض المسلمين الذين بقوا خارج البيت يراجعون دار الأرقم لتلقّي أوامر النبي ﷺ وتنفيذ ما يحتاج إليه(١). ثم حان الوقت لإعلان الدعوة تنفيذًا لأمر اللّـه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(٢)، وبدأ الصدام بين المشركين والمسلمين، وكان بعض المسلمين إذا لقوا أذًى من خصومهم يتحفزون للردّ، فيكون جواب الرسول ﷺ: « **ما أُمرنا بقتال** ».

وعندما أدرك الرسول ﷺ بعد سنتين من الجهر بالدعوة أَلّا قدرة له على حماية أتباعه من البلاء الذي ينزل بهم ليل نهار، وأن الزعامة الوثنية ماضية في عنفها واضطهادها وتعذيبها لهم، مصممة على استخدام أي أسلوب لوقف الدعوة عند حدّها، رأى أن يمنح المعذبين فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم، ويستعيدون قواهم النفسية والجسدية، ويعودون ثانية إلى ساحة الصراع وهم أقدَرُ وأصلب، وعسى اللّـه أن يحدث - خلال ذلك - أمرًا كان مفعولًا. فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، وهي هجرة مرحلية موقوتة لم يكن هدفها الاستقرار، ولا إقامة دولة الإسلام هناك، كالذي حدث في الهجرة إلى المدينة، والتي بذل الرسول ﷺ في سبيلها جهدًا متواصلًا استغرق السنوات الطوال، وآتى ثماره أخيرًا بلقاءيه المعروفين بالأوس والخزرج في بيعتي العقبة الأولى والثانية، واللتين أعقبتهما هجرة المسلمين ورسولهم ﷺ إلى المدينة والبدء بإقامة دولة الإسلام هناك، بعد إذ تبيّن أن مكة باعتبارها قاعدة الوثنية وموطن رجال الملأ لا تصلح للهدف المذكور.

١٥ - المرحلة المدنية:

تحـرك الرسول ﷺ في تعامله مع القوى الوثنيـة عبر المرحلة المدنية على مستويين، وفق ما يتطلبه الموقف: السرايـا أو حروب العصابـات، والغـزوات أو الحرب النظامية. لكن « الحرب » لم تكن الصيغة الوحيدة في العلاقة بين

---

(١) جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام (السيرة النبوية)، بغـداد، مطبعة الزعيم (١٩٦١م) (١/ ١٦٥ - ١٦٦).

(٢) سورة الحجر: الآية ٩٤.

الطرفين، وفسح الرسول ﷺ المجال أمام التفاوض والمصالحة لتحقيق الأهداف التي قد تعجز القوة عن تحقيقها. ومنذ البدء أعلن الرسول ﷺ في ذي القعدة من العام السادس للهجرة أنه سيتجه إلى مكة معتمرًا، لا يريد حربًا[١]، وعندما انتهى به المسير إلى الحديبية أسفل مكة قال: « **لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلّا أعطيتهم إياها** »[٢]. وبدأ تبادل السفراء بين الطرفين.. مكة تبعث بديل بن ورقاء الخزاعي، وتعقبه بمكرز بن حفص ثم بالحليس بن علقمة سيد الأحابيش فعروة بن مسعود الثقفي.. والرسول ﷺ يبعث من جهته بعثمان ابن عفان رضي الله عنه سفيرًا إلى قريش التي ما لبثت بعد أن أيقنت إصرار الرسول ﷺ على دخول مكة معتمرًا أن بعثت بسفيرها الخامس سهيل بن عمرو الذي أبرم معه صلح الحديبية، والذي قدّم فيه الرسول ﷺ بعض التنازلات الشكلية رغبة منه في أن يمضي الصلح إلى هدفه.

كان الصلح يقضي بعقد هدنة أمدُها عشر سنوات، وأن يرجع المسلمون هذا العام ولهم أن يدخلوا مكة في العام المقبل والسيوف في أغمادها، وأن لكل قبيلة الحق بالدخول في عهد مع أي من الطرفين تشاء.. وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأن من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه فعليه أن يردّه، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد ﷺ لا تجد نفسها ملزمة بردّه.

وقد ورد في سيرة ابن هشام تعقيبًا على صلح الحديبية أنه « ما فُتِحَ في الإسلام فَتْحٌ قبلَه كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس.. فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها، وأَمِنَ الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا، فلم يكلَّم أحد في الإسلام يعقل شيئًا إلّا دخل فيه.. ولقد دخل في تينك السنتين مثل مَنْ كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر؛ بدليل أن الرسول ﷺ خرج إلى الحديبية في

---

(١) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (ص٢٤٩)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٦٢٠)، ابن سعد: الطبقات الكبير (٢/ ١/ ٦٩)، الواقدي: المغازي (٢/ ٥٧٢ - ٥٧٣).

(٢) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (ص٢٢٩ - ٢٥١)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٦٢٣ - ٦٢٤)، الواقدي: المغازي (٢/ ٥٧٤ - ٥٩٤).

ألف وأربع مئة، ثم خرج في فتح مكة بعد سنتين على رأس عشرة آلاف رجل »[١].

ولما كانت قريش هي زعيمة الوثنية وحامية حمى الحرم المقدس، فإن توابعها من القبائل العربية المنتشرة في الجزيرة رأت نفسها في حلّ من الانتماء لزعامتها والارتباط بمصيرها، وأن لها الحرية المطلقة في أن تختار المعسكر الذي تراه مناسبًا للدخول في دينه أو عقد تحالف معه. وقد فتح ذلك المجال أمام المسلمين لكي ينشطوا وينتشروا في الآفاق لكسب مزيد من الأصدقاء والحلفاء، مستغلين فترة السلم التي أتاحتها شروط الحديبية.

ولم ينس الرسول ﷺ أن ينتزع من هذه الفرصة الثمينة كل ما يستطيع انتزاعه فيتفرغ لتصفية الحساب مع اليهود الذين تكتلوا في خيبر والمواقع المجاورة، والبيزنطيين وحلفائهم العرب الذين ازداد تكالبهم في الجهات الشمالية بازدياد نشاط الإسلام هناك، فضلًا عن التجمعات القَبَلِيَّة البدوية المنتشرة في الصحراء والتي كانت تنتظر الفرصة السانحة لإنزال الضربات بأتباعه.

١٦ - قيم من فتح مكة:

في فتح مكة عام (٨) للهجرة، حرص الرسول ﷺ على كتمان الأمر حتى عن أقرب أصحابه إليه من أجل أن يفاجئ مكة بهجومه المباغت فلا تستطيع مقاومةً ودفاعًا، فتذعن للأمر وتحقن الدماء.. ودعا ربّه: « **اللّـهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها** »[٢]. وقد روى الواقدي أن الرسول ﷺ خرج إلى مكة « ولا يعلم أحد وجهته، وقائل يقول: يريد قريشًا، وقائل يقول: هوازن، وآخر يقول: يريد ثقيفًا. ولم يعقد الألوية ولم ينشر الرايات حتى بلغ كديد، وعندما سأله أحد أصحابه في الطريق: يا رسـول اللّـه، واللّـه ما أرى آلة الحرب ولا تهيئة الإحرام، فأين تتوجه يا رسول اللّـه؟ أجاب الرسول ﷺ: « **حيث شاء اللّـه** »[٣].

---

(١) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (ص٢٥٨ - ٢٥٩)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٦٢٨)، ويُنظر: الواقدي: المغازي (٢/ ٦٠٩ - ٦١٠، ٦٢٤). وعن الآيات المتعلقة بالحديبية تُنظر: سورة الفتح: الآيات (١ - ٦ - ١٠ - ١٣، ١٨، ٢٠، ٢٤ - ٢٨).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٧).

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٥١ - ٥٢)، الواقدي: المغازي (٢/ ٧٩٦ - ٧٩٧).

بل إنه ﷺ عندما جاءه أبو سفيان ليعلن إسلامه أراد أن يتخذ منه مفتاح أمان يفتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة الدماء، ويكبت به روح المقاومة الوثنية المتعطشة للقتل والدماء، فأراد أن يشبع فيه عاطفة الفخر ويحقق هدفه عن هذا الطريق، فأعلن أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن. وبذلك سعى الرسول ﷺ إلى تنفيذ أسلوب منع التجوّل لكي يتمكن من دخول مكة بأقل قدر من الاشتباكات وإراقة الدماء. وقد جعل لدار أبي سفيان مكانةً خاصة كي يكون ساعِدَه في إقناع المكيين بالسلم والهدوء، ولم يكتف بذلك، بل أمر العباس أن يحجز أبا سفيان عند مدخل المضيق الذي ستنساب منه قوات المسلمين في طريقها إلى مكة فيراها رأي العين، فيزداد يقينًا بألّا قدرة للمكيين على المقاومة(١).

أمر الرسول ﷺ قواده ألّا يقاتلوا إلّا اضطرارًا، وقد دخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع بسهولة بالغة، بعد أن هزم خالد بن الوليد رضي الله عنه القوات القرشية التي اعترضت مسيرته في الجنوب، وقتل وجرح منهم ثلاثة عشر رجلًا(٢).

وقد أراد سعد بن عبادة رضي الله عنه أن يعلنها حربًا ثأرية، فصرخ بأعلى صوته: اليوم يوم الملحمة.. اليوم تستحل الحرمة.. فما كان من الرسول ﷺ إلّا أن يسحب منه الراية ويسلّمها لابنه..

وبعد أن كنس وأصحابه آثار الوثنية في مكة، وقف ﷺ على باب الكعبة وقد تجمّع الناس هناك، فخطبهم قائلًا: « **يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟** »، أجابوه بصوت واحد: خيرًا، أخ كريم وابنُ أخ كريم! قال: « **اذهبوا فأنتم الطلقاء** »(٣).

١٧ - دلالات معركة الطائف:

في أعقاب فتح مكة، وبعد قضائه على تمرّد هوازن في معركة حنين، توجه إلى

(١) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (ص٢٨٢ - ٢٨٦)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٤٩ - ٥٤)، ابن سعد: الطبقات الكبير (٢/ ١/ ٩٧ - ٩٨)، الواقدي: المغازي (٢/ ٧٩٩ - ٨٠١، ٨١٤ - ٨١٨)، الزبيدي: التجريد الصريح (٢/ ٩٠)، البلاذري: أنساب الأشراف (١/ ٢٥٥).
(٢) وقيل: « ثمان وعشرون ». الواقدي: المغازي (٢/ ٨٢٥ - ٨٢٦)، البلاذري: فتوح البلدان (١/ ٤٤).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).

حليفتها ثقيف في الطائف وفرض عليها الحصار بضعًا وعشرين ليلة، لكنه ما لبث أن رأى عدم ضرورة الاستمرار على الحصار، وأدرك أن الطائف ستجد نفسها في يوم قريب أشبه بجزيرة منقطعة يحيط بها بحر طامٍ من المسلمين من كل مكان، وستسعى إليه حينذاك طائعة مختارة، طالبة الانتماء إلى الدين الجديد، وبدلًا من أن تكون هذه المدينة ذات الطاقات البشرية المعروفة، ضد المسلمين في مستقبل الأيام، فإنها ستكون معهم.

ولقد كانت رحلة تبوك الكبرى بعد ذلك بقليل مما يسوّغ القول: إن النبي ﷺ لم يرَ خَطَرًا من ترك الطائف إلى فرصة أخرى، ورأى العودة والتعجيل برحلة تبوك(١)، لذلك كله لم يشأ أن يفتتحها عنوة، ولم يأمر بهجوم حاسم عليها، كما حدث في العام الماضي مع حصون خيبر على سبيل المثال، واكتفى بأن يدير القتال على أضيق نطاق، بحيث إن جميع مَنْ استشهد من أصحابه خلال الحصار لم يتجاوز اثني عشر رجلًا(٢).

وبعد أقل من عام جاءه وفد من الطائف ليعلن إسلام القوم إسلامًا مشروطًا يتساهل الرسول ﷺ بموجبه عن بعض الالتزامات الدينية، كأن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين، والرسول ﷺ يرفض وهم يتنازلون إلى السنة والشهر واليوم الواحد دون جدوى؛ إنه في مسألة الالتزامات هذه لا يساوم، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن تكون الخطوة الأولى بعد عودتهم إلى الطائف تحطيم الأصنام عن آخرها(٣).

١٨ - تصفية الوجود الوثني:

وعندما أشرف العام التاسع للهجرة على نهايته وحان موعد الحج، وجد الرسول ﷺ نفسه مضطرًا للبقاء في المدينة كي يتفرغ للوفود القادمة إليها دونما

(١) دروزة: سيرة الرسول (٢/ ٣٦٩ - ٣٧٠).
(٢) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٠)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٨٥)، ابن سعد: الطبقات الكبير (٢/ ١/ ١١٤ - ١١٥).
(٣) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام (ص ٣٣٧ - ٣٣٩)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٩٨ - ٩٩)، ابن سعد: الطبقات الكبير (١/ ٢/ ٥٣ - ٥٤)، الواقدي: المغازي (٣/ ٩٦٣ - ٩٦٩).

انقطاع، وأناب عنه لإمامة المسلمين في حجّهم ذاك أبا بكر الصديق ﷺ، وما أن غادر أبو بكر المدينة في طريقه إلى البيت الحرام حتى نزلت آيات (براءة) من صدر سورة (التوبة) تعلن تصفية الوجود الوثني من شبه جزيرة العرب، ومنح أتباعه وقتًا كافيًا للتفكير في الخروج من حضيض الجاهلية الذي ظلوا يتمرغون فيه مئات السنين، وها قد آن الأوان لكي يؤوبوا إلى الحق ويلتزموا الطريق المستقيم، وإلّا فإن الدين الجديد سوف لا يمنحهم فرصة أخرى بعدما صبر عليهم طويلًا: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ.. ﴾[1].

وسرعان ما حمَّل الرسولُ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب ﷺ هذه الآيات والتعليمات المرفقة بها، وأمره أن ينطلق بها إلى الكعبة لكي يتلوها على جموع الحجيج هناك، وفيهم الكثيرون من الذين لا يزالون على شركهم وجاهليتهم[2].

وقد آتى هذا البيان ثمرته، فإن النبي ﷺ قد حج في العام العاشر حجته الأخيرة على النظام الإسلامي الكامل، وحج معه فيها حوالي مائة ألف من حاج العرب[3]، لم يكن من بينهم مشرك واحد.

وفي الفترة التي تقع بين إعلان براءة ووفاة الرسول ﷺ طبق الرسول قانون براءة بحذر شديد وكياسة سياسية بارعة، وتجنب الاصطدام بالقبائل وإلّا جرح كبرياءها وأثار عصبيتها؛ ولذلك كان يكتفي من وفودها بإعلان إسلامهم وانضمامهم إلى حكومته، ويرسل معهم عند عودتهم مسلمين يعلمونهم الإسلام في بلادهم[4].

والواقع أن (إعلان براءة) بوقف الوثنية نهائيًا، أمرٌ لا يمكن إدراك أبعاده إلّا

(١) سورة التوبة: الآيات ١ - ٣.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٣/ ١٢٢ - ١٢٣)، ابن سعد: الطبقات الكبير (٢/ ١/ ١٢١)، البلاذري: أنساب الأشراف (١/ ٣٨٣).
(٣) يُنظر: تقي الدين بن علي المقريزي: إمتاع الأسماع، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة (١٩٤١م)، (١/ ٥١٢).
(٤) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة (ص ٥٣٨).

إذا نظرنا إلى المسألة من جانبيها (الحضاري) و (الاستراتيجي) كضرورتين يرتبط بعضهما ببعض، وتسوقان إلى اتخاذ إجراء حاسم كهذا: فأما **أولاهما** فهي أن الوثنية - على خلاف سائر الأديان الأخرى - تمثل الدرك الأسفل في موقف الإنسان الديني من الكون، موقف يشده إلى الحجارة ويصدّه عن التقدم إلى الأمام، ويحجب عن بصيرته الرؤية الشاملة لدور الإنسان في الأرض وعلاقته بالقوى الأخرى في الوجود، ولو بقي العربي على وثنيته لظل بحكم موقفه المحدود هذا أسير جهله وتأخره، وسجين عالم تضيق آفاقه لكي ما تلبث أن تعزله عن العالم وتحصره في قلب الصحراء(١).

وأما **ثانية** الضرورتين فتقوم على أن الدولة (العقدية) التي أُنشئت في قلب المنطقة العربية، وامتد نفوذها السياسي إلى كافة أرجاء الجزيرة، وبدأت تحشد قواها وطاقاتها الجهادية للانتقال صوب الخطوة التالية في التحرك إلى العالم المحيط كله.. هذه الدولة كان عليها أن تعتمد استراتيجية صارمة، واضحة المعالم، من أجل أن تحمي وجودها في شبه الجزيرة من جيوب الوثنية العربية ومراكز القوى الجاهلية، وأن تحيط مركز انطلاقها إلى العالم بسياج من الوحدة العقدية والسياسية على السواء، لئلَّا تُضرب من الخلف وهي تمارس صراعها مع القوى الخارجية، حاشدة لها جل طاقاتها.

وفي ضوء هذا الارتباط بين الضرورتين الحضارية والاستراتيجية، يمكن أن نتفهم موقف الحركة الإسلامية، نظرية وتطبيقًا، إزاء عدد من الأديان، فمهادنتها اليهودية والنصرانية في شبه الجزيرة نفسها كان ينبثق عن كون الديانتين كتابيتين متقدمتين (فكريًّا) على سائر الديانات الأخرى السابقة والمعاصرة للإسلام، فضلًا عن كونهما لا تمثلان - من الناحية الكمية - خطرًا استراتيجيًّا على الدولة الإسلامية في شبه الجزيرة.

إلّا أن اليهود عندما نشطوا قبل غزوة خيبر الحاسمة وبعدها لضرب الدولة،

---

(١) يُنظر كتاب: (تهافت العلمانية) للمؤلف، فصل (مواقع العلم والدين)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت (٢٠٠٨م).

وإجراء اتصالات عديدة مع القوى الخارجية المتربصة، صدر أمر بعدم السماح لهم بالبقاء في الجزيرة، في أقسامها الشمالية على الأقل، وقد تمثل هذا الأمر بخطوات عمر بن الخطاب العملية لإجلاء معظم اليهود عن المنطقة.

وموقف الإسلام - كذلك - من المجوسية والصابئة، وعدم سعيه لتصفيتهما، رغم تأخُّرِهما الحضاري، يعود إلى أنهما لا يشكِّلان خطرًا استراتيجيًا مباشرًا على قاعدة انطلاقه إلى العالم، شأن الوثنية في شبه الجزيرة.

وهكذا يجيء (إعلان براءة) نصرًا حضاريًّا واستراتيجيًّا لدولة الإسلام، وهي تتهيأ للخطوة التالية في (تحضير) العالم و (مجاهدة) قياداته (الكافرة) جميعًا من أجل منح حرية الاعتقاد للإنسان حيثما كان.

خاتمة:

وفيما عدا الوثنية المتخلفة، لم يلجأ الرسول ﷺ إلى إلغاء المخالفين أو مصادرتهم، أو تصفيتهم عشوائيًّا، وحاشاه.. ولا كان يدفعهم إلى الطرف النقيض الآخر المترَعِ بالخصومة والكراهية والعداء والبغضاء.. بل كان يعرف، برؤية مربٍّ خبير وسياسي قدير، كيف يتعامل معهم، ويغسل الشحناء من صدورهم، ويستميلهم، ويكسبهم في نهاية الأمر.

إن منهج النبي ﷺ في التعامل مع المخالفين صفحة مشعّة في تاريخ هذا الدين، وفي نسيج سيرة رسوله ﷺ، ما عرفته أمة غير أمة الإسلام، ولا ذاقت حلاوته أو جنت ثماره اليانعة إلّا هذه الأمة.

وإنه ليتحتم علينا في لحظتنا الراهنة أن نمدّ أيدينا إلى تعاليم رسول اللّه ﷺ وهو يتعامل مع العالم، والبشرية، والتاريخ، لكي نقتبس منها ما يعيننا على الخروج من الحلقة المفرغة، والانطلاق - تحت راية الحنفية السمحاء - لاستعادة دورنا في الأرض.

* * *
* *
*

مجابهة الرسول ﷺ للإغراء

الحلقة الأولى:

في الزمن الرمادي الذي تُـوجه فيه سهام الحقد الطائفي الغربي ضد رسولنا وقائدنا ومعلمنا عليه أفضل الصلاة والسلام، ليس ثمة أكثر فاعلية في الردّ سوى المزيد من الحديث عن شخصية هذا النبي العظيم، والإيغال في خصائصها الفريدة التي لم تجتمع لإنسان - على مدى تاريخ البشرية - كما اجتمعت في شخصية محمد ﷺ.

سأرحل معكم أبنائي الأعزاء، عبر جملة من اللقاءات، في جانب من جوانب هذه الشخصية الباهرة، لم تسلّط عليها الأضواء بما فيه الكفاية، رغم كونه واحدًا من أشد نقاط التألّق في هذه الشخصية.

إنه قدرة هذا النبي الإنسان ﷺ على مجابهة الإغراء بأنماطه كافة.

وكلنا يعرف أن مجابهة ضغوط الوعيد والتهديد والترهيب أيسر بكثير من مجابهة ضغوط الوعد والإغراء، والتي تتطلب قدرة فائقة على المجابهة والاستعصاء، ودفوعًا صعبة المراس لتمكين الشخصية من عدم الانسياق، بل الانحناء أمام هذه الضغوط.

ولقد تعرض رسول اللّـه ﷺ لشتى صنوف الإغراء فتمكّن من مجابهتها ببطولة نادرة، وخرج من معاركها الضارية منتصرًا متفوقًا في كل مرة.

ستكون حلقات لقاءاتنا هذه - أبنائي الأعزاء - فرصةً طيبةً إن شاء اللّـه لأن نُطالع معًا جوانب من المعركة الضارية التي تكشف عن عظمة هذا النبي الإنسان وقدرته الفائقة على الوقوف عملاقًا إزاء شتى صنوف الإغراء التي أذلّت أعناق ملايين الناس قادةً وأناسًا عاديين.

لنبدأ بقدرته المدهشة على مجابهة إغراء السلطة في تلك المرحلة المبكرة من نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام.

في مكة، وبعد أن أمره اللّـه ﷻ بالجهر بالدعوة، وقفت له قريش بالمرصاد،

ولم تترك وسيلة تجعل عمه أبا طالب يتخلى عن حمايته إلَّا ولجأت إليها دون أن تصل إلى شيء.. هددت وتوعدت وأبو طالب مُصرّ على موقفه.. وحينذاك قررت أن تلجأ إلى أسلوب الوعد والإغراء علّها تقنع الرسول ﷺ أن يكف عن دعوته، وعرضت على أبي طالب أن يقول لابن أخيه بأن قريشًا مستعدةٌ أن تمنحه ما يشاء من مال وأن تتوّجه ملكًا عليها.. فما كان جواب محمد ﷺ لعمِّه إلّا أن قال بحسم لا تردّد فيه: « **يا عم، واللّـه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذ الأمر ما تركته حتى يُظهره اللّـه أو أهلِك فيه** »[1]!!

الحلقة الثانية:

تحدثنا في الحلقة السابقة عن مجابهة الرسول ﷺ لإغراء السلطة، وسنخصص هذه الحلقة لقدرته على مجابهة إغراء الأمان.

عندما أدرك الرسول ﷺ بعد سنتين من الجهر بالدعوة في مكة، ألَّا قدرة له على حماية أتباعه من البلاء الذي ينزل بهم ليل نهار، وأن الزعامة الوثنية ماضية في عنفها واضطهادها وتعذيبها لهم، مصممةٌ على استخدام أي أسلوب لوقف الدعوة عند حدّها وخنقها وهي بعد في المهد.. رأى أن يمنح المعذَّبين المضطَهدين فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم، ويستعيدون قواهم النفسية والجسدية، ويعودون ثانيةً إلى ساحة الصراع وهم أقدر وأصلب، وعسى اللّـه أن يحدث - خلال ذلك - أمرًا كان مفعولًا. فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، فاستجاب له المسلمون، وتسلل عدد منهم من مكة صوب الساحل، كي تقلّهم سفينتان كانتا متجهتين صوب الجنوب، وخرج نفر من قريش في آثارهم، وعندما بلغوا الساحل كانت السفن قد بعدت عنه.

لقد كان همّ الرسول ﷺ أن يطمئن على سلامة أصحابه، أما هو فقد آثر أن يبقى في قلب المخاطر والاستفزازات لمواصلة طريق الدعوة دون أن يفكر لحظةً بالبحث عن الأمان واللجوء إلى الحبشة فرارًا بنفسه من الأذى والملاحقة والخوف.

وفي الهجرة إلى المدينة تكرّر الموقف نفسه بصيغة أشد خطورةً؛ حيث

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٦).

ارتأى ﷺ أن يهاجر صحابته الكرام متخفّين قدر الإمكان، وأن يظل هو في مكة يحمي ظهورَهم ويطمئن على وصولهم سالمين. ولم يبق معه في مكة سوى رفيقه أبي بكر الصديق وابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.. رغم أن قريشًا قررت هذه المرة تصفية الرسول ﷺ جسديًا بعد أن انكشف أمر الهجرة وأدرك زعماء قريش خطورة الموقف، فعقدوا اجتماعًا تبادلوا فيه الرأي بخصوص مصير الرسول ﷺ ما بين اعتقاله أو نفيه أو قتله.. فاستقر الرأي على الحل الأخير..

وكلكم تعرفون كيف أنهم أحاطوا ببيت الرسول ﷺ وفرضوا عليه حراسةً مشددة بانتظار اللحظة المناسبة لقتله وتفريق دمه بين القبائل.. لكن اللّـه سبحانه وتعالى أنجاه منهم، حيث تمكّن ﷺ ورفيقه الصِّدِّيق رضي الله عنه في ضوء خطة محكمة وإدراك عميق لمبدأ الأخذ بالأسباب، من اللحاق بالمسلمين في المدينة وبدء مرحلة جديدة في مسيرة الدعوة المجاهدة.

قارنوا هذه المواقف - أبنائي الأعزاء - بمواقف العديد من قادة المذاهب والحركات الفكرية أو السياسية في العصر الحديث؛ حيث لا يسمح المجال بالوقوف عندها، ولذا سنكتفي بشاهد واحد فحسب..

(لينين) زعيم الثورة الشيوعية ومؤسس الاتحاد السوفياتي عام (١٩١٧م)، حيث كان قُبيل انتصار أصحابه على القيصرية في روسيا مختبئًا في إنكلترا يصدر أوامره إليهم من هناك، وهم يُـقتَّلون ويُعتَقَلون ويعذَّبون ويُنفَون من الأرض.. وأرسل إليه ساعده الأيمن ستالين رسالة مستعجلة من روسيا يعاتبه على بقائه بعيدًا عن ساحة المعركة، لكن لينين لم يستجب لرفيقه، وتحول إلى مكان آمن آخر في فنلندا ولم يجرؤ على العودة إلى موسكو إلّا بعد أن أطاح حزبه بالنظام هناك وتأكد لديه إمساكهم بزمام الأمور..

ذلك هو زعيمهم، وهذا هو نبيّنا.. وشتان.

الحلقة الثالثة:

سأحدثكم عن مجابهة الرسول ﷺ لإغراء المال الذي أذلَّ أعناق الرجال؛ حيث يقف صامدًا، متجردًا، يعطي - ولا يأخذ - عطاء من لا يخشى الفقر.

في أعقاب معركة حنين سنة (٨ هـ) عندما راح يوزع الغنائم الوفيرة التي تجمعت لديه من جرّاء هزيمة خصومه الوثنيين، ناداه الأعراب الفقراء: يا رسول اللّـه، اقسم علينا فيأنا من الإبل والغنم، وازدحموا عليه حتى ألجؤوه إلى شجرة اختطفت عنه رداءه، فقال: « **ردّوا عليّ ردائي أيها الناس، فواللّـه لو كان لكم عندي بعدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذابًا** ».. ثم تقدم إلى بعير قريب منه فاستل منه وبرة جعلها بين أصبعيه، ثم رفعها وقال: « **أيها الناس، واللّـه ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبرة، إلّا الخمس، والخمس مردود عليكم** »[(١)]!

ويومًا خرج ﷺ وصاحبه أبو ذر رضي الله عنه يتمشيان في أطراف المدينة، فاستقبلهما جبل أُحد، قال أبو ذر: فخاطبني الرسول ﷺ: « **يا أبا ذر** »، قلت: لبيك يا رسول اللّـه، قال: « **ما يسرّني أن عندي مثل أُحد هذا ذهبًا يأتي عليَّ ليلة أو ثلاث وعندي منه دينار إلّا دينار أرصده لدين، إلّا أن أقول به في عباد اللّـه هكذا وهكذا وهكذا** » عن يمينه وشماله وخلفه، ثم مشى فقال: « **إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلّا من قال هكذا وهكذا، وقليلٌ ما هم** »[(٢)]. ومات رسول اللّـه ﷺ..

عن عمرو بن الحارث قال: ما ترك رسول اللّـه ﷺ عند موته درهمًا ولا دينارًا، ولا عبدًا ولا أمةً ولا شيئًا، إلّا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضًا جعلها صدقة!

ونتذكر - أيضًا - ما ذكره عروة بن الزبير عن أبي حميد الساعدي من أن رسول اللّـه ﷺ استعمل رجلًا من الأزد على صدقات بني سليم، فلما جاء بالمال حاسبه رسول اللّـه ﷺ، فقال الرجل: هذا لكم، وهذا هدية أُهديت لي! فقام النبي ﷺ خطيبًا في الناس وقد احمرّ وجهه، فحمد اللّـه وأثنى عليه، ثم قال: « **ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولّانا اللّـه، فيقول: هذا لكم وهذا أُهدي إليَّ، أفلا جلس في بيت أبيه وأهله حتى تأتيه هديته؟! والذي نفس محمد بيده لا نستعمل رجلًا على العمل مما ولّانا اللّـه فيغلّ منه شيئًا إلّا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه** »، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: « **اللّـهم هل بلّغت؟ اللّـهم فاشهد!!** »[(٣)].

---

(١) البيهقي: السنن الكبرى (١٢٧١٢). (٢) أخرجه البخاري (٦٢٦٨)، ومسلم (٩٤).

(٣) انظره بنحوه في صحيح البخاري (٦٦٣٦).

الحلقة الرابعة:

ما يرتبط بإغراء المال الذي تحدثنا عنه في الحلقة السابقة: إغراء الحاجات الأساسية: المسكن، الملبس والطعام مما يتهافت عليه الناس في كل زمان ومكان.. لكن الرسول المعلم ﷺ له مع إغراء هذه المطالب حساب آخر..

سئلت زوجته عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول اللّـه ﷺ في بيته؟ فأجابت: « كان بشرًا كالبشر، يصلح نعله ويرقع ثوبه ويخدم نفسه »، كما قال ﷺ: « **أنا أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد** »(١).. كان يجلس على الأرض ويوضع طعامه على الأرض، كان قدحه من خشب غليظ مضّبب بحديد، كان إذا سقى أصحابه شرب آخرهم، وإذا لم يجد الطعام صبر حتى أنه ليربط على بطنه الحجر من الجوع، كان يعمل في حفر الخندق يوم غزو الأحزاب، فرأى صحابته الحجر على بطنه من شدة الجوع، وكان يمرّ عليه الشهر لا يجد ما يخبزه، « ولكن كان لنا جيران من الأنصار - تقول زوجته عائشة - نعم الجيران، كانوا يهدوننا بعض الطعام، ولو كان لنا مصباح - تقول عائشة أيضًا - لأكلْنا زيته ».

صلى مرةً جالسًا من شدة الجوع، وقدموا له عصير اللوز فقال: أخّروه عني، هذا شراب المترفين! لم يكن لديه قط قميصان معًا ولا رداءان ولا إزاران ولا نعلان، وأهدي إليه من الشام جبة وخفّان فلبسهما حتى تمزقا، وحج في قطيفة لا تساوي أربعة دراهم، كان يلبس الصوف - أرخص شيء وقتها - ويخصف النعل ويرقع القميص ويركب الحمار، وكانت له حصيرة ينام عليها، ويبسطها في النهار فيجلس عليها.. ثم ينام على عباءة تثنى مرتين، فطوتها زوجته حفصة أربع مرات، فلما نام عليها كان من لينها ورفاهيتها أن استغرق في النوم حتى فاتته صلاة الليل، فنهى حفصة عن ذلك وأمرها أن تعيد العباءة إلى وضعها الأول، ورأت امرأة من الأنصار ما ينام عليه فأهدته مرتبة من الجلد، حشوها صوف، فأمر عائشة بأن تردها، قالت: « فلم أردها حتى أمرني ثلاثًا؛ لأني كنت أحب أن يكون في بيتي مثل هذا »!!

(١) الإمام أحمد بن حنبل: الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م) رقم (٢٠).

ودخل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا فرآه على حصير قد أثر في جنبه، ورفع رأسه في البيت فلم يجد إلَّا إهابًا معلقًا، وقبضة من شعير، وحصيرًا تكاد تُبلى، فبكى عمر، فقال له: « **ما يبكيك يا ابن الخطاب؟** »، قال عمر: يا نبي اللّـه، ما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلّا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي اللّـه وصفوته؟ فقال ﷺ: « **أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا** »[(١)]!!

الحلقة الخامسة:

نعود مرةً أخرى إلى طعام رسول اللّـه ﷺ استكمالًا لحديثنا في الحلقة السابقة.. روى البخاري أن أنس بن مالك قال: ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفًا مرققًا حتى لحق باللّـه، ولا رأى في بيته شاةً سميطًا بعينه قط، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إنا كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلّة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول اللّـه ﷺ نار، فقال لها عروة بن الزبير: ما كان يعيشكم يا خالة؟ أجابت: الأسودان، التمر والماء. وقالت: لقد توفي رسول اللّـه ﷺ وما في رفّي من شيء يأكله ذو كبد إلّا شطر شعير في رفٍّ لي! وعن أنس قال: ما أعلم النبي ﷺ خبز له مرقق قط، ولا أكل على خوان قط.

وعن أبي هريرة أن رسول اللّـه ﷺ خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البُر ثلاث ليالٍ تباعًا حتى قُبض. وعن أنس أنه مشى إليه بخبز شعير.. وقال: لقد رهن النبي ﷺ درعًا له بالمدينة عند يهودي وأخذ منه شعيرًا لأهله.. ولقد سمعته يقول: « **ما أمسى عند آل محمد صاع بُر ولا صاع حب..** »[(٢)]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول اللّـه ﷺ يؤتى بالتمر عند ضرام النخل، فيجيء هذا بتمره وهذا بتمره حتى يصير عنده كومًا من تمر، فجعل الحسن والحسين يلعبان بذلك التمر، فأخذ أحدهما تمرة فجعلها في فيه، فنظر إليه رسول اللّـه ﷺ فأخرجها من فيه، فقال: « **أما علمتَ أن آل محمد لا يأكلون الصدقة؟** »[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٨٥).

وماذا عن نساء الرسول ﷺ وبناته وأهل بيته؟ اشتكت إليه ابنته فاطمة رضي الله عنها ما تلقاه من أعمال البيت من شدة وعناء، وطلبت إليه أن يُخْدِمَهَا خادمًا، فرفض ذلك، وقال لها: « **لا أعطيك وأدع أهل الصفة** - وهم جماعة من الفقراء - **تطوى بطونهم من الجوع** »[١]!

ورُوي أن النبي ﷺ أتى بيت فاطمة رضي الله عنها ليزورها، ثم عدل فلم يدخل عليها، فبعثت عليًّا ليسأل الرسول ﷺ عن سبب عدوله عن زيارتها، فأجاب الرسول ﷺ: « **إني رأيت على بابها سترًا موشيًا.. وأرى أن ترسلي به إلى أهل بيت فلان فهم في حاجة..** »، وأراد زيارتها مرةً أخرى، فعاد كذلك دون أن يدخل عليها، فأرسلت متسائلة عن سرّ ذلك، فأجابها: « **إني وجدت في يديها سوارين من فضة** »، فبلغها ذلك فأرسلتهما إليه، فباعهما وتصدق بثمنهما على الفقراء.

أما نساؤه فقد أوجب الرسول ﷺ عليهن شدة ما كن يعرفنها من قبل، لقد جئن إليه من بيوتات كبيرة، وأكثرهن اعتادت في صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة، إما مع آبائهن وإما مع رجالهن السابقين، فلا عجب إذا تململن من هذه الحياة الجديدة، وطلبن الرغد والنعومة، وتجمعن ليسألن الرسول ﷺ مزيدًا من النفقـة، تتزعمهن عائشة بنت أبي بكر الصديق وحفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

رفض النبي ﷺ الاستجابة لرغبات نسائه في توسيع النفقة، وقرر مقاطعتهن حتى شاع بين الناس أنه طلق نساءه جملة.. وهجرهن شهرًا حتى يشعرن بما فعلن، ونزلت آيات التخيير من عند اللّـه تطلب إليهن جميعًا إما التجرد للدار الآخرة مع رسول هذه طريقته في حياته، وإما اللحاق بأهلهن حيث الملابس الحسنة والدور الفاخرة والمآكل الدسمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٢].

وكان هذا الدرس كافيًا ليمحو آخر ما في أنفسهن من رغبة لا تتجاوز المباحاة

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء مكتبة السعادة، القاهرة (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) (٢/ ٤١).
(٢) سورة الأحزاب: الآيتان ٢٨، ٢٩.

المشتهاة، فاخترن جميعًا البقاء مع رسول اللّـه ﷺ.

الحلقة السادسة:

هناك إغراء لا يكاد يُرى، ولكنه ينسرب في العروق فيشعل فيها النار التي لا تنطفئ إلا بتحقيق المطلوب.. لكن هذا الإغراء - على خفائه - يملك من الضغط النفسي على الشخصية البشرية ما لا يملكه - ربما - أي إغراء آخر على الإطلاق.. إنه إغراء الثأر الذي تمكّن الرسول ﷺ من مجابهته ببطولة نادرة!

في معركة أحد (٣هـ) حين احتدم القتال بين المسلمين والمشركين، راح حمزة عم النبي ﷺ يقطف رؤوس القرشيين واحدًا واحدًا، ويُحْدِثُ في صفوفهم خللًا واضطرابًا، وهو ينقض عليهم يمينًا وشمالًا، لولا أن كمن له وحشي (غلام جبير ابن مطعم) الذي يجيد الإصابة بحربته الحبشية، والذي كان قد وُعد من قِبل سيده أن ينال حريته إذا تمكّن من قتل حمزة.

ويحدثنا وحشي كيف قضى على العملاق فيقول: « هززت حربتي، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه، فوقعت أسفل من بطنه حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوي، فغلب فوقع، وأمهلته، حتى إذا مات جئت وأخذت حربتي، ثم تنحيت إلى العسكر، ولم تكن لي بشيء حاجة غيره ».

وخرج الرسول ﷺ بعد انتهاء المعركة يبحث عن جسد عمه، فوجده ببطن الوادي قد بُقرت بطنه، فقال: « **لولا أن تحزن صفية - شقيقة حمزة - وتكون سُنة من بعدي، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني اللّـه على قريش في موطن من المواطن لأمثّلن بثلاثين رجلًا منهم** »[1].

فلما رأى المسلمون حزن الرسول ﷺ وغيظه قالوا: واللّـه، لئن أظفرنا اللّـه بهم يومًا من الدهر لنمثّلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب!!

إلّا أن الآيات القرآنية تنزّلت بالقيم الثابتة التي تتجاوز مواقف الانفعال والآلام: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٥).

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(١).

فعفا الرسول ﷺ ونهى عن المثلة، ثم أمر بحمزة فسُجّي ببردة، ثم صلى عليه، ثم أمر بالقتلى يوضعون إلى جانب حمزة واحدًا واحدًا، فصلى عليهم وعليه، حتى أنه صلى عليه اثنتين وسبعين صلاة هي عدد القتلى من المسلمين.

وجاءت صفية بنت عبد المطلب، وقد سمعت بأن أخاها قد مُثِّل به فقالت: ما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء اللّـه.

في أعقاب فتح مكة (٨ هـ) يعلّمنا رسول اللّـه ﷺ درسًا آخر في مجابهة إغراء الثأر.. ها هم المكيون الذين طاردوه وعذبوه وأصحابه وتآمروا على قتله وسعوا إلى تدمير دولته في المدينة.. يتجمعون عند باب الكعبة خائفين مرتجفين من أن ينزل فيهم رسول اللّـه ﷺ غضبه ويكيل لهم الصاع صاعين، ويثأر لنفسه وأصحابه ودينه.. فيسألهم: « **يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟** ».. أجابوه بصوت واحد: « خيرًا، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم »، فقال: « **اذهبوا فأنتم الطلقاء** »(٢).

لحظة مؤثرة أخرى من لحظات التفوّق على إغراء الثأر الذي لا يقاوم.. وما أكثر مواقف ولحظات التفوق في حياة الرسول ﷺ.

الحلقة السابعة:

إغراء البطولة نفسها يتطلب بطولة من نوع خاصٍّ.. قدرة مدهشة على تجاوز الادعاء والغرور، لا يتمكن من الإمساك برقابها إلا الأنبياء والشهداء والقدّيسون.. تعالوا لننظر كيف جابه الرسول المعلم ﷺ هذا الإغراء الذي لا يقاوم وتمكن من كسره.

الطواغيت تسكرهم لحظة الانتصار وتصعّر خدودهم للناس.. بل إنها - أحيانًا - تفقدهم التوازن..

هتلر لحظة سماعه نبأ دخول قواته باريس راح، يرقص رغم ما عرف عنه من

(١) سورة النحل: الآيتان: ١٢٦، ١٢٧.

(٢) البيهقي: السنن الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) (١٨٢٧٥).

وقار وجبروت..

نابليون بونابرت عندما انتصر على خصومه الألمان في معركة ينّا عام (١٨٠٧م) ودخل برلين فاتحًا.. وهو يمتطي صهوة حصانه الأشهب، دفع بصدره إلى الأمام وصعّر خدّه ورفع جبهته إلى فوق.. كأنه يريد أن يقول: ها أنا ذا البطل العظيم الذي سحق أعتى خصومه وألحق بالعسكرية الألمانية التي لا تقهر هزيمة ساحقة.. كان يرافقه يومذاك - ولحسن الحظ - رسام (بورتريت) فرنسي، فصوره لحظة دخوله تلك.. ولا تزال الصورة معروضة في متحف اللوفر بباريس..

كيف كان دخول رسول اللّـه ﷺ مكة فاتحًا بعد أن انتصر على أعتى خصومه وأشدهم مراسًا: قريش التي لم تأل جهدًا في اعتماد أي أسلوب للقضاء عليه وسحق دعوته..

تحدثنا كتب التواريخ كيف أنه كان يمتطي لدى دخول مكة ناقته القصواء ومن ورائه جيوش المسلمين.. وكيف أنه طأطأ رأسه الشريف وظل يطأطئها حتى مسّت لحيته ظهر الناقة خجلًا من اللّـه ﷻ الذي منحه هذا النصر، واعترافًا بفضله عليه.. وتواضعًا لجلاله ﷻ..

لم يحاول - وحاشاه - أن يرفع جبهته عاليًا؛ لأنه ما خطر على باله لحظة أن يقول لجماهير الناس من حوله: انظروا إليّ ها أنا ذا الفاتح العظيم..

إنه الفارق الكبير بين طواغيت الأرض وبين الأنبياء والقدّيسين.. بين بونابرت وهتلر، وبين الرسول المعلم - عليه أفضل الصلاة والسلام -.

وبموازاة إغراء البطولة وادّعاء العظمة، هنالك إغراء لا يقل عنه ضغطًا على النفس البشرية وسوقها في الاتجاه الذي يريد.. إنه إغراء التفرّد والقداسة الذي أسر آلاف الزعماء والطواغيت والأدعياء.. ولكنه مع رسول اللّـه ﷺ يتراجع صاغرًا مخليًا الطريق للنبي الإنسان الذي رفض حتى اللحظة الأخيرة أن يستعلي على جماهير أمته بأي معيار من المعايير، رغم أن كل الظروف والمعطيات كانت ترفعه إلى سماوات التفرّد والقداسة.

كان يقول: « **إني أتزوج النساء، وآكل اللحم، وأنام وأقوم، وأصوم وأفطر،**

فمن رغب عن سنّتي فليس مني »[١].. وناداه رجل: يا سيدنا وابن سيدنا، فقال: **« لا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد اللَّه، عبد اللَّه ورسوله، واللَّه ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي »**[٢].

وكان أصحابه إذا رأوْه قادمًا عليهم لم يقوموا له، وهو أحب الناس إليهم، لما يعرفون من كراهيته لقيامهم. وكان يكره أن يمشي أصحابه وراءه، ويأخذ بيد مَنْ يفعل فيدفعه إلى السير بجانبه.. رآه رجل فارتعد، فقال: **« هوِّن عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد »**[٣].

ما كان يُغلق دونه الأبواب، ولا يُغدى عليه بأواني الطعام، وكان مَنْ أراد مقابلته يقابله..

ثمةَ - أخيرًا - حادثة كسوف الشمس يوم تشييع ابنه إبراهيم.. ظن بعض المشيعين أنها انكسفت حزنًا على وفاة ابن رسول اللَّه ﷺ، وكان بمقدور رسول اللَّه ﷺ أن يصمت كي يوحي لأصحابه بأن الظواهر الكونية تقدّسه وتشاطره العزاء.. ولكنه ردّ بالحزم الذي يستهدف إزالة أية شبهة في هذا الاتجاه: **« إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه، وإنهما لا تنكسفان لموت أحد من الناس »**[٤]!.. صلى اللَّه عليه وسلم..

الحلقة الثامنة:

ثمة أخيرًا - وليس آخرًا - إغراء التعصب الذي ساق آلاف الناس إلى حيث يريد شيطانه المريد الذي ينسرب في العروق فيشعل فيها إغواء التعصّب، فلا تكفُّ ولا تهدأُ حتى تمضي إلى النهايات المعتمة التي يريدها الشيطان ويأباها اللَّه ﷻ على رسله وأنصاره.

الشواهد على قدرة رسول اللَّه ﷺ على مجابهة إغراء التعصب كثيرة ومزدحمة، ولكننا سنكتفي بالإشارة إلى بعضها فحسب بقدر ما يسمح به المجال.

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.
(٣) الطبراني: المعجم الأوسط، دار الحرمين، القاهرة (١٢٦٠).
(٤) أخرجه البخاري (١٠٤١)، ومسلم (٩٠٤) واللفظ له.

في أعقاب فتح خيبر (سنة ٧هـ) وضع الفاتحون أيديهم على ملفات من أسفار التوراة المسماة بالعهد القديم.. جاؤوا بها إلى رسول اللّـه ﷺ.. كان بمقدوره وهو المنتصر على فئة من الخصوم ما وجدت فرصة مشروعة أو غير مشروعة إلّا سخرتها لتدمير الإسلام والمسلمين، والقضاء على رسولهم ودولتهم، أن يأمر بإحراق هذه الملفات، لكنه أسرع فأمر بإعادتها إلى اليهود دون أن يمسّها بأذًى.

إسرائيل ولفنسون، الباحث اليهودي المصري، يشير في رسالة للماجستير عن تاريخ العلاقات اليهودية الإسلامية في جزيرة العرب، إلى هذه الواقعة بإعجاب، ويقول: إن اليهود لا يزالون يشيرون بتقدير وإعجاب إلى سماحة نبي الإسلام وتفوّقه على كل إغراءات التعصب فيما لم تفعله المسيحية في تاريخها كله وهي تكتسح خصومها.

نقارن هذا بما فعلته محاكم التحقيق والكنيسة الكاثوليكية في الساحة الأندلسية مع التراث الإسلامي في زمن انتصار فرديناند وإيزابيلا وسقوط غرناطة، آخر المواقع الإسلامية هناك.. لقد كانوا يصدرون أوامرهم بجمع هذا التراث في شتى حقول المعرفة، ويركمونه أكداسًا في الساحات العامة في غرناطة لكي يشعلوا فيه النار قبالة جماهير المسيحيين التي كانت تُستدعى لمشاهدة ما أسموه (أعمال الإيمان)!

وفي خيبر نفسها عامل الرسول ﷺ يهودها بسماحة بالغة؛ إذ سألوه أن يجليهم عن المنطقة وأن يحقن دماءهم، فأجابهم إلى طلبهم، فلما نزلوا عرضوا عليه أن يبقيهم في أرضهم لقاء أن يدفعوا للمسلمين نصف حاصلاتهم، فوافق على العرض تقديرًا منه لإمكاناتهم الزراعية.. والشيء نفسه فعله مع يهود فدك ووادي القرى وتيماء. كما أعطى ليهود بني جنبة وبني غاديًا وبني عريض عهودًا تمثل الغاية في النبل والسماحة، وكتب لأهل جرباء وأذرح من اليهود: « أنهم آمنون بأمان اللّـه وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، واللّـه كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين ».

ولقد ظل اليهود بعدئذ كمواطنين يمارسون حقوقهم الدينية والمدنية في إطار الدولة الإسلامية، لا يمسّهم أحد بسوء، بل إن بعضهم عاد إلى المدينة، وفي اليمن أوصى الرسول ﷺ عامله هناك معاذ بن جبل بألا يفتن اليهود عن يهوديتهم، وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين الذين لم يُكَلَّفوا إلَّا بدفع الجزية وبقوا متمسكين بدين آبائهم.

* * *
* *
*

التاريخ والصراع الحضاري

- قيمة التاريخ.
- الأدب والتاريخ والصراع الحضاري.
- تأملات في ظاهرة الفتوحات الإسلامية.
- الكرد في ظلال التاريخ الإسلامي.
- نشوء الحضارات ونموّها في المنظور القرآني.
- سقوط الدول والحضارات في المنظور القرآني.
- ملاحظات حول منهجي التاريخي.
- ملاحظات حول المفردات المنهجية لمرحلة البكالوريوس في قسم التاريخ.

قيمة التاريخ

إنها لفرصة طيبة أن يتمّ الحديث عن قيمة التاريخ بعد الجفوة والإهمال اللذين تعرّض لهما عبر العقود الأخيرة من قبل العديد من المعنيين بالهم الإسلامي.

في ختام سورة يوسف نقرأ هذه الآية: بسم اللّـه الرحمن الرحيم ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1]. فها نحن إذن قبالة التعامل مع التاريخ بكل ما ينطوي عليه هذا الفرع المعرفي من شروط، فالسرد التاريخي في المنظور القرآني يستهدف البحث عن العبرة؛ أي الجوهر والمغزى، وهو خطابٌ موجّهٌ لذوي البصيرة القادرين على سبْر هذا المغزى والإفادة منه في واقع حياتهم والتخطيط لمستقبلهم، وليس لذوي المصالح والتحزّبات والأهواء، وهو أيضًا حديث يحمل مصداقيته المطلقة المنبثقة عن علم اللّـه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي وسع كل شيء علمًا، فهو - إذن - ليس رجمًا بالغيب، كما أنه ليس أهواءً وظنونًا كما هو الحال في العديد من الأعمال التاريخية.

فإذا مضينا لمطالعة القرآن الكريم كلّه فإننا سنجد كتاب اللّـه يخصص مساحات واسعة، قد تزيد عن نصف القرآن، للخبر المتحقّق في الماضـي؛ أي للتاريخ. إن قصص الأنبياء والشهـداء والقدّيسين.. أخبار الأمم والشعـوب والجمـاعات والقرى.. حلقات الصراع الطويل بين الحق والباطل.. كلّها في نهاية الأمر عروض تاريخية تغذّي هذا الفرع المعرفي بالمزيد من الإضاءات والمفردات.

والتعامل القرآني مع التاريخ يأخذ - أيها الإخوة - صيغًا مختلفة تتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصي لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الإنسان في الزمن والمكان؛ أي في التاريخ. فإذا ما أضفنا إلى هذا وذاك تلك الآيات والمقاطع القرآنية التي يحدثنا عنها المفسّرون في موضوع (أسباب النزول) والتي جاءت

---

(١) سورة يوسف: الآية ١١١.

في أعقاب عدد مزدحم من أحداث السيرة لكي تعلّق وتفنّد وتلامس وتبني وتوجّه وتصوغ، استطعنا أن نتبيّن أكثر فأكثر أبعاد المساحات الكبيرة التي منحها القرآن الكريم للتاريخ.

إن جانبًا كبيرًا من سور القرآن وآياته البيّنات ينصبّ على إخطار البشرية بالنذير الإلهي وينبثق عن رؤية وتفحّص التاريخ، وإن أشدّ نداءات المفكرين المعاصرين عمقًا وتأثيرًا تلك التي تُحدثنا عما يحيط بالمسيرة البشرية في حاضرها ومستقبلها من أوضاع وما تتطلبه من شروط وتنبثق هي الأخرى عن رؤية التاريخ. وأنتم إذا نظرتم إلى التجارب الأوربية المتلاحقة في عالمي الفكر والحياة لرأيتموها تمدّ جذورَها إلى أعماق التاريخ باحثةً عن المبررات والحجج والأسانيد، متطلعةً إلى الصيغة الأكثر انسجامًا مع مطالب المسيرة البشرية صوب المستقبل، وليست تجارب الثورات الفرنسية، والعسكريات الألمانية، والاشتراكيات الطوباوية والماركسية، والنظام العالمي الجديد الأكثر حداثةً، إلّا شواهد فحسب على مدى الارتباط بين الفكر والتجربة المعاصرتين وبين الرؤية التاريخية.

وأنتم تلحظون عبر تعاملكم مع كتاب اللّه كيف تتهاوى الجدران بين الماضي والحاضر والمستقبل.. كيف يلتقي زمن الأرض وزمن السماء.. قصة الخليقة ويوم الحساب عند اللحظة الراهنة؛ حيث تصير حركة التاريخ - التي يتسع لها الكون - حركةً متوحّدة لا ينفصل فيها زمن عن زمن ولا مكان عن مكان، وحيث تغدو السنن والنواميس المفاتيح التي لا بدّ منها لفهم تدفّق الحياة والوجود، وتشكّل المصائر والمقدّرات.

ولكمْ أن تتصوّروا - أيها الإخوة الأحبة - بعد هذا كلّه، القيمة البالغة التي أوْلاها كتابُ اللّه وسنة رسوله ﷺ، لأحداث الماضي ذات الدلالة.. أي للتاريخ.

والاهتمام بالتاريخ يجب ألّا ينصرف - فقط - إلى المهمات الدراسية الصرفة والحصول على شهادة التخصّص أو ضمان وظيفة ما، كما حدث ويحدث عبر العقود الأخيرة. كما أنه ليس مجرد فرصةٍ يمنحها الإنسان نفسه للحصول على المتعة، أو تزجية أوقات الفراغ كما يتوهم الكثيرون، فضلًا عن أن الاهتمام بالتاريخ

ليس مجرد محاولةٍ للتعلّق بأمجاد الماضي وإغفال تحدّيات الحاضر ومطالب المستقبل، أو الـهروب منهما بعبارة أخرى. ولقد كانت هذه الخطيئة تـمارس للأسف الشديد وعلى نطاق واسع زمن الصدمة الاستعمارية، فكان المسلم يدير ظهره للمجابهة المفروضة عليه، وييمّم وجهه صوب أمجاد الماضي وأنوارٍ يتغنّى بها ويسدّ في نفسه نقصًا لم يكن له أي فضلٍ في ملئه.

ليس التاريخ - أيها الإخوة الأحبة - هذا وذاك، وإنما هو إذا أردنا التعامل الجاد مع معطياته: محاولة للبحث عن الذات، للعثور على هويتنا الضائعة في هذا العالم.. للتجذّر في الخصائص وتعميق الملامح والخصوصيات ذات البُعد الزمني. إنه - بشكل من الأشكال - محاولةٌ لوضع اليد على نقاط التألّق والمعطيات الإنسانية، والرصيد الحضاري من أجل استعادة الثقة بالذات في لحظات الصراع الحضاري الراهن التي تتطلب ثقلًا نوعيًّا للأمم والشعوب وهي تجد نفسها قبالة مدنية الغرب الغالبة.. إزاء حالة من تخلخل الضغط وضياع التوازن الجوّي الذي يسحب إلى المناطق المنخفضة رياح التشريق والتغريب وأعاصيرها المدمّرة.

ورغم هذا كلّه، فإننا نجد معظم طلبة التاريخ في جامعاتنا يعانون للأسف الشديد من عقدة الإحساس بالنقص إزاء الفروع والتخصّصات الأخرى، بينما نجد هؤلاء الطلبة في جامعات العالم المتقدّم يتمتعون بأعلى وتائر الثقة والطموح والاعتقاد بأنهم يمضون للتخصّص في واحد من أكثر فروع المعرفة الإنسانية أهميةً وفاعلية. وأنتم تعرفون جيدًا كيف أن العديد من قادة الغرب وساسته ومفكريه والمهيمنين على مفاصل الحياة الحساسة هم من خريجي التاريخ، كما أن بعضَكم لا يزال يتذكر تلك المناظرة التي جرت بين المؤرخ البريطاني المعروف أرنولد توينبي وسفير إسرائيل في كندا، في خمسينيات هذا القرن.

ادّعى السفير المذكور حقًّا تاريخيًّا لليهود في فلسطين، وأعرب عن استعداده لتأكيد رأيه لكل مَنْ يرغب في مناقشته، فتصدّى له توينبي ودخل معه في حوار استغرق أكثر من ثلاث ساعات، انتهى بتفنيد حجج السفير الواحدة تلو الأخرى.. وفي الحالتين، فإن الخبرة التاريخية هي التي دفعت السفير إلى تحدّيه وجعلت

توينبي يستجيب له وهو يعرف مسبقًا أنه يملك الأداة.

لقد أطلق أجدادنا على التاريخ اسم (أبي العلوم)، وهم يدركون جيدًا أن المعرفة التاريخية تستلزم إلمامًا بمعظم المعارف الإنسانية الأخرى؛ لأن التاريخ إنما هو حركة حياة بكل ما تنطوي عليه الحياة من معارف وخبرات.

ومنذ عقود بعيدة في الزمن مارس الآباء في ديارنا خطيئة عدم تنبيه أبنائهم إلى أهمية المعرفة التاريخية، بل إنهم عمّقوا في نفوسهم نظرة الازدراء إلى التاريخ، وإلى معظم الفروع الإنسانية الأخرى، من أجل أن يدفعوا بهم صوب الفروع العلمية الصرفة التي كانوا يعتقدون أنها تقدم ضمانات أكثر في المستقبل على المستوى المعيشي، ومكانةً اجتماعية أعلى.

ونحن لا نتّجه في محاضرة كهذه إلى المسلمين عمومًا، فإن لهم أن يفعلوا ما يشاؤون مع أبنائهم، ولكننا نتوجّه بالخطاب إلى الإسلاميين الذين يتحتّم أن يولوا المعرفة الإنسانية - والتاريخية خاصةً - اهتمامًا أكبر، ويغروا أبناءهم بالإفادة من الفرصة الجامعية للتحقّق بها من أجل أن يكون هناك عدد كافٍ من المتخصّصين في هذا الفرع قدير على مجابهة التحديات الثقافية ذات البطانة والخلفيات التاريخية.

لقد كتب المؤرخ الفرنسي المعروف هنري كروسّيه منذ ما يزيد عن نصف القرن كتابه الموسوم (رصيد التاريخ) محاولًا فيه أن يمارس قراءة متأنّية للتاريخ الأوربي (المسيحي)، وأن يمضي إلى ما وراء الوقائع والأحداث بحثًا عن الجوهر والمغزى. وكم نحن بحاجة إلى محاولات كهذه تمضي للتعامل مع تاريخنا بحثًا عن رصيده الباقي، القدير على الحضور في قلب العصر، وفي المستقبل، من أجل إعادة صياغته بما يجعله أقرب إلى مطامح الإنسان وهمومه من خلال التصوّر العالي والمحكم الذي جاء به هذا الدين.

إن التاريخ ليس - كما يخيّل للكثيرين - مجرد حروب ومعاهدات، أو سلالات حاكمة تسقط وأخرى تقوم.. إنه قبل هذا وبعده خبرة حضارية، ومشروع للتعامل مع الإنسان، وفرصةٌ لاختبار قدرة العقائد والأديان على التحقّق في الزمن والمكان، وعلى تأكيد واقعيتها ومصداقيّتها.

وتاريخنا بالذات يتميز بكونه انعكاسًا أكثر صدقًا لتأثيرات الإسلام؛ لقدرة هذا الدين على إعادة صياغة العقل والوجدان، وجدْولة الظواهر والوقائع والأشياء بما يضعها جميعًا في حالة الوفاق المنشود الذي هو أحد الأهداف الأساسية لهذا الدين الذي يستهدف جعل الإنسان والعالم يتّجهان بنبضهما وحركتهما ومعطياتهما كافة إلى اللّـه وحده.

إن الدراسة التاريخية - والحالة هذه - تغدو ضرورة من الضرورات؛ لأن العقيدة لا تتحركُ في الفراغ ولا بدّ لها من فضاء تتشكل فيه وتعبّر عن قدرتها على التحقّق؛ حيث يصير التاريخ المرآة التي تعكس الحالة الإسلامية بدرجةٍ أو أخرى على صفحة العالم.

والآن.. أيـها الإخـوة، فإننا نريد أن نمضـي إلى الجانـب الآخر من هـذه المحاضرة - وبالقدر الذي يسمح به الوقت - لمتابعة البعد الحضاري لتاريخنا، أو بعبارة أدق: البحث عن الخصائص الإنسانية لهذه الحضارة، تلك الخصائص التي نسجها هذا الدين والتي تمنح المبرّر والدافع لاستعادة المحاولة من أجل أن تنهض حضارة الإسلام كرةً أخرى ما دامت تحمل هذا القدر من الخصب والعطاء في تعاملها مع الإنسان.

إن هذه الاستعادة - إذا أردنا الحق - تصبح - فضلًا عن كونها ضرورةً عقدية - ضرورة إنسانية للمشروع الحضاري البديل الذي يصوغه الإسلاميون اليوم، لا سيما ونحن نرى الإنسان في المدنية المادية المعاصرة يكاد يختنق ويضيع، وهو يتلقّى يومًا بعد يوم ضغوطًا ودفوعًا تبعد به أكثر فأكثر عن إنسانيته.. تنزاح به بعيدًا عن سويّته، فيشعر في لحظات الوعي أنه بأمسّ الحاجة إلى استعادة وضعه البشري.. إن التاريخ المعاصر هو تاريخ تفوّق التكنولوجيا الغربية.. تفوّق الخدمات والتخطيط والنظم المادية، لكنه زمن هزيمة الإنسان وانحساره وتضاؤله إزاء نفسه وإزاء مجتمعه وإزاء اللّـه.. وإن طلائع الفكر الغربي طالما تحدّثوا عن هذا، وليس ثمة في هذه المحاضرة متسع للوقوف عند أقوالهم واستنتاجاتهم، ويكفي أن نشير إلى بعض الأسماء فلعلنا نرجع إليها في محاضرةٍ أخرى: أرنولد

توينبي، مارسيل بوازار، كولن ولسون، برنارد شو، اشبنغلر، إريك فروم، سيكريد هونكه، لورا فاغليري، دوبّو، ليوبولد فايس، روجيه جارودي، موريس بوكاي.. ثم المفكرون الأكثر حداثةً: سيشير، أرنالديز، جامبي، نائير.. وغيرهم.

مهما يكن من أمر، فإننا سنؤشّر مجرد تأشير على نقاط الارتكاز أو الخصائص الأساسية لحضارتنا في تعاملها مع الإنسان والعالم.. وبعدها سنقف - بقدر ما يسمح به الوقت - عند واحدةٍ منها فحسب.

فهناك - أوّلًا - ظاهرة الفتوحات كحركة تحريرية رفعت شعار الانطلاق إلى العالم لإخراج الإنسان من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة اللّـه وحده.. هذه الحركة التي حملت قدرتها على الاستمرار على مدى قرون طويلة، وتمكنت من التجذّر في كل مكان وصلت إليه لكي تتفوّق - فيما عدا حالات استثنائية لا يقاس عليها - على كل صيغ التآكل والانكماش والفناء التي تعرّضت لها سائر محاولات الانتشار والسيطرة في التاريخ البشري، فأين هي الآن - على سبيل المثال - فتوحات هانيبال وسنحاريب وقمبيز والإسكندر المقدوني ويوليوس قيصر وأتيلا وجنكيز خان وهولاكو؟ وأين هو توسّع نابليون بونابرت وهتلر وموسوليني؟ أين هي الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس؟ وأين هي مستعمرات فرنسا وراياتها الممتدة على قارّات الدنيا؟ وأين هي ممتلكات إسبانيا والبرتغال؟ ثم أين هو الاتحاد السوفياتي الذي كان يحلم تحت مظلة قوانين الحركة التاريخية وحتمياتها بحكم العالم؟ لقد تآكلت كلها وتعرّضت - طال الوقت أم قصر - للتفتّت والانكماش والغياب، والذي يبقى هو الفتح الذي نفّذه هذا الدين؛ لأنه كان ينطوي على كلمة اللّـه في العالم، ويستهدف تحرير الإنسان من كل صيغ الطاغوت والصنمية والاستلاب.

هنالك ظاهرة التعامل مع (الآخر) التي تمثل الوجه الآخر لمسألة الفتح، والتي سنخصّص للوقوف عندها ما تبقى من وقت؛ لأنها تمسّ القضايا الأكثر أهميةً في اللحظات الراهنة فيما يُسمى بالنظام العالمي الجديد أو الموحّد، وإشكالية حقوق الإنسان. ولكن ليس قبل أن نمضي للتأشير على بعض الملامح والمعطيات

الأخرى للبعد الإنساني في تاريخنا الحضاري.

هنالك ما يمكن تسميته بالأممية الإسلامية التي شهدها هذا التاريخ.. لقد مُنحت كل الشعوب والجماعات التي انضوت تحت مظلة هذا الدين فرصتها في الحياة والتحقّق والتعبير عن الذات.. لقد كانت فرصةً مفتوحة بمعنى الكلمة سمحت حتى للعبيد والمماليك أن يواصلوا الصعود إلى فوق ويشكلوا دولًا؛ بل إنها مضت لكي تمنح غير المسلمين في بلاد الإسلام حقّهم المشروع في المجالين المدني والديني على السواء، فليس ثمة يهودي أو مسيحي أو مجوسي أو بوذي أو صابئي لم يجد الطريق مفتوحًا أمامه للتعبير عن ذاته وقدراته ولممارسة حريته الدينية، ولأخذ موضعه المناسب في نسيج الحياة الاجتماعية أو دوائر الحكم والمال.

إن هذه الأمميةَ انفتحت على سائر صيغ التعدّدية العرقية والدينية والمذهبية واللونية والطبقية، فلـم تبنِ إزاء أيٍّ مـنها سـدًّا أو تحول بينها وبين الصعود، وهي أممية تختلف في أساسها عن الأممية الماركسية التي سعت - ابتداءً - وبحكم قوانين التنظير الصارمة إلى إلغاء التنوع، ومصادرته، وإلى تحقيق وحدة قسرية ما لبثت أن تأكّد زيفها وعدم القدرة على تنفيذها تاريخيًّا.

وبمجرد إلقاء نظرة على خارطة الاتحاد السوفياتي حتى قبل حركة البريستوريكا والرفض المتصاعد الذي جوبهت به الأممية الماركسية من قبل حشود الأقوام والشعوب التي تنتمي إلى أصول وبيئات متنوعة، ومقارنة هذا بما شهده التاريخ الإسلامي من تبلور كيانات إقليمية متغايرة في إطار وحدة عالم الإسلام وثوابته وأهدافه المشتركة، يتبيّن مدى مصداقية المعالجة الإسلامية لهذه المعضلة.

ثم إن تاريخنا الحضاري - أيها الإخوة - صاغ نمطًا من المجتمعات لم تشهده ولن تشهده سائر التجارب الاجتماعية الأخرى في الماضي والحاضر.. وليس هذا كلامًا يقال، وإنما هو أمرٌ متحقّق بحكم الشواهد الرقمية والإحصائية التي لا تقبل مماحكة ولا جدلًا، فإن المجتمعات الإسلامية ظلّت حتى في لحظات الانكسارات السياسية والعسكرية والحضارية، أقل المجتمعات إدمانًا للمخدرات، وتعاطيًا للحشيش والأفيون وسائر المغيّبات الأخرى.. أقل المجتمعات شذوذًا جنسيًا،

وهروبًا جماعيًّا، ودمارًا أُسريًّا، وإقبالًا على الانتحار.. أقلّها تبذّلًا وتهتكًا واغتصابًا.. أقلّها في معدلات الجريمة على مستويي النوع والكم، وأقلّها كذلك في رؤيتها التشاؤمية للحياة وفي منظورها العبثي للوجود والذي يصل أحيانًا حدّ رفض كل الثوابت والمؤسسات الحضارية والروحية والاجتماعية والدينية في تاريخ الإنسان.

ثم هي حضارة تعكس موقفًا إيمانيًا توحيديًّا من الكون والعالم والإنسان على المستويين المعرفي والسلوكي، كما أنها تنطوي على أقصى حالات التوازن بين الثنائيات التي اصطرعت وتقاتلت في معظم التجارب الاجتماعية والحضارية الأخرى، والتقت وتصالحت هاهنا في حضارة الإسلام: الوحي والوجود.. الإيمان والعقل.. الظاهر والباطن.. الحضور والغياب.. المادة والروح.. القدر والاختيار.. الضرورة والجمال.. الطبيعة وما وراءها.. التراب والحركة.. المنفعة والقيمة.. الفردية والجماعية.. العدل والحرية.. اليقين والتجريب.. الوحدة والتنوع.. الإشباع والتزهّد.. المتعة والانضباط.. الثبات والتطور.. الدنيا والآخرة.. الأرض والسماء.. والفناء والخلود..

وهو تاريخ مترع بالإبداع الحضاري.. بالعمل المتواصل والإصرار على الكشف والترّقي والإتقان تحت مظلّة الحديث النبوي الشريف: « **إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألَّا تقوم حتى يغرسها فليغرسها، فله بذلك أجر** »[١]، والحديث الشريف: « **إن اللّه يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه** »[٢]، ومنظومة الآيات القرآنية المعنية باستخلاف الإنسان في الأرض وتسخير العالم لمطالبه وقدراته ودعوته المؤكدة لإعمار الدنيا: ﴿ .. هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ﴾[٣].. الأمر الذي قاد هذه الحضارةَ إلى إيجاد تقاليد المختبر ووضع الأسس الأولى للعلم الصناعي (التكنولوجيا).

وبسبب من ارتباط هذا الإنجاز الحضاري بالمنظور الديني للمسلم، فإنه حاول

---

(١) ذكره علي بن عبد العزيز في المنتخب بإسناد حسن عن أنس ﷺ: (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري) لبدر الدين العيني: باب الحرث والزراعة.

(٢) الطبراني: المعجم الأوسط (٨٩٧).

(٣) سورة هود: الآية ٦١.

بإخلاص أن يوظّف خبرته وكشوفه للإنسان أيًا كان موقعه.. لقد رفض الأنانية والاحتكار المعرفي الذي مارسه الغربيون - ولا يزالون - تأسّيًا بأجدادهم اليونان ورموزهم الميثولوجية، وفتح صدره وعقله وأبوابه ومؤسساته وجامعاته لطالبي العلم والمعرفة من كل ملّة أو بيئة أو دين، تشهد على ذلك الجامعات الأندلسية في قرطبة وغرناطة وإشبيلية مع المبتعثين من رجال الكنيسة النصرانية.. كما تشهد عليه المعونة المعروفة التي قدّمها الملاح العربي الشهير أحمد بن ماجد للمكتشف البرتغالي فاسكو دي جاما وهو يضرب في البحار والخلجان ضائعًا، يبحث عن طريق للوصول إلى الهند.

وأعتقد - أيها الإخوة - أن هذه التأشيرات تكفي، خاصةً وأنني أفضت في الحديث عنها عبر محاضرة سابقة.

وأريد الآن أن أقف دقائق عند قضية التعامل مع الآخر التي تشكل اليوم - كما تشهد التجربة البوسنوية وغيرها - واحدةً من المعضلات الأكثر حضورًا في اللحظات الراهنة.

سأختار لكم واقعة فحسب من عصر النبوة وأخرى من عصر الراشدين، وثلاث وقائع من عصر الحروب الصليبية، وأعتقد أن هذا يكفي حيث لا يسمح الوقت بالاستقصاء.

في أعقاب فتح خيبر من العام السابع للهجرة وضع الفاتحون أيديهم على ملفّات من أسفار العهد القديم.. جاؤوا بها إلى رسول اللّـه ﷺ.. كان بمقدوره - وهو المنتصر على فئة من الخصوم ما وَجَدَتْ فرصةً مشروعة أو غير مشروعة إلَّا سخَّرَتْهَا لتدمير الإسلام والمسلمين، والقضاء على رسولهم ودولتهم - أن يرد الكيد اليهودي .. لكنه ﷺ ما لبث أن أعاد إلى اليهود أسفارهم دون أن يمسّها بأذًى.

إسرائيل ولفنسون، الباحث اليهودي المصري، يشير في رسالة للماجستير عن تاريخ العلاقات اليهودية الإسلامية في جزيرة العرب إلى هذه الواقعة بإعجاب، ويقول: إن اليهود لا يزالون يشيرون بالبنان إلى سماحة نبي الإسلام وتفوّقه على كل إغراءات التعصّب فيما لم تفعله النصرانية في تاريخها كلّه وهي تكتسح خصومها.

نقارن هذا - أيها الإخوة - بما فعلته محاكم التحقيق والكنيسة الكاثوليكية في الساحة الأندلسية إزاء التراث الإسلامي زمن انتصار فرديناند وإيزابيلا وسقوط غرناطة، آخر المواقع الإسلامية هناك.. لقد كانوا يصدرون أوامرهم بجمع هذا التراث، دينيًّا أو غير ديني، ويركمونه أكداسًا في الساحات العامة في قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة؛ لكي يشعلوا فيه النار قبالة جماهير المسيحيين التي كانت تُستدعى لمشاهدة ذلك.

وثمة إحصائية تشير إلى أنه لم يتبق من هذا التراث الذي بلغ ما يقرب من ثمانمائة ألف سفر، سوى ثمانية آلاف وضعت في أقبية الأسكوريـال في مدريد، وهناك لاحقتها النار فأُحرقت منها ستة آلاف أخرى، ولم يتبق اليوم سوى ألفيْ مخطوط من ذلك التراث الخصب الذي غطى سائر فروع المعرفة الإنسانية والعلمية.

واليوم.. فإن الباحثين الإسبان يعضّون أصابع الندم على ما فعله الأجداد، ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن ضيّع الأجداد على أنفسهم باندفاعة التعصّب الأعمى فرصة الإفادة من هذا التراث وأخذ زمام المبادرة في حركة التقدم العلمي والتطبيقي قبل الإنكليز والفرنسيين والألمان.

في عصر الراشدين ﷺ كانت قوات الفتح تنطلق إلى جبهات القتال وهي تحمل أوامر صارمة من خليفة رسول اللّـه ﷺ بألّا تغدر أو تحرق أو تخرّب، وبأنها ستمرّ على رهبان قد انعزلوا في صوامعهم فلا تروّعهم أو تعتدي عليهم.. أوامر حذّرتها من قتل المسالمين وإرهاب النساء والشيوخ والأطفال.. حذّرتها حتى من قطع الأشجار وإتلاف الزرع والضرع.. إنه قتال متحضّر بمعنى الكلمة.. قتال تضبطه قيم الديـن الآتـي من عنـد اللّـه، فلا ترفع السيف وهي تلاحق السلطات الباغية، قبالة كل الذين لم يمارسوا العدوان.. لقد جاء المسلمون لتحريرهم لا لقتلهم..

ونحن نجد في مقابل هذا التعامل الإنساني العادل والصارم تجاوزًا لكل الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية في الممارسات القتالية الغربية، فهي من أجل أن تحقّق الانتصار تبيح لنفسها كل أسلوب.. وكلّـكم تذكرون ما فعلته أمريكا باليابان بعد إذ أدركت قدرة الأخيرة واستعدادها لإدامة الحرب العالمية الثانية

لعدّة سنوات أخرى بسبب إمكاناتها القتالية والتكوين الأرخبيلي لمستعمراتها، فما كان من أمريكا إلَّا أن تضرب اثنتين من أكبر المدن اليابانية: هيروشيما وناكازاكي بقنبلتين ذرّيتين دونما أي تمييز بين مقاتل ومسالم.. بين رجل أو شيخ أو طفل أو امرأة.. ودونما أي اعتبار للمظاهر الحضارية.. وها هي بقايا أجيال المدينتين تئن حتى اللحظة الراهنة من آثار الضربة الموجعة تلك.. وما هو إلَّا شاهد من عشرات الشواهد في هذا السياق.

ومن عصر النبوة والخلافة الراشدة أجدني بسبب من ضغط الوقت مضطرًّا - أيها الإخوة - لتجاوز حلقات تاريخية مترعةً بالوقائع ذات الدلالة فيما نحن بصدده، **والوقوف قليلًا عند حلقة الحروب الصليبية**، ليس فقط لما تنطوي عليه من خبرات إنسانية خصبة؛ بل لأنها تمثل - في الوقت نفسه - واحدةً من أكثر حلقات الصراع بين الغرب والإسلام أهميةً وامتدادًا في التاريخ.

ثمة أشياء كثيرة واستنتاجات كثيفة يمكن أن تقال في هذا المجال، ولكني **سأقف عند وقائع ثلاث** فحسب قد تكفي بمنطق المقارَنة لتأكيد البُعد الإنساني السمح في التعامل مع الآخر، هذا البُعد الذي يستمد نسقه من كتاب اللّـه وتعاليم رسوله ﷺ وتقاليد الأجداد والآباء، والذي لا يقتصر على عصر دون عصرٍ ولا على بيئة دون أخرى:

كثيرون منكم يعرفون جيدًا كيف دخل الصليبيون الأوائل مدينة القدس الإسلامية سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة للهجرة في حملتهم الأولى التي قادها عدد من كبار الفرسان الفرنجة والنورمان.. لم يكن دخولًا، ولكنه مذبحة ذهب ضحيتها - باعتراف الروايات اللاتينية - سبعون ألفًا من المسلمين لم يكونوا في معظمهم من المقاتلين أو البالغين، بل كانوا شيوخًا وعجزة ونساءً وأطفالًا.. ويتحدث أحد فرسانهم وهو شاهد عيان على المذبحة، في وثيقة معروفة باسم الكشتا، كيف أن خيول المغيرين من الفرنجة كانت، وهي تجتاز دروب القدس، تغوص حتى ركبها بدماء المسلمين.

بعدها بحوالي التسعين عامًا أتيح للناصر صلاح الدين أن يدخل القدس محرِّرًا

في أعقاب معركة حطّين سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة للهجرة.. فماذا حدث؟ لم تسجّل المرويّات اللاتينية، فضلًا عن الغربية، قتل رجل واحد، ناهيكم عن النساء والشيوخ والأطفال.. تفوّق الناصر بقوة العقيدة ونبلها وسماحتها على نفسه وعلى ضغوط أصحابه المتعطّشين للثأر.. تفوّق على ذكريات مؤلمة مترعةٍ بالدم والوحشية والقتل، لكي يقف قبالة الأفق الفسيح الذي يليق بالإنسان وبقدرته على شكم غريزة القتل والثأر، والارتفاع عليها.

حتى ملك الفرنجة جاي دي لوزينيان وكبار أمرائه تلقّاهم الناصر في خيمته بالسماحة نفسها، وأطعمهم وسقاهم بيده، فيما عدا الصليبي المارق: ريجنالد شاتيون، الذي تسمّيه مصادرنا العربية (أرناط)، فإنه كان قد تجاوز كل معايير الإنسان، وهبط صوب درك الحقارة وهو يرسل فرسانه من قلعته في الكرك لكي تنقضّ على قوافل الحجاج والمسالمين فتفتك بها، ثم هو يمضي إلى أبعد من هذا فيقوم بمحاولة طائشة للهجوم على مكة والمدينة ونبش قبر رسول اللّـه ﷺ.. حينذاك أقسم الناصر أنه لو ظفر به فسوف يقتله بيده.. وقد نفّذ فعلًا ما عاهد اللّـه عليه.

ها نحن إذن قبالة ثنائية تحمل دلالتها الواضحة تمامًا: الصليبيون وهم يدخلون القدس ينفّذون مذبحتهم الدموية في أهليها دون أية جريرة ارتكبها هؤلاء سوى أنهم من المخالفين في الدين.. والناصر وهو يحرّر القدس يطلق سراح خصومه ويمنحهم الحرية المطلقة في الذهاب إلى حيث يشاؤون رغم أنهم كانوا قد ذبحوا شعبًا بكامله قبل تسعين سنة فحسب.. ما الذي تعنيه هذه المقابلة في تاريخ الصراع بين الإنسان الذي تصوغه العقيدة والوحش الذي يجعل من العقيدة نفسها مخالبَ وأظفارًا يمزّق بها أجساد الآخرين وأرواحهم؟

في القدس أيضًا، والناصر منهمك في إعادة ترتيب الأمور وسط ضجيج الانسحاب الجماعي الفرنجي غير المنظم من المدينة، تجيئه امرأة فرنجية تجثو عند قدميه وهي تنكث شعرها، فيسأل مترجمه: ما الذي تريده هذه؟ فيكون الجواب: إن طفلتها قد ضاعت وسط الجموع المضطربة، وأنها حاولت فلم تعثر لها على أثر.

وَعَدها الناصر، منتزعًا نفسه من نداء ألف مشكلة ومشكلة، بأنه سيبذل جهده لإعادة طفلتها الضائعة إليها، وخصّص لها خيمة ترتاح فيها، ووضع مَنْ يتولى خدمتها ريثما يتمّ المطلوب.. بعد ساعات يجيئون بالطفلة، فعندما تراها الأم لا تمسك نفسها من أن تجهش بالبكاء وتنقض على الناصر محاولةً أن تلثم يديه، فيسحبها بهدوء قائلًا للمترجم: قل لها: إن ديننا يلزمنا بأن نكون مسؤولين حتى عن البهائم والعجماوات، فكيف بطفلة ضائعة لأم منفطرة الكبد؟

لم يحاول الناصر لحظةً أن يستجيب لسيّال الذكريات المريرة وتداعيها.. وأن أبا هذه المرأة الثكلى وربما أخوها، كان قد شارك رفاقه الغزاة في مجزرة القدس التي ذُبح فيها سبعون ألف امرأة وشيخ وطفل.. وها هو ذا الناصر، رغم ضغط الذكرى المريرة، وزحمة المشاغل والأعمال، يتفرّغ للبحث عن طفلة ضائعة لأم كانت سكين أبيها أو أخيها لا تزال تسحّ بدماء نساء المسلمين وأطفالهم!

قارنوا هذا - أيها الإخوة - بما فعله الصربيّون وهم يدخلون المدن البوسنية منتصرين، فيذبحون في يوم واحد عرض خمسين ألف فتاة مسلمة..

الناصر يبذل جهده للبحث عن طفلة نصرانية ضائعة، والصربيّون المتحضّرون، المتمسّكون بدينهم، يغتالون شرف خمسين ألف فتاة في يوم واحد.. أية دلالة يعجز عنها الوصف تمنحنا إياها هذه الثنائية الدامية.. هذا التقابل بين الإسلام والنصرانية.. بين الناصر الذي تـخرّج من مدرسة رسول اللّـه ﷺ والصربيين الأرثوذوكس الذين خرجوا من معطف فرديناند وإيزابيلا الكاثوليكيين؟!

بعدها بسنوات قلائل جاءت الحملة الصليبية الثالثة يقودها هذه المرة ملك فرنسا فيليب أوغسطس وملك إنكلترا الملقب ريتشارد قلب الأسد.. جاءت لكي تثأر لحطّين وتسترد عكا بعد أن ارتاح الملكان وقواتهما في صقلية وقبرص أسابيع طوالًا..

كانت الحامية الإسلامية محاصرةً هناك منذ زمن طويل، وكان الناصر يرقب الوضع عبر التلال المحيطة، ويمدّ المدينة بين الحين والحين بما يمكّنها من مواصلة المقاومة.. وكان معظم جنده قد عادوا إلى ديارهم بسبب الإعياء والبرد،

والقتال المتواصل لسنوات طويلة.. وها هو الآن في قلّة من أصحابه، يتلقى عبء الحملة الصليبية ويديم أمد المقاومة شهورًا أخرى.. لكن الصراع لم يكن متكافئًا على أية حال، واضطرت حامية المدينة، بأمر من الناصر، على الاستسلام أخيرًا وتسليم عكا للصليبيين بعد اتفاقية نصّت على حقن دماء المسلمين. لكن ريتشارد ما أن دخل المدينة حتى أمر بالمقاتلين من أفراد الحامية فأوثقوا بالحبال ووضعوا قبالته صفوفًا.. كانوا أشباحًا اعتصرها الجوع والخوف والقتال المرير وانتظار المجهول.. وها هو ذا الملك الإنكليزي ينكث عهده، كما هو الشأن دائمًا في جلّ وعود الغربيين.. يضع قدمه على الكلمة التي أعطاها الناصر ويطلب من أصحابه أن يذبحوا جند الحامية الإسلامية جميعًا.. لم يحاول أن يريحهم ويقتلهم دفعةً واحدةً.. وإنما كان يتسلّى بذبحهم واحدًا واحدًا.. والناصر صلاح الدين ينظر من بعيد إلى جنده وهم يذبحون، فما يملك نفسَه من البكاء، ويقول له وزيره ومستشاره القاضي بهاء الدين بن شداد: إنّ بين يديك - أيها السلطان - ثلاثة آلاف أسير فرنجي، فافعل ما فعلوه هم.. اقتلهم.. والبادئ أظلم.. ويجيء رد السلطان لحظة تفوّق أخرى في تاريخ الإنسان الذي تصنعه العقيدة كما يريد اللّـه ورسوله لا كما يهوى الكهّان والوضّاعون: لا واللّـه يا بهاء الدين، لن أكون مثلهم!

ثمة أخيرًا - أيها الإخوة - ما يجب أن يقال في هذه الشواهد المقارنة.. إن السير توماس أرنولد، وهو باحث إنكليزي مسيحي، عكف أربعين سنةً على تأليف كتابه المعروف (الدعوة إلى الإسلام).. يتابع مفردات انتشار الإسلام وتعامله مع المغلوب على مدى ثلاثة عشر قرنًا ونصف: منذ لحظة انطلاق الإسلام الأولى أيام العمل السرّي، وحتى مشارف القرن العشرين، مستمدًّا مادته من أدق المصادر والوثائق التي تنبئ بها تهميشاته الغنية الخصبة. وهو يقول في كتابه هذا أشياء كثيرةً وكثيرةً جدًّا فيما نحن بصدده، ولكننا نكتفي باستنتاج واحد قد يكون كفاءَ القضية كلّها.. إنه يقول: إن تاريخ الدعوة الإسلامية لم يسجّل منذ لحظاتها الأولى وحتى زمن الانتهاء من تأليف الكتاب في الربع الأخير من القرن الماضي، حالةً واحدةً أُكْرِهَ فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام.

أيها الإخوة.. انتبهوا معي جيدًا.. إن هذا ليس كلامًا يقال.. وهي ليست شهادةً اعتيادية، ولكنها حصيلة استقراء في مئات المصادر وآلاف الوثائق المعنية بانتشار الإسلام، وهي تنطوي على بُعْد إنساني في تاريخ حرية الخيار الديني ما شهدته أمةٌ أخرى في العالم قديمًا وحديثًا، ولن تشهده بأية حال من الأحوال.

وهو يقول معقبًا على ذلك بأن استمرار وجود النصارى واليهود في ديار الإسلام عبر ثلاثة عشر قرنًا، وربّما تزايد أعدادهم، يأتي مصداقًا لعدم إرغامهم على تغيير عقيدتهم.. فلو أن أي قَدْرٍ من القسر مورس ضدّهم لكانت ديار الإسلام قد خلت تمامًا من يهودي أو نصراني؛ لأننا نعرف أن العقائد الأدنى من خلال ممارسة القسر المذهبي تقدر على إزالة العقائد الأعلى.. فكيف بالإسلام الذي يمثل المنزلة العليا التي لا تقارن، بكل المقاييس، مع مواقع اليهود والنصارى؟

ما الذي حدث قبالة هذا في لحظات التفوّق الغربي النصراني بمقاييس القوى العسكرية والسياسية؟

الساحة الإسبانية، بعد سقوط غرناطة على يد فرديناند وإيزابيلا الكاثوليكيين تعطينا الجواب: فعلى مدى عقود معدودةٍ فحسب، قدرت السلطة الإسبانية بالتعاون مع الكنيسة ومؤسسة محاكم التحقيق التي شكلتها أن تصفّي من الوجود المنظور شعبًا من المسلمين عن آخره.. شعبًا يبلغ تعداده أكثر من مليونيْ وأربعمائة ألف إنسان أُرغموا على التنصّر أو الهجرة أو القتل بعد واحدةٍ من أبشع صيغ التعذيب وغسيل المخ والمسخ البشري فيما هو معروف في مؤلفات المؤرخين الإسبان أنفسهم فضلًا عن المؤرخين العرب.

وهذا يكفي للإجابة على التساؤل الذي ألمحه في عيونكم: لماذا قدر الإسلام على البقاء والاستمرار في كل المناطق والبيئات التي وصل إليها فاتحًا أو داعيًا، ولكنه عجز في الساحة الإسبانية عن مواصلة البقاء؟

إنه التحدّي الذي يفوق كل قدرة على الاحتمال، كما يقول المؤرخ البريطاني المعاصر أرنولد توينبي في كتابه المعروف (دراسة للتاريخ). وإذا أردتم أن تعرفوا ما الذي فعله المسلمون لمجابهة المحنة وحماية وجودهم إزاء السكين

الكاثوليكية، فإن لكم أن تتذكروا ما فعله البوسنيّون.. وفي الحالتين فإننا نجد إصرارًا لا إنسانيًّا.. إصرارًا وحشيًّا متعصّبًا طاغيًا على إبادة الخصم من الوجود ومحو خرائطه من جغرافية العالم.. ومع ذلك فإن أجدادنا الأندلسيين لم يألوا جهدًا في حماية دينهم ووجودهم، وثاروا وقاوموا المرة تلو المرة، فأُعذروا إلى اللّـه تمامًا، كما فعل البوسنيون قبالة العالم الغربي كلّه.

* * *
* *
*

الأدب والتاريخ والصراع الحضاري

في رأيي أننا في محاضراتنا العامة يجب أن نتجاوز - بين الحين والحين - الصيغة الأكاديمية الصرفة التي يُعد البحث والكتاب ساحتها الأساسية، أما المحاضرة فهي أولى بتقديم الخبرة، أو خلاصة التجربة المعرفية في هذا الحقل أو ذاك..

ويمكن أن يكون موضوع « الأدب والتاريخ » فرصة مناسبة لمحاضرة كهذه تتوخى التأكيد على العلاقة الحميمة بين الطرفين، وتسعى لإضاءة عناصر الأخذ والعطاء بينهما.

ولما كانت الحضارة ترتبط أشدّ الارتباط بالتاريخ، بل هي في نهاية الأمر حصيلة الفعل التاريخي، ولما كان الصراع الراهن يأخذ بعدًا حضاريًّا، كان لا بدّ من الحديث عن دور الأدب في هذا الصراع، وهو يمثل - ولا ريب - مساحةً واسعة في حلقاته كافة.

إن العلاقة بين الأدب والتاريخ ليست حالة أو وجهًا واحدًا.. ليست صيغة مسطحة في الطول والعرض، وإنما هي علاقة مركبة تأخذ أكثر من وضع، وفق المنظور الذي يتعامل الدارسون من خلاله.

ولن يتسع المجال - عبر محاضرة كهذه - للوقوف طويلًا عند طبقات هذه العلاقة، ويكفي أن نؤشر عليها بالإيجاز المطلوب..

أوّلًا: الأدب خبرة معرفية ينطوي عليها الفعل التاريخي - الحضاري، وهي تندرج في سياق العلوم الإنسانية لتمييزها عن نمطين آخرين من العلوم: الصرفة والتطبيقية. ففي دراسة تاريخ الرومان، أو عصر النهضة، أو التاريخ الأندلسي، لا بد من دراسة آداب هذه العصور، إذا أردنا أن نضع أيدينا فعلًا على الملامح الأساسية لتلك العصور، وإلّا فإننا سنترك وسيلة مساعدة هامة جدًّا في الكشف والإضاءة.

ثانيًا: الأدب خبرة ثقافية تساعد على تأصيل الفعل الحضاري، ومنح هذه الحضارة أو تلك خصائصها التي تميّزها عن الحضارات الأخرى.. فإذا عرفنا

أن الحضارة تنطوي على سياقين أساسيين هما المدنية المعنية بالجوانب المادية والفنية والتنظيمية والخدمية من الحياة، والثقافية المعنية بالجوانب الفكرية والذوقية والوجدانية والاجتماعية، والعقدية قبل هذا وذاك، حيث تكون (الرؤية) للعالم والحياة والوجود والمصير البشري هي الحكم الفصل بين حضارة وأخرى، وحيث يتبدى دور الأدب الذي يعكس هذه الرؤية ويعبّر عنها، بل يسهم في تأسيسها، مهمًّا جدًّا في تأصيل الفعل الحضاري ومنحه خصوصيته.

إن القصيدة العربية - على سبيل المثال -.. اللغة العربية.. صيغ التعبير والتقنيات الإبداعية.. طرائق الخطاب النقدي والجمالي.. كلّها مما يميّز أمتَنا، أو أية أمة أخرى ثقافيًّا، وبالتالي حضاريًّا، بين الأمم والشعوب والجماعات الأخرى.

ثالثًا: الأدب صيغة ذات حساسية فائقة في التعبير عن الوضع التاريخي والحضاري، تعكس بتقنياتها الحساسة الكثير من مفردات الفعل التاريخي والخبرة الحضارية.. فلا بدّ من استدعاء الخطاب الشعري للمتنبي وأبي فراس - على سبيل المثال - لدى أية دراسة تتناول الدولة الحمدانية في حلب والإخشيدية في مصر.. ولا بدّ من استدعاء دانتي لدى دراسة النهضة الإيطالية، والعماد الأصفهاني لدى دراسة الحروب الصليبية.. ولا بدّ من استدعاء الخطاب الروائي لديكنز وتولستوي لدى دراسة الثورة الفرنسية والغزو الفرنسي لروسيا.. وهكذا..

رابعًا: الأدب واحد من الأدوات المساعدة، أو الموصّلة للحقيقة التاريخية، لا يمكن الاستغناء عنها بحال من الأحوال، رغم أن الخطاب الأدبي ينطوي على الذاتية، والتاريخي على الموضوعية قدر الإمكان.. ورغم أن الخبرة الأدبية تتضخم بها الذات على حساب الموضوع.. ومع ذلك فليس ثمة مَنْ يقدر على الاستغناء عن هذه الأداة في بحثه التاريخي.

خامسًا: وباتجاه الانتقال من العام إلى الخاص نجد كيف يصير الأدب أداة ضرورية للتعبير في نطاق البحوث التاريخية، ليس فقط كآلية لغوية لصياغة الخطاب ومنحه السوية المطلوبة، وإنما قبل هذا في منحه المؤرخ حساسية حادة، وخيالًا نافذًا، في تجاوز ظواهر الأشياء والتجارب والشخوص والخبرات صوب

الجوهر والمغزى، فيقدر - بالتالي - على تواصل أكثر عمقًا مع الحقائق التاريخية، والتحقّق بمقاربة أشد مع نبض التشكل التاريخي والحضاري.

إن معضلة طلبة الدراسات العليا في التاريخ، هي سقم الأسلوب، وعدم القدرة على النفاذ إلى ما وراء النّص المكتوب، وانعدام قوّة الخيال، وبالتالي تضحّل الأعمال الأكاديمية فيما لا يسمح للقراء بمتابعتها حتى النهاية.. إن لغتها تجرح الأذن، وركضها على سطح الوقائع يفقد الواقعة التاريخية عمقها الحقيقي، ويتحول الطالب - بتعبير اشبنغلر - إلى « منظف أتربة أكاديمي ».. أو إلى جهاز استنساخ يصفّ النصوص بعضها إلى جانب بعض، دون أن يكون له حضور فاعل في التعامل معها واستنطاقها.

سادسًا: الأدب يلتقي مع التاريخ في تعامله مع الزمن في محاولة تغطيته عبر امتداداته أو أوناته الثلاث: الماضي والحاضر والمستقبل.. كلٌّ بأسلوبه الخاص.. فإذا كان التاريخ يملك قدرة متفوقة في دراسة الماضي وتحليل الحاضر، فإن الأدب قد يتفوق عليه في استشراف المستقبل والإرهاص به، بما يمتلكه من حساسية وقدرة على التنبؤ تعينه على تجاوز الراهن الموقوت إلى المتغيّر الآتي..

سابعًا: الأدب في أجناسه المختلفة: (الشعر الملحمي والمسرحي والغنائي والرواية والقصة والمسرحية والسيرة الذاتية) يعتمد الواقعة التاريخية في نشاطه الإبداعي، فيما هو معروف، كالذي نجده في الإلياذة، وقصائد أبي تمام والبحتري، ومسرحيات كتّاب الطليعة العبثيين.

ثامنًا: لهذا كلّه تبدو الثقافة الأدبية ضرورية للمؤرخ، ليس فقط لتمكينه من إحدى أدوات العمل، في البحث التاريخي، وإنما لمنحه أفقًا واسعًا، وخيالًا نافذًا، وخلفيات ثقافية، وتحسُّسًا فائقًا لنبض الوقائع التاريخية.

إن المؤرخين الكبار في عالمنا المعاصر هم بشكل من الأشكال أدباء كبار، ولنتذكر على سبيل المثال أرنولد توينبي وهيغل واشبنغلر والعقاد.. وغيرهم كثيرين.

تاسعًا: وثمة (تاريخ الأدب) هذا الفرع المهم في حقل الدراسات والمعطيات

الأدبية، إنه كما يدل عليه اسمه عمل في التاريخ، وبالأدوات التاريخية، والأساليب التي يعتمدها المؤرخ نفسه، مضافًا إليها تعامله النقدي مع النصوص الإبداعية كما هو معروف.

عاشرًا: هل يضاف الأدب كمورد للوثائق التي تعزّز وتؤكد الواقعة التاريخية؟ وميزته تبدو في قدرة الذاكرة على حفظ نصوصه، فضلًا عن الصيغ المكتوبة، وحيث يتم التناقل الشفاهي بين جيل وجيل فيمنح النصّ مصداقيته التوثيقية.

لقد كان الشعر واحدًا من أهم مصادر علم التاريخ لدى أجدادنا القدماء في القرون الأولى التي اعتمد فيها المؤرخون على مخزون الذاكرة، قبل أن تنتشر الكتابة وتصبح هي الأساس في التصنيف التاريخي.

أحد عشر: الترجمة أو السيرة الذاتية، كواحدة من أكثر الأجناس الأدبية إثارةً، هي في الحقيقة لقاء حميم وتعاشق موغل بين الأدب والتاريخ.

* * *

الغربيون انتبهوا جيدًا إلى هذه العلاقة الحميمة بين الأدب والتاريخ، وراحوا يوظفونها - منذ فترات مبكرة - في أعمالهم الأدبية والفنية بمختلف صيغها وأنماطها، بعد أن أدركوا قدرة العمل الروائي على التأثير بسبب من اتساع قاعدة قرّائه، ومشاهديه بعد جملة من التحويلات الفنية لجعله جاهزًا للعرض على التلفاز والمسرح والشاشة السينمائية.

وبقدر تعلّق الأمر بالشرق الإسلامي، عرف الغربيون كيف يوظفونه للهجوم على الإسلام والمسلمين، في تاريخهم وحضارتهم، وحياتهم الاجتماعية، وقرآنهم، ونبيّهم.. وراحت الروايات الإنكليزية - تحديدًا - تتدفق في هذا الاتجاه، حيث أتيح لي عام (١٩٩٠م) أن أجد في مكتبة شخصية في لندن عشرات منها، لم تخل واحدة منها من الطعن والتشكيك والتحريف والسخرية والتزوير.. وعرض الوقائع على خلاف ما تشكلت عليه فعلًا..

قلّة قليلة منها كانت تستهدف الربح الخالص والجماهير الواسعة، كتلك التي

تحكي عن قصص ألف ليلة وليلة، ورحلات السندباد، وليالي الشرق المترفة السعيدة.. ولكن الأكثرية كانت تمضي بهدف مقصود صوب التشويه والتعتيم..

ثم ما لبثت أن جاءت الفضائيات التي تخاطب في اللحظة الواحدة ملايين الناس، فزادت العقل الغربي إغراءً في توظيف الأدب لاقتحام التاريخ، بالطرائق الفجة غير العلمية، من أجل اثنتين: تدمير صورة الإسلام في الوجدان الغربي، والكسب المادي الكبير الذي تدرّه أفلام سينمائية وتلفازية تنقلهم من عالمهم المادي الثقيل، وجهدهم اليومي المكافح من أجل الشبع.. إلى أجواء الرومانسية التاريخية الحالمة.. السعيدة..

ودائمًا نجيء نحن متأخرين.. لم نلتفت إلّا في وقت لاحق إلى طبيعة العلاقة التي تربط الأدب بالتاريخ، وإلى إمكانات التوظيف الأدبي والفني للخبرة التاريخية، والذي يفتح أمامنا الفرص والآفاق لتغذية الإنتاج الدرامي بالموضوعات المناسبة ذات البعد الحضاري والإنساني، سواء كان هذا الإنتاج سينمائيًّا أم مخصصًا للشاشة الصغيرة.. وبدأت تخرج على المشاهدين أعمال رائعة بأيدي مخرجين كبار وممثلين ذوي كفاءة عالية، فضلًا عن حلقات التحويل الفني للنص الدرامي من سيناريست وكاتب حوار، ومؤثرات صوتية وضوئية، ومصوّرين قديرين.. إلخ.. وبدأ المشاهدون يجدون أنفسهم أمام أفلام كبيرة كـ (الرسالة) و (عمر المختار) للمخرج الكبير مصطفى العقاد رحمه الله، ومسلسلات تلفازية كـ (عمر) للمخرج أحمد علي و (القعقاع بن عمرو) للمثنى صبح.. ولا يزال الطريق مفتوحًا لإخراج المزيد من الأعمال الكبيرة التي تؤدي دورًا مزدوجًا يتمثل **أولهما** في تحقيق المقاربة الفنية للواقعة التاريخية قبالة المشاهد المسلم فتزيده اقتناعًا بعظمة تاريخه وحضارته، وإنسانية نبيّه عليه السلام، وسلامة علاقاته الاجتماعية، وطهارة سلوكه، وموقفه الإنساني من الآخر.. إلخ.. وأما **ثانيهما** فيتمثل بالردّ - وبالسلاح نفسه - على هجمات الخصم الغربي بإطلاعه بالصدق المطلوب على تاريخنا ونبيّنا وحضارتنا وتعاملنا مع المغلوب.. مقارنةً بالممارسات الخاطئة والملتوية، واللاإنسانية في تعامل الغربي المتفوّق مع الشرق الإسلامي.

ولقد تبيّن للمتابعين في ديار الغرب كيف فعل فيلم (الرسالة) فعله في تقديم صورة النبي ﷺ على حقيقتها للوجدان الغربي، الذي وضعت الصهيونية بينه وبين الحقيقة الإسلامية سدًّا من الافتراءات والأكاذيب.. وكيف أقبل الغربيون على مشاهدة الفيلم في عواصم الغرب: لندن وباريس وبرلين.. حيث كانوا يقفون طوابير من أجل الحصول على تذاكر الدخول، وكيف غادروا العرض وهم أشد إعجابًا بنبيّ الإسلام ودينه العظيم..

هنالك في الحقيقة عشرات الفرص والموضوعات والمساحات المناسبة للتوظيف الفني، أكتفي بالتأشير على بعضها فحسب، ويبقى الفضاء مفتوحًا لكتاب النصوص الإبداعية، والمنتجين، والمخرجين لاختيار المزيد.

فهنالك - على سبيل المثال - الممارسات الاستعمارية اللاإنسانية في بلدان العالم الإسلامي.. الردّ العادل والمشروع في دائرة الدفاع عن الذات وحمايتها من الإفناء.. الممارسات الإنسانية في دائرة الجهاد والفتح الإسلامي.. انتشار الإسلام بالقدوة البشرية وتأثيرات منظومة القيم.. محاكم التحقيق وإفناء العرب المسلمين وحضارتهم في الأندلس.. البعد الحضاري في انتشار الإسلام.. القوى المضادة وأنماط الصراع: الصليبيون، المغول، الشيوعيون، الصهاينة.. نماذج بشرية متألقة من التاريخ.. سلوكيات إنسانية من التاريخ.. نماذج من الدور المؤثّر والفعال للمرأة المسلمة..

ومرةً أخرى.. يبقى الفضاء التاريخي مفتوحًا للمزيد..

* * *
* *
*

تأملات في ظاهرة الفتوحات الإسلامية

ظاهرة الفتوحات الإسلامية في موجاتها الخمس: الراشدية والأموية والعباسية والعثمانية والسلمية، ظاهرة فريدة ومدهشة في تاريخ البشرية.. في دوافعها أو معطياتها أو نتائجها على السواء..

إن اختزالها المدهش للزمن والمكان.. واستجابتَها للتحديات كافة.. وتجذّرَها في الأرض.. دفع الكثير من الباحثين في الشرق والغرب، إلى دراستها من أجل وضع اليد على أسباب فرادتها.. وكثيرون آخرون طاشت بهم السهام فاندفعوا يمينًا وشمالًا، متأثرين بموروثهم الفكري، أو الثقافي، فقالوا فيها ما قالوا محاولين أن يجدوا في لحمتها منفذًا ولو صغيرًا لدسّ سمومهم وأحقادهم.. فاعتبروها عملًا استعماريًّا يستهدف الحصول على المكاسب الاقتصادية واستعباد الشعوب المستضعفة.. أو في أحسن الأحوال هجرة بشرية واسعة كسائر الهجرات الكبرى التي عرفها التاريخ بحثًا عن البيئة الأكثر مناسبة للاستيطان.. أو هي ربّما عمل ارتجالي لا يستهدي بخطة مسبقة أو برنامج مدروس.. بل إن بعضهم - كفيليب حتّي - سمّاها صراحةً في كتاب (تاريخ العرب المطول): الاستعمار الإسلامي!! وبعضهم الآخر ادّعى بأنها محاولة من أبي بكر الصديق ﷺ، لإشغال العرب عن العودة إلى ردّة ثانية، رغم أن أبا بكر، كما يؤكد الطبري في أكثر من رواية، لم يسمح ابتداءً لكل مَنْ ارتد من العرب في المشاركة بالفتوحات.

وهذه المحاضرة رحلة سريعة، وحسبما يسمح به الوقت للتأشير على الخصائص الواقعية لهذه الظاهرة كما تشكلت بالفعل لا كما أراد لها أولئك الباحثون أن تكون..

فمنذ عصر الرسالة وقيام دولة الإسلام في المدينة، وُضعت التأسيسات الاستراتيجية للجهاد الإسلامي الذي يستهدف (الفتح) اعتمادًا على معطيات

قرآنية سبق - منذ العصر المكي - وأن أعلنت عن عالمية الدعوة الإسلامية، وأنها ليست مقصورة على الأمة العربية أو جزيرتها المحدودة، وإنما هي خطاب أريد له أن يمضي إلى مشارق الأرض ومغاربها؛ لتحرير الإنسان من هيمنة الطواغيت ومنحه حرية اختيار العقيدة التي يشاء: ﴿ .. وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾[١]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٢]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. ﴾[٣]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴾[٤].

إن الإسلام هو جماع الأديان، وخاتمها، وعليه تقع مسؤولية هداية الإنسان في كل زمن ومكان.. وعلى مدى بضع عشرة سنة من العصر المدني، حيث صار للرسول ﷺ جيش فاعل، راح يقاتل على أكثر من جبهة من أجل مدّ دينه الجديد إلى الجزيرة كلّها، ثم إقامة الجسور بعدها للانتشار في ديار العراق والشام، قاتل المشركين واليهود والبيزنطيين وحلفاءهم من نصارى العرب، إلى أن تمّ له تصفية جزيرة العرب من شرك الوثنية، وتجريد القوى اليهودية من سلاحها، وكسب الحزام العربي النصراني الموالي للبيزنطيين ثم الانطلاق بعدها لتحدّي الروم أنفسهم في معارك مؤتة وتبوك وحملة أسامة بن زيد التي أريد لها أن تمضي إلى أرض الداروم من فلسطين متحديةً الوجود البيزنطي هناك.

وبموازاة هذا الجهد العسكري نفّذ الرسول ﷺ جهدًا ديبلوماسيًا إعلاميًا رائعًا للتأكيد على عالمية الإسلام وثلّ عروش كسرى وقيصر التي استعبدت الناس الدهور الطوال، فأرسل مبعوثيه إلى معظم حكام العالم وأمرائه يدعوهم إلى الإسلام، ويتهددهم بالويل والثبور إن لم يستجيبوا لدعوته!!

ولما توفي رسول اللّـه ﷺ واختير أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه خليفة للمسلمين، مضى منذ لحظات خلافته الأولى على الطريق نفسه، ولهذا أصرَّ على إرسال بعث أسامة ابن زيد، رغم اشتعال حركتي الردّة والتنبؤ، وحاجة الدولة الناشئة إلى جيشها

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٩.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.
(٣) سورة سبأ: الآية ٢٨.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

الرسمي للدفاع عن مقدّراتها، لكنه قال كلمته المعروفة: « واللّـه ما كنت لأردّ جيشًا جرّده رسول اللّـه ﷺ!! ».

ثم بعد أن تمّ له سحق حركتي الرّدة والتنبؤ، تفرغ أبو بكر ﵁ لإرسال الجيوش تلو الجيوش لفتح العراق والشام، وجاء من بعده الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﵁ لكي يواصل الفتح في بلاد فارس وأذربيجان وأرمينية ومصر وليبيا..

ومهما قيل عن دوافع حركة الفتح هذه من أنها كانت ردًّا على العدوان، وأن الجهاد الإسلامي في جوهره هو محاولة للدفاع عن الذات ضد اختراق الآخرين، فإن الذي يتحدث في هذه الظاهرة ليس استنتاجات هذا المؤرخ المعاصر أو ذاك.. وإنما الوقائع والتصريحات والأقوال التي صدرت في حينها عن قادة الفتح وسفرائه وساسته الكبار.. وهم كلّهم كانوا يؤكدون على الرؤية أو الاستراتيجية التي أكدها كتاب اللّـه منذ بدايات الدعوة الأولى، والتي تتمركز عند عالمية الإسلام، وضرورات انطلاقه أن كل مكان يتواجد فيه الطاغوت الذي يعبّد إلى الناس والجماعات والشعوب لنفسه، بالقسر والإكراه، ويصدّهم عن الانتماء الحرّ للعقيدة التي يشاؤون..

وسواء كان هناك عدوان مبيّت ضد دولة الإسلام، أم لم يكن أساسًا، فإن هذه الدولة قد شمّرت عن ساعد الجِدّ للمضي بالخطاب الإسلامي إلى كل مكان في واحدة من أوسع حركات التحرير في تاريخ البشرية، وكان شعارها ما ردّده سفراء الفتح أمام قادة الفرس والروم وأباطرتهم وأكاسرتهم: « اللّـه ابتعثنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة اللّـه وحده، فواللّـه لَإسلامكم أحب إلينا من فيئكم، ولَقتالكم بعد أحب إلينا من صلحكم »!! بل إن الخطاب الافتتاحي للخليفة الأول يوضّح الأمر بما لا يدع أي مجال للمداخلات الملتوية: « إنه ما ترك قوم الجهاد إلّا ضربهم اللّـه بالذل »، وهو ينطلق في ذلك من حديث الرسول ﷺ: « **الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة** »(١).

(١) الهيثمي: مجمع الزوائد، دار الفكر، بيروت (١٤١٢هـ) (٤٠٤).

حيثما تلفَّتْنا وجدنا أنفسنا قبالـة الجهـاد كوسيلة، للتحقّق بدعوة الإسلام الانتشارية في العالم.. ومن أجل ذلك كانت عروض الفاتحين لخصومهم تطرح أمامهم: الإسلام، أو الجزية، أو القتال..

الإسلام باختيارهم الحرّ.. أو البقاء على عقائدهم وأديانهم باختيارهم الحرّ كذلك، مع دفع الجزية التي تمثل إعلانًا عن الإذعان للنظام السياسي الإسلامي، وليس مطلقًا للدين الإسلامي.. أو القتال..

والآن فبمجرد مقارنة بين خروج المسلمين للفتح بالمواصفات التي ذكرناها، وبين سائر محاولات الخروج الأخرى في تاريخ البشرية، يتبيّن الفرق الشاسع بين الحالتين.

إن اختزالَ حيثيات الزمن في الفتح الإسلامي ومجابهةَ تحديات المكان، وتحقيقَ الانتشار في مديات زمنية متقاربة قد لا تكون ميزة الفتح الإسلامي، فهنالك الكثير من حركات الاندفاع حققت الشيء نفسه في فترات زمنية قصيرة.. إنما الميزة تكمن في النتائج المترتبة على الاندفاع، وفي قدرته على التجذّر في الأرض، وفي صيغ التعامل مع المغلوبين.

فلا الهجرات السامية، وغيرها من الهجرات الكبرى في التاريخ، تلك التي كانت تبحث عن الكلأ والماء.. ولا الاندفاعات التوسعية، التي يكمن وراءها البحث عن المجد الشخصي للإسكندر وهانيبال ويوليوس قيصر.. ولا مذابح جنكيزخان وهولاكو وأتيلا وتيمورلنك وغيرهم من الجزّارين.. ولا الشعارات الكاذبة للثورة الفرنسية أو الشوفينيات القومية العدوانية التي نفذها الألمان والطليان.. ولا حركة التوسع الاستعماري القديم الذي أمسك لأسباب اقتصادية صرفة برقاب العالم الإسلامي لمدى قرن ونصف القرن، ومن بعده الاستعمار الجديد (الإمبريالية) التي تزعمتها الولايات المتحدة الأمريكية فصبّت جام غضبها على الشعوب المستضعَفة بالقنابل الذرية واليورانيوم المخصّب، في اليابان وأفغانستان والعراق، ولا ادّعاءات الشيوعية السوفياتية البائدة.. ولا حركة الاستيطان الصهيوني الذي اغتصب أرضًا ليست له وأقام دولته على جملة من الأساطير الكاذبة..

ولا غيرها من محاولات الامتداد والتوسّع عبر التاريخ القديم والحديث، بقابلة - ابتداء - لمقارنتها مع حركة الفتح الإسلامي بدوافعه تلك، وبمعطياته الإنسانية في التعامل مع الشعوب المفتوحة، وبنتائجه المدهشة التي مكنت للفتح من التجذّر في الأرض.

إن أيًّا من الاندفاعات البشرية المذكورة لم يبشّر أو يحمل معه (عقيدة عليا) يلتقي فيها الوحي بالوجود، وتساوي بين الغالب والمغلوب، وتحترم إنسانية الإنسان، وتجيبه على كل سؤال يؤرق ضميره إزاء تحديات الخلق والمصير والكون والحياة والوجود، وتمنحه السكينة الروحية، والأمن والتوحّد والاستقرار والرضا.. وتحمي حياته وعرضه وماله.. وتفتح أمامه الفرص كاملة للتحقق بالحياة في سويّتها المعقولة.. وتحرّره من كل صنوف القسر والاستعباد والحتميات والابتزاز.. عقيدة عليا ليست من وضع الكهنة والطواغيت والأرباب الذين يسعون بمذاهبهم، التي تزينها الدعاوى الكاذبة، والفلسفات الملتوية، لتعبيد الناس لأنفسهم، ولكنها من وضع اللّه ﷻ الذي يعلو - وحاشاه - على المصالح والأهواء.. فليس ثمة تحيّز على الإطلاق لفئة أو شريحة أو طبقة أو لون أو جنس؛ لأنه - جلّ في علاه - خالق الجميع.

ثم إن أيًّا من الاندفاعات المذكورة لم يعط الخيار الحرّ للشعوب التي غزاها.. بل أرغمها على خياره الوحيد هو.. واستخدم إزاءها كل صنوف الغدر والمكر والقوة والالتواء والخيانة من أجل جعل كلمته هي العليا، وحكمه هو الحكم الفصل الذي لا رادّ له.. أما الفتح الإسلامي فقد ترك الأبواب مفتوحة أمام الخيار الحرّ، وفق ثلاثيته المعروفة: الإسلام أو الجزية أو القتال.. ولهذا ظلت شعوب وجماعات بكاملها على أديانها بعد أن انتصرت عليها دولة الإسلام، رغم أن مساحات واسعة من تلك الشعوب والجماعات انضوت باختيارها إلى الدين الجديد، بعد أن رأت عدله وسماحته، وسلوك أصحابه، ما أغراهم بالانتماء إلى دينهم.. لكن مع ذلك ظلت فئات عديدة أخرى من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة.. و.. و.. على أديانها، ووجدت أمامها الفرص المختلفة دينيًّا ومدنيًّا، بما يعرفه

ويشهد به الجميع.. ويكفي أن نتذكر أن معظم الأطباء والمترجمين وصيارفة المال كانوا في عصور الحضارة الإسلامية المتفوقة من النصارى والصابئة واليهود.. ولنتذكر كذلك شهادة المستشرق البريطاني اليهودي المعروف (برنارد لويس) من أن اليهود الذين اضطهدتهم شعوب وحكومات أوربا في القرون الوسطى، ولاحقتهم وذبحتهم، لجأوا إلى الدولة العثمانية فوجدوا في صدرها الأم الرؤوم التي احتضنتهم ومنحتهم حريتهم الدينية والمدنية كاملة فيما جعلهم يعترفون بأنهم عاشوا عصرهم الذهبي في ظلال العثمانيين.

ولنتذكر - كذلك - مقولة المستشرق البريطاني (سير توماس أرنولد) في كتابه المعروف (الدعوة إلى الإسلام) من أنه وهو يدرس سبل انتشار الإسلام في العالم على مدى ثلاثة عشر قرنًا لم يجد حالة واحدة.. حالة واحدة فقط، أُكْرِه فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام. وقوله: إن المذاهب والأديان الأعلى منزلة، سرعان ما تذوب وتتلاشى أمام المذاهب والأديان الأدنى منزلة، بسبب الضغط والقسر والإكراه.. وأنه لما ظل اليهود والنصارى - على تخلُّف أديانهم عن دين الإسلام - حتى اللحظات الراهنة يحيون حياتهم الكاملة في ديار الإسلام، فمعنى هذا أنه لم يُمَارَس ضدهم أي نوع من الإكراه.. على الإطلاق..

هذا إلى أن مفردات السلوك التي نفذتها ومارستها تلك القوى البشرية المندفعة كانت تعكس أقصى حالات السوء والانحراف عن السوية الإنسانية، والاستعلاء، والتمييز اللوني أو العرقي أو الطبقي أو المذهبي أو الثقافي.. لقد جاءت لكي تستثمر، وتنهب، وتسلب، وتبتز.. فكيف نتوقع من أفرادها سلوكًا عاليًا يجذب إليه أبناء الشعوب المستعمرة، إلّا مَنْ باع دينه ووطنه وضميره.. إنني لأتذكر هنا، من بين عشرات الشواهد ومئاتها، سخرية ذلك الضابط الإنكليزي في كينيا، وهو يتحدث إلى صديق له كيف أنه وهو يصوّب فوهة مسدسه إلى أحد الزنوج من حركة المقاومة الكينية (الماوماو) سعى إلى عضه كالكلب دفاعًا عن نفسه، وأتذكر التمييز بين الأبيض والأسود في الساحة الإفريقية حتى بين القسس ورجال الدين، الأمر الذي دفع الإفريقي إلى كراهية النصرانية ورجالاتها الذين جاؤوا سندًا

للاستعمار، والتوجه للانتماء إلى الدين الإسلامي الذي يساوي بين الجميع.. فلا غني ولا فقير، ولا أبيض ولا أسود، فالكل تحت سماء اللّـه الكبيرة سواء..

لقد ضرب الفاتحون المسلمون بسلوكهم الوضيء، المتوحد، العادل، النظيف، المترع بالمحبة للجميع، والرغبة في التسوية بين الجميع.. بل في تعاملهم التجاري والتعليمي وارتباطاتهم الاجتماعية وزواجهم من بنات الشعوب التي فتحوها، مثلًا عاليًا في استقامة السلوك وعدله، ونشره المحبة والمساواة بين الناس، بالأفعال وليس بالأقوال والشعارات، فيما دفعهم إلى كسب محبة الشعوب التي فتحوها، والتجذّر في ديارها.. بخلاف كل الاندفاعات الأخرى التي ما لبثت أن لفظتها الشعوب وقاومتها، فوجدت نفسها مضطرةً إلى الانسحاب إلى عقر ديارها.

إن سير توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) يطيل الوقوف عند هذه النقطة التي أعانت الفاتحين المسلمين على تحقيق أهدافهم، ويضرب عشرات الأمثلة ومئاتها على مفردات السلوك العالي الذي كان أشبه بالمغناطيس الذي يجذب الآخرين إلى الانتماء إلى دين الغالبين دون أي قدر من القسر أو الإكراه.

ثم إن انتشار الإسلام، بخلاف سائر أنماط الانتشار الأخرى، كان يحمل مشروعًا حضاريًا يلتقي فيه الوحي بالوجود، ذا بعد إنساني تحريري لنشره في الآفاق، وتمكينه في الأرض لصالح الإنسان، أيًّا كان موقعه غالبًا أو مغلوبًا.. مشروعًا رسمه هذا الدين زمن تنزّله على رسول اللّـه ﷺ بنقلاته الكبرى في مجالات العقيدة، والمعرفة، ومنهج الفكر والعمل.. وفي المبادئ المساندة لهذه النقلات من مثل: النزوع إلى الأمام، التحذير من هدر الطاقة، مبدأ الاستخلاف، مبدأ التسخير، روح العمل والإبداع، مجابهة التخريب والإفساد، التوازن بين الثنائيات وتوحّدها، التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون، الميزة التحريرية.

وفضلًا عن هذه الشبكة الغنية من المعطيات التصوُّرية ذات البعد الحضاري في كتاب اللّـه وسنة رسوله ﷺ قدر رسول اللّـه وصحابته الكرام، في مدى عصر الرسالة، على تنفيذ جملة من الإنجازات التاريخية التي جاءت بمثابة تحولات جذرية على أرض الواقع، ومن أبرزها: التوحيد الذي ألغى الشرك والتعدد، الدولة

التي ألغت القبيلة، الوحدة السياسية التي ألغت التجزؤ، التشريع الذي ألغى العرف، المؤسسة التي ألغت التقاليد، الأمة التي ألغت العشيرة، الإصلاح والإعمار الذي ألغى التخريب والإفساد، المنهج الذي ألغى الفوضى والخرافة والظن والهوى، المعرفة التي ألغت الجهل والأمية.. الإنسان المسلم الجديد الملتزم بمنظومة القيم الخلقية والسلوكية المتجذرة في العقيدة، في مواجهة الجاهلي المتمرّس على الفوضى والتسيّب وتجاوز الضوابط وكراهية النظام..

والتي كانت تصبّ في نهاية الأمر في بناء هذا المشروع الذي استهدف إقامة حياة متحضّرة تسعد الإنسان وتزكيه، وتمنح الحياة الدنيا مغزاها، وتجيب على كل الأسئلة التي تؤرق الضمير البشري، وتضع الإنسان في موضعه الحق من خرائط العالم. ولقد تحدثت عن تفاصيل هذا المشروع ومفرداته في أماكن أخرى، وبخاصة في كتاب (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) وكتاب (حول أصول تشكيل العقل المسلم).. وغيرهما.. فليس ثمة مجال لاستدعائها في هذه المحاضرة، إنما التأشير عليها والتذكير بها فحسب.. ومقارنة هذا كلّه بالمشاريع العدوانية التي حملتها موجات الاندفاع المذكورة بكل ما تنطوي عليه من أفعال ودلالات مناقضة لكل مفاهيم الحضارة وتأسيساتها.

فما الذي قدّمه الإسكندر المقدوني، أو هانيبال، أو يوليوس قيصر الذي غرق في عشق كليوباترا حتى شحمة أذنيه؟ وما الذي قدمته مبادئ الثورة الفرنسية والشوفينيات العدوانية: النازية والفاشية، سوى الخراب؟ وما الذي فعله التوسع الاستعماري القديم سوى الابتزاز الاقتصادي وتدمير البنية الحضارية للأمم والشعوب التي افترسها؟ وما الذي قدّمه الاستعمار الجديد، والشيوعية، والصهيونية، سوى إرغام الآخرين على اعتناق مبادئ الثقافة المهيمنة، واغتصاب مقدّرات الأمم والشعوب وتجويعها وإذلالها؟

ثم ما الذي فعلته حركة الامتداد الإسباني (الريكو نكويستا) بالشعب الإسباني المسلم البالغ تعداده مليونين وأربعمائة ألف نسمة سوى افتراسه، وإلغائه من الوجود، تنصيرًا أو قتلًا بالمحرقة أو تهجيرًا من الأرض؟ ليس هذا فحسب، بل

إنهم أتوا بالحرق على الثروة العلمية الهائلة التي تركها المسلمون في شتى أصناف المعرفة فيما سموه بأعمال الإيمان!! وما الذي فعلته أمريكا، رائدة المركزية الأوربية في العقود الأخيرة، سوى استخدامها أقصى درجات القوّة في تعاملها مع الخصوم، كالذي شهدته الساحات اليابانية والأفغانية والعراقية، فيما لا تزال هذه الشعوب تعاني من آثاره وويلاته وإشعاعاته الذرية القاتلة؟!

نقارن هذا كلّه بالمشروع الحضاري الإسلامي الذي يصدر قادته أوامرهم إلى جندهم المقاتلين في الجبهات، ألَّا يقتلوا شيخًا ولا امرأة ولا طفلًا، وألَّا يقطعوا شجرة أو نخلًا.. أو يعقروا شاة أو بعيرًا.. وأنهم سيمرّون على نساك حصروا أنفسهم في الصوامع فلا يؤذوهم..

نقارنه كذلك بإعادة الرسول ﷺ لفائف العهد القديم التي وضع الفاتحون المسلمون أيديهم عليها، إلى حاخامات يهود خيبر، دون أن يمسّها بأذًى.. فيما دفع الباحث اليهودي المعاصر (إسرائيل ولفنسون) إلى أن يقول في كتابه (العلاقات اليهودية العربية في صدر الإسلام): « لا يزال اليهود يشيرون ببنان الإعجاب إلى سلوك محمد بن عبد اللَّه في تعامله مع كتبهم الدينية وإعادتها إليهم دون أن يمسّها بأذًى ».

إن الفارق بين الفتح الإسلامي وسائر الاندفاعات الأخرى في التاريخ.. كبير كبير.. بين مشروع يريد الخير والمساواة والعدل والحرية والمساواة للإنسان، أيًّا كان هذا الإنسان، وبين مشاريع تريد أن تفترس كل ما يقف في طريقها للتسلُّط والهيمنة، حتى ولو كانت نتيجة ذلك إلغاء جماعات وشعوب بكاملها من خرائط الحياة كالذي فعله الغزاة الأوربيون مع الهنود الحمر في الأمريكيتين..

والعبرة - كما يقول المثل - بالنتائج، وهذه تشير بما لا يقبل لجاجة ولا جدلًا ولا إنكارًا إلى أن كل المشاريع الأخرى آل بها الأمر إلى التراجع والانسحاب، بسبب مما صنعته أيديها، فيما عدا المشروع الإسلامي الذي بقي فيه الغالبون والمغلوبون أمة واحدة، متآخية، متحابة، الأمر الذي مكّن المسلمين من التجذُّر في الأرض التي فتحوها، فيما عدا حالات استثنائية استخدمت فيها ضدهم أقصى

درجات الغدر والإبادة والتدمير كالذي حدث في إسبانيا النصرانية وأوربا الشرقية على يد الصليبيين والشيوعيين..

إن علينا في ضوء هذا كلِّه أن نستعيد ثقتنا بأنفسنا، وعقيدتنا، وتاريخنا، ومشروعنا الحضاري، وأن نكف عن اعتماد منطق المهزومين بالدفاع عن أنفسنا، وإلغاء صفة الانتشار عن حركة الجهاد واعتباره دفاعًا عن الذات فحسب، مناقضين بهذا حديث رسول اللّـه ﷺ: « **الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة** »(١) ومقولة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: « ما ترك قوم الجهاد إلّا ضربهم اللّـه بالذل ».

ومن حقكم أن تتساءلوا أخيرًا:

كيف يكون الجهاد ماضٍ في مطلع القرن الحادي والعشرين، والفارق بيننا وبينهم كبير بمعايير القوى المسلحة التي تجعل مَنْ يقول بهذا سخرية للمتندّرين؟!

والحق أن الجهاد في حالة كهذه يأخذ صيغةً أخرى.. صيغة غزوهم بفكرنا.. بعقيدتنا المتقدمة.. وبمشروعنا الحضاري.. خاصةً بعد إذ تساقطت كل مشاريعهم الوضعية والدينية المحرفة على الإطلاق: الاشتراكيات الطوباوية، الوجودية، القوميات الشوفينية، فكرة قيمومة الرجل الأبيض وتفوّقه، الشيوعية، الأديان المحرّفة التي خلت كنائسها من العباد فراحت تعلن عن قبول عقد الزواج النمطي في باحاتها لكسب الجماهير.. ثم ها هي ذي الرأسمالية الربوية تصل إلى طريق مسدود..

وليس ثمة، كما يقول كبار مفكريهم هناك: ليوبولد فايس، روجيه غارودي، مراد هوفمان، موريس بوكاي، مارسيل بوازار.. وغيرهم كثيرون.. وكثيرون جدًّا.. ليس غير الإسلام بمشروعه الحضاري من سيدخل على المعادلة الصعبة فيفك ألغازَها، ويعيد البشريةَ الجانحةَ إلى سواء الصراط.. وصدق اللّـه العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، طبعة دار الحرمين، القاهرة (٤٧٧٥).

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

الكرد في ظلال التاريخ الإسلامي

(١)

منذ اللحظات الأولى لدعوة الإسلام جاءت التأكيدات القرآنية على عالمية هذا الدين وعدم اقتصاره على العرب:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾(١).

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا .. ﴾(٢).

لقد فتح الرسول ﷺ وصحابته الكرام ﷺ صدورهم لكل المنتمين للدين الجديد، وتبوأ رجال من أمثال صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي وغيرهم من غير العرب مواقع متقدمة في حركة الدعوة الإسلامية، ولقوا كل ترحيب وتكريم.

ولما قامت حركة الفتوحات وانتشر المسلمون في الأرض، وأصبحت الدولة الإسلامية دولة عالمية، وجد العرب الفاتحون أنفسهم يتعايشون مع شعوب شتى انتمى الكثير منها إلى الإسلام، وظلت شرائح أخرى على أديانها تمارس حقوقها الدينية والمدنية بحرية تامة.

فها نحن ذا إزاء ما يمكن تسميته بالأممية الإسلامية التي أكدها القرآن الكريم في الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ .. ﴾(٣)؛ أي: ليتميز بعضكم عن بعض. وفي الآية الكريمة: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ .. ﴾(٤).

أممية تعترف بالتمايز بين الجماعات والشعوب والأمم، ولكنها تسعى لأن

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٤) سورة هود: الآيتان ١١٨، ١١٩.

تجمعها في الوقت نفسه على صعيد الإنسانية: « **كلكم لآدم، وآدم من تراب** »[1].
وهي محاولة تختلف في أساسها عن الأممية الشيوعية التي سعت - ابتداءً - وبحكم قوانين التنظير الصارمة إلى إلغاء التنوّع ومصادرته، وإلى تحقيق وحدة قسرية ما لبثت أن تأكد زيفها وعدم القدرة على تنفيذها تاريخيًّا، بمجرد إلقاء نظرة على خارطة الاتحاد السوفياتي (المنحلّ) حتى قبل حركة (البرسترويكا) والرفض المتصاعد الذي جوبهت به الأممية الشيوعية من قِبل حشود الأقوام والشعوب التي تنتمي إلى بيئات ثقافية متنوعة، كما حدّثتنا الخبيرة الفرنسية في شؤون الاتحاد السوفياتي في ثمانينيات القرن الماضي: هيلين كارير دانكوس، في كتابها (القوميات والدولة السوفياتية)، الأمر الذي كان أحد الأسباب الرئيسة لانهيار التجربة السوفياتية.

إننا بمقارنة هذا بما شهده التاريخ الإسلامي من تبلور كيانات ثقافية إقليمية متغايرة في إطار وحدة الثقافة الإسلامية وثوابتها وأسسها وأهدافها المشتركة، يتبين مدى مصداقية المعالجة الإسلامية لهذه الثنائية؛ أي: ثنائية الوحدة والتنوع، كواحدة من حشود الثنائيات التي عُولجت بنفس القدر من الواقعية في الرؤية والمرونة في العمل.

لقد شهد عالم الإسلام أنشطة معرفية متميزة وثقافات شتى على مستوى الأعراق التي صاغتها عربية وتركية وفارسية وكردية وصينية ومغولية وزنجية وإسبانية.. إلى آخره، كما شهدت أنماطًا ثقافية على مستوى البيئات والأقاليم: عراقية وشامية ومصرية ومغربية وتركستانية وصينية وهندية وإفريقية وأوربية شرقية وتركية وإسبانية وبحر متوسطية.. إلخ.. وكانت كل جماعة ثقافية تمارس نشاطها المعرفي بحرية، وتعبّر من خلاله عن خصائصها، وتؤكد ذاتها، ولكن في إطار الأسس والثوابت الإسلامية: بدءًا من قضية اللغة والأدب، وانتهاءً بالعادات والتقاليد، مرورًا بصيغ النشاط الفكري والثقافي بأنماطه المختلفة. ولم يقل أحد: إن هذا خروج عن مطالب الإسلام التوحيدية، كما أن أحدًا لم يسعَ إلى مصادرة

(١) الأزرقي: أخبار مكة (٢/ ١٢١).

حرية التغاير هذه. وفي المقابل، فإن أيًّا من هذه المتغيرات لم تتحول - إلَّا في حالات شاذة - إلى أداة مضادة لهدم التوجهات الوحدوية الأساسية لهذا الدين.

إننا إذا استعرضنا في الذهن منظومة الكيانات السياسية في التاريخ الإسلامي، أو ما أُطلق عليه اسم (الدويلات الإسلامية) التي تجاوزت في عددها العشرات، فإنا سنجد من وراء التنوّع السياسي أو بموازاته، تغايرًا في التعبير الثقافي، ولكن في دائرة الإسلام، وسنجد - كذلك - حماسًا لم يفتر عما كان عليه أيام وحدة الدولة الإسلامية، لتحقيق المزيد من المكاسب لهذا الدين وعالمه: نشرًا للإسلام في بيئات جديدة، وجهادًا للكفار فيما وراء الحدود، وتوسيعًا للسلطة الإسلامية فيما وراء الثغور، وتعزيزًا وإغناءً للقيم الحضارية الإسلامية التي تلتقي على المبدأ الواحد والمصير المشترك؛ أي باختصار، وكما أطلق عليها المستشرق المعروف (فون غرونباوم) في كتاب أشرف على تحريره بالعنوان نفسه (حضارة الوحدة والتنوّع):

كل الشعوب التي انضوت تحت الدول الإسلامية مُنحت فرصتها للتحقق والتعبير عن الذات، وبقي المجال مفتوحًا، حتى للعبيد والمماليك، كي يشكلوا دولًا، ولغير المسلمين أن يتمتعوا بحقوقهم الدينية والمدنية كاملة، وأن يتبوَّؤوا مواقع متقدمة في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية.. لقد انطوى عالم الإسلام على كل أشكال التعددية العرقية والدينية واللونية والمذهبية والطبقية.

(٢)

وهكذا وجد الكرد أنفسهم، وصنعوا تاريخهم، في ظلال العصر الإسلامي، ونفذوا مشاركة فاعلة في مصائر الأمة الإسلامية في السلم والحرب.. في الحضارة والسياسة معًا. وقُدّر لهم في دائرة أممية مرنة منحت الفرص المفتوحة لجميع الأقوام والشعوب، أن يُنشئوا عشرات الدول والإمارات والكيانات السياسية. ويكفي أن نرجع إلى مصنفات المؤرخ الكردي المعروف (محمد أمين زكي)، أو إلى مصنفات كل من المستشرق المعروف (زامباور) (معجم الأنساب والأسرات الحاكمة) و (ستانلي لين بول) (الإمارات المحمدية) و (بوزورث)

(Islamic Daynasties) لكي نرى بأمِّ أعيننا منظومة الدول والإمارات التي أقامها الكرد عبر التاريخ الإسلامي، والتي غطت مساحات واسعة من الزمان والمكان، ومارست دورًا مؤثرًا وفاعلًا في مجرياتهما ومصائرهما.

ولنرجع إلى البدايات الأولى.. إلى (جابان) الكردي الذي اجتاز المسافات الطوال لكي يلتقي برسول اللّـه ﷺ في المدينة ويعلن إسلامه، فيكون أول سفير للشعب الكردي إلى دولة الإسلام، والنبتة الأولى التي ما لبثت أن نمت وازدهت في جبال كردستان وسهولها ومدنها وقراها لكي تعجب الزراع وتغيظ بهم الكفار.. إن رحلة (جابان) ﷺ تذكرنا برحلة سلمان الفارسي ﷺ بحثًا عن الحق.. اجتياز الطريق الطويل للقاء بالرسول القائد ﷺ ومبايعته على الإسلام، فيما يؤكد - مرة أخرى - أن هذا الدين ما جاء للعرب وحدهم، وإنما للناس كافة على تغاير أجناسهم وأقوامهم، وانتشارها في الزمن والمكان.

بعدها قدمت مجموعة من التجار الكرد إلى المدينة المنورة لكي تعلن إسلامها بين يدي رسول اللّـه ﷺ، فتكون هذه الثلة المباركة، مع الداعية الأول (جابان) نواة الوجود الإسلامي في كردستان، والنبتة التي سيقدر لها أن تنمو وتزدهي وتمتد جذورها في الأرض الطيبة لكي ما يلبث شعب بكامله أن ينتمي بطواعيةٍ تامة إلى الإسلام.

وعلى يد (جابان) أسلم (ديلم الكردي) رئيس الحرس الكسروي الذي ما لبث أن تمرّد على عبوديته لكسرى وشارك في القتال ضد الساسانيين مع إخوانه العرب في معركة القادسية، وكأنه رأى بثاقب بصيرته البعد الحقيقي لعمليات الفتح الإسلامي باعتبارها مشروعًا تحريريًا للشعوب من نير الطواغيت الكسروية والقيصرية التي استعبدتها وأذلتها زمنًا طويلًا.. ها هو الآن يرفض الخضوع للمعادلة الجائرة، يتمرد عليها، ويذهب إلى ساحات الجهاد لكي يشارك إخوانه في إسقاط عروش كسرى وقيصر، وتحرير العباد والبلاد من قبضة الطاغوت.

والذين قاوموا الفاتحين في كردستان هم الساسانيون الذين هيمنوا طويلًا على مقدرات العراق، ومارسوا طبقية جائرة وظلمًا اجتماعيًا قاسيًا.. أما الكرد فقد

رحبوا بالفاتحين الذين حرّروهم من طغيان الفرس. وكان للسرعة التي فُتحت خلالها مدن كردستان دلالتها المؤكدة، فلقد تمّ فتح المنطقة بأسرها في مدى عشر سنوات فحسب، أسلم خلالها غالبية الكرد وبشكل سلمي، بعد أن رأوا بأم أعينهم عدل الفاتحين ومساواتهم. ثم ها هم الآن يتوحدون في ظل الإسلام، بعد تمزّقهم منذ سقوط دولة ميديا الكردية، وتنازع مقدراتهم بين الساسانيين والبيزنطيين.

الطوبوغرافيا المعقدة والصعبة لكردستان، وسهولة فتحها - في المقابل - دليل حاسم على عدم مقاومة الكرد للفاتحين، ليس هذا فحسب، بل إنهم ما لبثوا أن شاركوا الفاتحين في توسيع مجال فتوحاتهم، ومجابهة الهجمات الارتدادية للروم والأرمن والخزر. وليس ثمة أية إشارة بين أيدينا على عصيان كردي ضد الفاتحين.. بل على العكس، فإن الكرد أنفسهم ساعدوا على نشر الإسلام في المنطقة معتمدين لغتهم الكردية، وإلّا تطلب الأمر زمنًا طويلًا.

وثمة ما تجب الإشارة إليه: إن أصالة الكرد، ورجولتهم، وقدرتهم في الوقت نفسه على الاستعصاء والتشبث بمعتقداتهم السابقة، تنهض دليلًا على أنهم اعتنقوا الإسلام اختيارًا وليس بالإكراه أو هروبًا من دفع الجزية.. لقد كانت البيئة الكردية - بحق - من أكثر البيئات قبولًا للفاتحين، وللدين الذي جاؤوا يبشرون به.

فيما بعد، وعلى مدى القرون التالية ؛ أثبت الشعب الكردي والقيادات الكردية التحامهما بالإسلام وبهموم الأمة، وشاركا بفعالية عالية في حماية ثوابت هذا الدين ومؤسساته العقدية والسياسية ضد أية محاولة للتزييف والاختراق، وظلوا مخلصين أوفياء للخلافة الإسلامية في عهودها كافة، محبّين للعرب، متعشقين لغتهم وثقافتهم.

فهم من جهة استعصوا على إغواء الشعوبية التي استهوت أقوامًا أخرى، وبخاصة الفرس. وليس لدينا في أدبيات الشعوبية وممارساتها الدينية والاجتماعية والسياسية، أية إشارة عن مشاركة الكرد. وهم - من جهة أخرى - جابهوا وبفعالية عالية خصوم الأمة، سواء من الفرق الضالة، أو الغزاة الخارجيين، ووقفوا - مرارًا - إلى جانب الخلافة العباسية الأم في مواجهة أعدائها المتربصين بها من كل مكان.

لقد كانت أربل، المدينة الكردية المشهورة، من المدن الإسلامية القليلة التي قالت: لا، للعنفوان المغولي، وقاومته ببطولة نادرة. أما دور الكرد في مقاومة الغزو الصليبي، وتحرير البلاد والعباد من قبضة الغزاة، فله قصّة متألقة يعرفها الجميع.

فعن طريق الدولة التي تزعمها القائد الكردي المسلم (الناصر صلاح الدين) في مصر والشام، بعد وفاة سلفه المؤسس نور الدين محمود عام (٥٦٩هـ)، قُدّر له أن يحقق حلم المسلمين، قيادات وقواعد، وأن يحرّر القدس من قبضة الصليبيين ويعيدها إلى أصحابها الحقيقيين عام (٥٨٣هـ) بعد ثمانية عقود من القهر والاستلاب الصليبي المعروف. وإذا كانوا هم قد ذَبَحُوا لدى دخولهم القدس سبعين ألفًا من المسلمين معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال، فإن صلاح الدين لدى دخوله المدينة لم يقتل رجلًا واحدًا.

فيما بعد، وعلى مدى القرون التالية، ظل الكرد على إخلاصهم لقضايا الأمة وهمومها، وكانوا أوفياء - بحق - مع الخلافة العثمانية، أغلب الظن؛ لأنهم رأوا فيها الدولة المجاهدة التي تعكس بصدق الهمّ الإسلامي، فتحقق وحدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وتدافع عن مقدراتهم، وتمضي بكلمة الفتح ومشروعه التحريري العالمي إلى العمق الأوربي.

فلما تداعى الغرب الاستعماري الصليبي على هذه الدولة التي بدأت عوامل الضعف تدب في جسدها، وحرّك لتقويضها الأقليات والشعوب غير العثمانية، ظل الكرد على موقفهم المبدئي الثابت والأصيل في تأييد الخلافة ومقاومة خصومها، والانضواء تحت مشروعها المعروف بـ (الجامعة الإسلامية)، لا بل إنهم كانوا في طليعة الشعوب الإسلامية التي تلقت بحزن عميق واقعة سقوط الخلافة بأيدي الاتحاديين، وقاموا بأكثر من محاولة لاستعادة دورها الفاعل، وتعرّضت قياداتهم، أكثر من أي شعب آخر في ديار الإسلام، للتصفية الجسدية فيما هو معروف.

وبعد تصفية الدولة العثمانية في أعقاب انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى (١٩١٨م)، لم يألُ الكردُ جهدًا في مقاومة الاستعمار الذي كشف عن نواياه، وافترس معظم ديار الإسلام.

ففي العراق - على سبيل المثال - حيث اشتعلت ثورة العشرين ضد الإنكليز، كان للكرد دور ملحوظ فيها، وشاركوا إخوانهم العرب في الساحة العراقية بتضييق الخناق على المستعمر الإنكليزي، وإلحاق الخسائر المتتالية به، فيما كان له أبلغ الأثر في مجريات الأحداث التي شهدها العقد الثاني من القرن العشرين.

(٣)

حضاريًا، وأُسوةً بسائر الشعوب التي انضوت تحت مظلة الإسلام، ساهم الكرد في بناء الحضارة الإسلامية وإغنائها في شتى المجالات العلمية والثقافية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية.

فليس ثمة حلقة من حلقات الإبداع الحضاري الإسلامي، إلّا وتجد للكرد إسهامًا فاعلًا فيه. لقد تحوّلت البيئات الكردستانية في العصور الإسلامية إلى بيئات متحضرة بكل معنى الكلمة.. ولكن دور الكرد الحضاري لم يقتصر على ديارهم، وإنما تعدّاها إلى سائر البيئات الإسلامية من خلال الدول والإمارات التي شكّلوها هناك أو عبر الرحلات العلمية التي كان العلماء الكرد ينتقلون خلالها من بلد إلى بلد، ومن مكان إلى مكان، ناشرين ما في جعبتهم من علم ومعرفة، متزودين منها بالمزيد.

فلو رجعنا إلى تاريخ الدول والإمارات الكردية عبر تاريخنا الإسلامي، ولو أضفنا إلى ذلك جولة مدققة في كتب (التراجم)، فإننا سنجد رأي العين المساحة الواسعة التي أشغلها الكرد في نسيج الحضارة الإسلامية، والعدد الكبير والمدهش من العلماء الذين أبدعوا ونبغوا في شتى المعارف والتخصّصات.

في ظلال الإسلام بنى الكرد المدن والعمائر في كل مكان، وشهد نشاطهم الاقتصادي، زراعة وصناعة وتجارة، ازدهارًا ملحوظًا، وتطورت نظمهم الإدارية، وازدادت حياتهم وخبراتهم الاجتماعية خصبًا وعطاءً.. هذا إلى ما خرّجته البيئات الكردية من حشود العلماء وفي سائر التخصُّصات.

ومن عجب أن نجد كبار المتضلعين في اللغة العربية هم من الكرد، وجهابذة

الفقه الإسلامي هم من الكرد أيضًا. لقد كان عشقهم لهذا الدين، ومحاولة سبر غوره، والإلمام بمطالبه، والتمكن من العلوم المساعـدة الموصّلة إلى حقائقه وبخاصة اللغة، وراء هذه الظاهرة الحاضـرة حتى في اللحظات الراهنـة متمثلة بأساطين الأكاديميين المنتشرين في الجامعات العراقية والعربية والإسلامية، والذين بلغوا شأوًا بعيدًا في الدراسات اللغوية والفقهية، فضلًا عن التخصصات الأخرى.

لقد كانت كردستان في ظلال العصور الإسلامية منجمًا للعلماء والفقهاء والقضاة والأدباء، وظلت - ولا تزال - ترفد العالم الإسلامي والفكر الإسلامي بكبار الدعاة والأدباء والمفكرين. ويكفي أن نتذكر - على مستوى العالم الإسلامي المعاصر - بديع الزمان سعيد النورسي مؤلف الرسائل الشهيرة المائة والثلاثين، ومؤسس كبرى الحركات الإسلامية في الساحة التركية، وأحمد شوقي أمير الشعراء، والعقاد عملاق الأدب والفكر، اللذين ينحدران من أصول كردية. كما يكفي أن نتذكر على مستوى العراق شيوخًا وأكاديميين كبارًا في مجال اللغة والفقه كالزلمي ومحمد رمضان والمدرس وأمجد الزهاوي والقره داغي والبنجويني ومحمد النقشبندي، وغيرهم كثير.. يكفي أن نتذكر هذا وذاك لكي يتأكد لنا الدور الكبير الذي يحتله الكرد في نسيج الحضارة الإسلامية ودفقها المبدع.

فإذا ما عدنا إلى الوراء، باتجاه العصور الإسلامية السابقة، فإنّا سنجد حشدًا آخر من علماء الكرد الكبار وأدبائهم، كانت لهم أعظم الأدوار في إغناء الحضارة الإسلامية في مجالاتها ومعارفها كافة، ويكفي أن نتذكر أبناء الأثير الثلاثة عز الدين ومجد الدين وضياء الدين الذين تألّق أولهم في التاريخ، وثانيهم في الفقه، وثالثهم في الأدب. وآل الشهرزوري الذين تألقوا في القضاء وتسنموا مناصبه العليا في العديد من البلدان. وابن خلكان والأربيلي المؤرخين.. وحشودًا أخرى لا تُعد ولا تُحصى يمكن لأي باحث أن يضع يديه عليها وهو يجوس في كتب التراجم التي لا تبخل علينا بإضاءة حياة أولئك الأفذاذ الذين محضوا حياتهم للعلم والمعرفة، وإغناء حضارة الإسلام التي انتموا إليها وعشقوها.

حتى ملوك وأمراء وسلاطين الكرد كانوا يتكلمون العربية بطلاقة، ويكتبون بها بتمكّن، فهي لغتهم قبل أن تكون لغة العرب، بما أنهم جميعًا أبناء هذا الدين الذي لا يمكن الإلمام بمطالبه إلّا بالتمكن من اللغة التي تنزّل بها كتاب اللّـه، ونسج بمفرداتها فقهه العظيم. حتى لقد صرنا نجد سلطانًا كالناصر صلاح الدين، وغيره كثيرين، يتذوّق الشعر العربي ويترنّم به في المناسبات، فضلًا عن حشود الأدباء الكرد أنفسهم الذين أغنوا المكتبة الشعرية بالمزيد من الدواوين.

لقد كان حضور الكرد على مدى تاريخ الإسلام، وحتى اللحظات الراهنة، حضورًا مؤكدًا في المجالين السياسي والحضاري، الأمر الذي أهّل الكرد ليكونوا في طليعة الشعوب الإسلامية خدمةً لهذا الدين، وإخلاصًا لثوابته، واعتزازًا بتعاليمه، وإغناءً لمعطياته في مجالات الحياة كافة.

وجوابًا على السؤال الملحّ في جدلية العلاقة بين الكرد والإسلام، وهو: من أعطى من؟ نجد كيف أن الإسلام عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة، في نهاية الأمر، قدّم للكرد الكثير الكثير، وكيف أن هؤلاء كانوا بدورهم أوفياء له، بررة معه، فقدموا له الكثير الكثير.

* * *
* *
*

نشوء الحضارات ونموها في المنظور القرآني

في ختام سورة يوسف نقرأ هذه الآية الكريمة: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(١)، وهي تضعنا قبالة التعامل مع التاريخ بكل ما ينطوي عليه هذا الفرع المعرفي من شروط أساسية؛ فالسرد التاريخي في المنظور القرآني يستهدف البحث عن العبرة؛ أي الجوهر والمغزى، وهو خطابٌ موجهٌ لذوي البصيرة القادرين على سبر هذا المغزى، والإفادة منه في واقع حياتهم والتخطيط لمستقبلهم، وليس لذوي المصالح القريبة والتحزبات والأهواء. وهو - أيضًا - مُعطًى يحمل مصداقيته المنبثقة عن علم اللّـه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي وَسِع كل شيءٍ علمًا. فهو - إذن - ليس رجمًا بالغيب، ولا أهواءً وظنونًا، كما هو الحال في العديد من الأعمال التاريخية الوضعية.

فإذا مضينا لمطالعة القرآن الكريم كله، فإننا سنجد كتاب اللّـه يخصص مساحات واسعة، قد تزيد عن نصف القرآن للخبر المتحقق في الماضي، والسنن التي تحكمه؛ أي للتاريخ وقوانين الحركة التاريخية.

إن قصص الأنبياء والشهداء والقديسين.. أخبار الأمم والشعوب والجماعات والقرى.. حلقات الصراع المتطاول بين الحق والباطل والهدى والضلال.. كلها في نهاية الأمر عروض تاريخية تغذي هذا الفرع المعرفي بالمزيد من المفردات والإضاءات.

والتعامل القرآني مع التاريخ يأخذ صيغًا مختلفةً تتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصي لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الإنسان في الزمن والمكان؛ أي

(١) سورة يوسف: الآية ١١١.

في التاريخ، فإذا ما أضفنا إلى هذا وذاك تلك الآيات والمقاطع القرآنية التي يحدثنا عنها المفسرون في موضوع أسباب النزول، والتي جاءت في أعقاب عدد مزدحم من أحداث السيرة؛ لكي تعلّق وتعقّب وتفنّد وتلامس وتبني وتوجّه وتصوغ، استطعنا أن نتبين أكثر فأكثر أبعاد المساحات الكبيرة التي منحها القرآن الكريم للتاريخ.

إن جانبًا كبيرًا من سور القرآن الكريم وآياته البينات ينصب على إخطار البشرية بالنذير الإلهي، وينبثق عن رؤية وتفحص التاريخ، وبمقدور المرء أن يلحظ - عبر تعامله مع كتاب اللّـه - كيف تتهاوى الجدران بين الماضي والحاضر والمستقبل، كيف يلتقي زمن الأرض وزمن السماء، قصة الخليقة ويوم الحساب، عند اللحظة الراهنة؛ حيث تصير حركة التاريخ - التي يتسع لها الكون - حركة متوحدة لا ينفصل فيها زمن عن زمن، ولا مكان عن مكان، وحيث تغدو السنن والنواميس المفاتيح الضرورية التي لا بد منها لفهم تدفق الحياة والوجود، وتشكل المصائر والمقدّرات. ولنا أن نتصور القيمة البالغة التي أوْلاها كتاب اللّـه، وسنة رسوله ﷺ[١] لأحداث الماضي ذات الدلالة؛ أي للتاريخ.

* * *

يعتمد القرآن الكريم في معطياته عن الوحدة الاجتماعية ومسارها التاريخي مفردات من مثل: (الأمة والأمم)[٢]، (القرية والقرى وأهل القرى)[٣]، (أم القرى)[٤]، (المدينة)[٥]، (المدائن)[٦]، (الحاضرة)[٧]، (الجمع)[٨]،

---

(١) يقوم الباحث بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو بإعداد مؤلَّف بعنوان (دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية الشريفة) يفهرس ويحلل الأحاديث الصحيحة في هذا السياق.

(٢) ترد فيما يزيد عن ستين موضعًا. يُنظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، القاهرة (١٩٦٤م)، (ص٨٠).

(٣) ترد فيما يقرب من ستين موضعًا. يُنظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المرجع السابق (ص٥٤٣ - ٥٤٤).

(٤) سورة الأنعام: الآية ٩٢، سورة الشورى: الآية ٧.

(٥) ترد في أربعة عشر موضعًا. يُنظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص٦٦٢).

(٦) سورة الأعراف: الآية ١١١، سورة الشعراء: الآيات ٣٦، ٥٣.

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٦٣.

(٨) سورة القمر: الآية ٤٥، سورة القصص: الآية ٧٨، سورة العاديات: الآية ٥، سورة الأعراف: الآية ٤٨.

(القرون)[١]، فضلًا عن (القبائل) و (الشعوب) اللتين تردان مرةً واحدة في الآية (١٣) من سورة الحجرات. ولا نكاد نجد فيه المفردات المعتمدة في الدراسات الحديثة من مثل (الدولة) و (الحضارة). وترد فيه إحدى مشتقات (الاستعمار)[٢] بمعنى العمران البشري الذي اعتمده ابن خلدون في مقدمته، و (الاستخلاف) فيما سنتحدث عنه في هذه الصفحات.

ومهما يكن من أمر، فإن دلالة الكلمات هي التي تعنينا في هذا السياق، وعندما يتحدث القرآن الكريم عن ازدهار القرى والأمم أو انحلالها وأفولها، فإنه يعطينا مؤشرات واضحة عن العوامل نفسها التي تنشئ الدول والحضارات، أو تقودها إلى التدهور والسقوط.

عند ابن خلدون تنشأ الحضارة لدى توطن العناصر البدوية في الأمصار، وتجاوزها مرحلة التنقل والرعي، معتمدةً في نقلتها هذه قوة العصبية والدين[٣].

لدى هيغل ينشأ الفعل الحضاري من جدل (ديالكتيك) الأفكار ويمضي صعدًا صوب مرحلة (تجلي المتوحد) حين يصل (العقل الكلي) قمة تعبيره وتمام تطابقه على حضارة العالم ومؤسساته ومن خلالهما، ويبدو (البطل) و (الدولة) هاهنا قطب الرحى في صيرورة الحركة الحضارية[٤].

بالنسبة لماركس وإنغلز يكون القول الفصل للجدل أو الصراع في نطاق المادة ووسائل الإنتاج، وشبكة العلاقات والظروف التي تتمخض عنها وتعمل فيها، وما ينتج عن ذلك كله من بِنًى فوقية تستمد مقوماتها من السياقات الثلاثة[٥].

---

(١) ترد في ثلاثة عشر موضعًا. يُنظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص ٥٤٣).

(٢) سورة هود: الآية ٦١.

(٣) ينظر: عماد الدين خليل: ابن خلدون إسلاميًا، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت (١٩٨٥م)، الفصل الأول.

(٤) ينظر: عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٩١م)، الفصل الثالث، عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ، ترجمة كاظم الجوادي، الدار الكويتية، دون تاريخ (ص٦١ – ٦٨).

(٥) يُنظر: عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي، الفصل الثالث، فردريك إنغلز: التفسير الاشتراكي =

وطبقًا لشبنغلر، فإن النشوء الحضاري يتبع قوانين البيولوجيا عبر رحلة الميلاد، والتنامي، والاضمحلال، والموت. إنها أشبه بالحتمية التي تدور عبرها التجربة التاريخية دورتها المقفلة(١).

أما خلفه توينبي، فإن الحضارات تتشكل في منظوره من قدرة الجماعة (الشعب أو الأمة) على الاستجابة للتحديات البيئية (الجغرافية)، أو البشرية (التاريخية)، ويتناسب حجم الحضارة مع حجم الاستجابة كمًّا ونوعًا(٢).

أما القرآن الكريم فإنه يقدم صيغة تختلف عن السياقات آنفة الذكر، إن الفعل الحضاري أو العمراني يبدأ بتنزل (الوحي) وتلقي المنهج، وإعادة صياغة الوجود على هديه، ومن خلال تنزيل مطالبه ومفرداته على واقع الحياة والعمل على تنفيذ مقاصده.

لدى ابن خلدون نلتقي الإنسان إزاء (القبيلة)، ولدى هيغل الإنسان قبالة (الفكرة)، أما ماركس وإنغلز فإنهما يضعان الإنسان قبالة (الطبقة) و (وسيلة الإنتاج)، وأما شبنغلر فإنه يضعه قبالة (البيولوجيا) أو دورة الحياة، وبالنسبة لتوينبي فإن الإنسان يجد نفسه قبالة (البيئة) على المستوى الجغرافي (المادي) أو التاريخي (البشري).

فإذا جئنا إلى المنظور القرآني فإننا نجد الإنسان قبالة اللّـه ﷻ والعالم، في موقع وسط بين المشيئة الإلهية المطلقة وقوانين الكتلة، فهو تحت كلمة اللّـه، ولكنه فوق العالم الذي سُخر له ابتداءً لتنفيذ مهمته العمرانية فيه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ.. ﴾(٣)، ﴿ .. وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ

= للتاريخ، ترجمة راشد البراوي، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة (١٩٦٨م)، (ص٦٤ - ٦٥، ١١٩ - ١٢١).

(١) يُنظر: عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي، الفصل الثالث.

(٢) يُنظر: المرجع السابق: الفصل الثالث، أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة (١٩٦٠م)، الباب الثاني (ص٧٩ - ٢٧١)، منح خوري: التاريخ الحضاري عند توينبي، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٦٠م)، (ص١١ - ٤٦).

(٣) سورة النحل: الآية ١٢.

لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾(١)، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ .. ﴾(٢)، ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾(٣)، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ .. ﴾(٤).

هذا لا يعني عدم قـدرة الجماعـات الأخـرى التي لا تتلقـى المنهـج عن اللّـه ﷻ على إنشاء حضاراتها - ابتداءً - من ذوات أنفسها وقدراتها الذاتية، ولكنه يعني الفارق المؤكد بين منطلقات ومكونات نمطين من الحضارات: إيمانية ووضعية. كما أنه لا يعني عدم وجود ثوابت وقواسم مشتركة من قوانين الحركة التاريخية (تساعد) على نشوء الحضارات ونموها، بغض النظر عن المنطلقات والأهداف.

والقرآن الكريم يقدم إشارات ذات أهمية بالغة في تأكيد هذا المعنى، من مثل: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾(٥)، ﴿ .. وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ .. ﴾(٦)، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(٧)، ﴿ .. أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾(٨)، ﴿ .. وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَـٰلَكُم ﴾(٩)، ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾(١٠)، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾(١١)، ﴿ .. وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾(١٢).

* * *

حجر الزاوية ونقطة انطلاق الفعل الحضاري في المنظور القرآني هي لحظة

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ٣٢، ٣٣.
(٢) سورة الحج: الآية ٦٥.
(٣) سورة ص: الآية ٣٦.
(٤) سورة لقمان: الآية ٢٠.
(٥) سورة الإسراء: الآية ٢٠.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٠.
(٧) سورة الرعد: الآية ٤١.
(٨) سورة الأنبياء: الآية ٤٤.
(٩) سورة محمد: الآية ٣٨.
(١٠) سورة النساء: الآية ١٣٣.
(١١) سورة الشورى: الآية ٢٠.
(١٢) سورة الحديد: الآية ٢٥.

خلق آدم عليه السلام وفق الشروط والمواصفات التي تحدثنا عنها الآيات العشر في سورة البقرة(١)، ولكن - قبل هذا - هناك تمهيدات ذات عمق زمني موغل لا يعلمه إلّا اللّـه تأخذ الترتيب التالي:

الكون القريب ← العالم ← الإنسان

وبمقدور المرء أن يجد في الآيات والمقاطع القرآنية التي تتحدث عن هذا التمهيد - على اتساع فضائها المكاني والزماني - تأكيدًا على قصدية مسبقة تستهدف دورًا سيمارسه المخلوق القادم في الأرض: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. ﴾(٢)، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٣)، ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾(٤)، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٥)، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾(٦)، ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾(٧).

فإذا جئنا إلى المقطع القرآني المشار إليه قبل قليل، والذي ترد فيه الآيات العشر في السياق التالي: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

(١) سورة البقرة: الآيات ٣٠ - ٣٩.
(٢) سورة هود: الآية ٧.
(٣) سورة يونس: الآية ٥.
(٤) سورة الإسراء: الآية ١٢.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢٩.
(٦) سورة الأنبياء: الآيات ١٦ - ١٨.
(٧) سورة فصلت: الآيات ٩ - ١١.

قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ
فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا
عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ
قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ
تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ
مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا
وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا
فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ
مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم
مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1].

إذا جئنا إلى هذا المقطع فإننا سنجد أنفسنا قبالة شبكة من الشروط المسبقة في علم اللّـه، والتي ستمكن آدم وذريته من بعده من أداء دورهم العمراني في العالم.

وتأخذ المسألة طبقًا للآيات المذكورة التسلسل المحكم التالي:

١ - خلافة الإنسان في الأرض التي سُخرت أو مُهدت له ابتداءً.

٢ - منحه القدرات العقلية والنفسية والجسدية على الفعل والتعلم والاستيعاب والتخاطب.

٣ - التكريم الأدبي (أو المعنوي) بسجود الملائكة له.

٤ - مجابهته بإبليس وبدء الصراع.

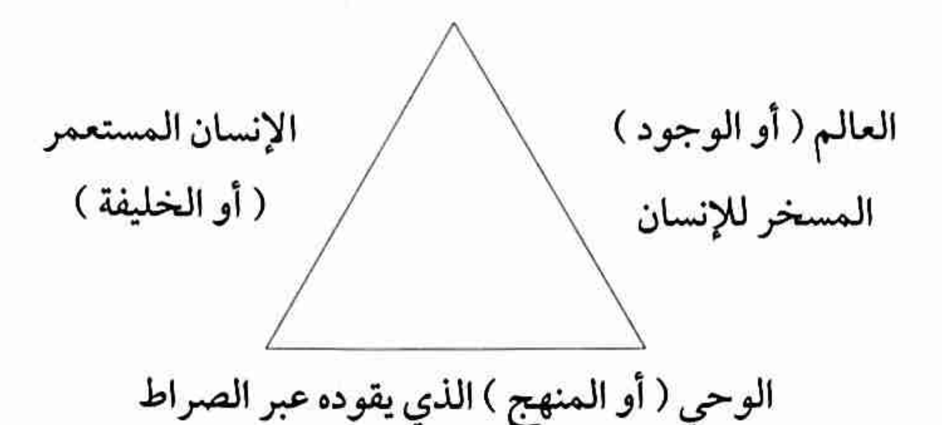
٥ - الهبوط (وليس السقوط) الموقوت.

٦ - تعليق مصائر الدور البشري في العالم على تلقي الهدي (أو المنهج) عن اللّـه ﷻ وتنزيله على واقع الحياة.

---

(١) سورة البقرة: الآيات ٣٠ - ٣٩.

فنحن - إذن - قبالة ما يشبه المثلث ذي الأضلاع الثلاثة:



الوحي (أو المنهج) الذي يقوده عبر الصراط

وهذه الشروط الستة لا تترك أية ثغرة قد يتسرب منها الخلل أو السكون في الصيرورة الحضارية: فالوجود البشري في العالم « وظيفة » عمرانية هدفها عبادة اللّـه ﷻ في عالم قد سُخر للإنسان ابتداءً، هذا الإنسان الذي مُنح القدرة على الفعل في مستوياته كافة: العقلية والنفسية والجسدية، والذي أوتي منذ لحظة الخلق الأولى مفاتيح « المعرفة » التي ستمكنه من التعامل مع العالم.

وحتى لا يحس الإنسان الذي سيُقدر له الخروج من الجنة، بالدونية - بكل ما تنطوي عليه من سلبية - أمر الملائكة بالسجود له، ومن أجل ألَّا يتعرض الجهد البشري في العالم إلى الكسل والترهل والسكون، استُفز بإبليس لكي يكون الصراع بين القطبين فرصةً للتدافع والقلق الفعال، والمضي إلى أعلى وإلى الأمام. ثم جاء الهبوط، الذي قُدر له في علم اللّـه، أن يكون مجرد حلقة تاريخية، ذات فضاء زمني ومكاني محدد، لممارسة الوظيفة البشرية في العالم. ولم يُترك الإنسان يتخبط أو يتعرض للضياع في البيئة الجديدة التي هبط (فيها) أو عليها، فتلقّى الوعد من اللّـه بتقديم « المنهج » الذي يقوده عبر الصراط، وينقذه من الطرق « المعوجة » بواسطة أنبياء اللّـه الكرام ومبعوثه الأمين عليهم السلام.

إننا - إذن - إزاء معادلة ذات أطراف ثلاثة، أو عمارة من أدوار ثلاثة يقوم أحدها على الآخر ويتناظر معه وفق علاقة هندسية معمارية مرسومة: الأرضية، والإنسان، وبرنامج العمل. هذه الأطراف التي تؤول - بالضرورة - ومن خلال معطياتها الخاصة وطبيعة علاقتها بالطرفين الآخرين، إلى فعل حضاري.

لقد أريد للعالم أن يكون صالحًا لاستقبال الإنسان، مناسبًا لقدراته الخاصة، مستجيبًا - بقدر - لمطامحه وأهدافه. وبانتظار العقل الذي سيفكر، واليد التي ستنفذ، والإرادة التي ستشد بين رؤية العقل وقدرة اليد، فإن العالم سيتشكل وفق صيغ ومعادلات تمكن القادم الجديد من أداء دوره الحضاري المطلوب، تمامًا كما سيتشكل القادم الجديد نفسه بالصيغ والشروط التي تعينه على أداء الدور.

والقرآن الكريم يحدثنا طويلًا - كما ألمحنا - عن سائر « العمليات » التي أريد منها تهيئة العالم لاستقبال المخلوق الجديد، وإحاطةِ نشاطاته المختلفة بالضمانات. إن التوجُّه الحضاري في كتاب اللَّه يمتد إلى ما قبل آدم، إنه كل فعل امتزجت فيه إرادة اللَّه وكلمته بالمادة فصاغتها كتلًا كونية، أو نظمًا طبيعية، أو خلائق تحمل بصمات الحياة الأولى من نباتٍ أو حيوانٍ.

وما دامت عملية بناء الكون، وتهيئة الأرضية الصالحة للحياة على الأرض، قد سبقت خلق آدم بأزمان لا يعلمها إلى اللَّه، وما دامت المقاييس الآدمية محدودةً إزاء خلق اللَّه، تتميز بالنسبية والقصور، فليس لنا أن نطمع للإحاطة الدقيقة الكاملة والتفسير الشامل لقضية « التكوين » هذه، وليس لنا - كذلك - افتراض نظريات لا جدوى من ورائها. إن هذا فوق طاقتنا، وإن أية محاولة في سبيله لا تعدو أن تكون عبثًا « ميتافيزيقيًا » يذكرنا بما كان يفعل جل الفلاسفة اليونانيين، والإسلاميين المتأثرين بهم. وهذا لا يعني - أبدًا - التشكيك بالمحاولات العلمية التجريبية لدراسة الجانب الطبيعي القائم « فعلًا » من الكون والعالم، والسعي للكشف عن قوانين بنيانهما المحكم؛ لأن هذا هو الموقف الذي يدعو إليه القرآن الكريم ويحض عليه في عشرات الآيات ومئاتها. إنما القصد هو الجانب الفلسفي التصوري لبدايات الخلق، والبحث عن « العلة » و « المعلول » و « متناهي الأول » و« واجب الوجود ».. إلى آخره. وكل ما يبينه القرآن عن امتداد عملية الخلق هذه في عصورنا التاريخية الراهنة والمقبلة، أن الكون ماضٍ في حركته الدانيامية نحو الاتساع الدائم بإرادة اللَّه: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[1]، وإن هذه الهدفية

(١) سورة الذاريات: الآية ٤٧.

على المستوى الكوني، وهذه الحركة صوب الاتساع لا بد وأن تنعكس في التصور الإسلامي على حركة التاريخ البشري نفسه، ومصير الإنسان في العالم، قبل أن يجيء اليوم الذي أعلن عنه القرآن مرارًا؛ حيث تطوى السماء كطي السجل للكتب وتكف الحياة عن الاستمرار تمهيدًا ليوم الحساب، وتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الخلق الإلهي الدائم: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[١].

والمهم هو أن كتلة العالم والطبيعة، وفق المنظور الإسلامي، قد سُخرت للإنسان تسخيرًا، وقد حدد اللَّه ﷻ أبعادها وأحجامها وقوانينها بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم، وقدرته على التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملًا إيجابيًّا فاعلًا. ولنتصور كيف سيكون الحال، على مستوى القدرة على التحضر، لو كانت الشمس أو القمر - على سبيل المثال - أقرب قليلًا أو أبعد قليلًا عن موقعهما المرسوم، ولو كانت الجاذبية أخف قليلًا أو أثقل قليلًا عن نسبتها المحسوبة. ولو كانت مكونات الغلاف الغازي غير ما هي عليه من النسب المحددة، ولو كانت مياه البحار والمحيطات خالية من الملح، والأجواء راكدة الرياح، ومحور الأرض عموديًّا.. إلى آخره.

إننا إذا أردنا أن نعتمد مصطلحات المؤرخ الإنكليزي أرنولد توينبي، فإننا سنرى في العالم « تحديًا مناسبًا » للإنسان، ليس معجزًا ولا هو دون الحد المطلوب لإثارة التوتر البشري الفعال. وكأن إرادة اللَّه ﷻ قد شاءت أن تقف به عند هذا الحد « الوسط » لكي يحقق الإنسان المدى الأقصى لمهمته العمرانية في الأرض. فلم يشأ ﷻ أن يمهد العالم تمهيدًا كاملًا ويكشف للإنسان عن قوانينه وأسراره بالكلية؛ لأن هذا نقيض مطالب الاستخلاف والتحضر التي تستلزم مقاومةً وتحديًا، واستجابةً ودأبًا وإبداعًا، ولأنه يقود الإنسان إلى مواقع السلبية ويسلمه إلى كسل لا تقره مهمته على الأرض ابتداءً. كما أنه ﷻ لم يشأ أن يجعل العالم على قدر كبير من التعقيد والصعوبة والانغلاق يعجز معها الإنسان عن الاستجابة

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.

والإبداع، الأمر الذي يتنافى - أيضًا - ومهمته الحضارية التي أُنيطت به لإعمار عالم غير مقفل ولا مسدود: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾(١)، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾(٢).

لقد استُخلف الإنسان - إذن - بما أُودع فيه من استعدادات ألمحنا إليها قبل قليل، في بيئة مناسبة للفعل الحضاري، وقد ترددت مسألة الاستخلاف هذه أكثر من مرة في كتاب اللّـه، الأمر الذي يؤكد ثقلها في تصميم الهيكل الحضاري للرؤيـة الإسلامـية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾(٣)، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾(٤)، ﴿.. وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾(٥)، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٦).

فإذا جئنا إلى الحد الثالث للصيرورة الحضارية في المنظور الإسلامي وهو برنامج العمل، أو الدين بعبارة أدق، فإننا سنجد أنفسنا قبالة « منهاج » شامل للحياة، يتحرك « الإنسان » في « العالم » وفق مقولاته وتوجهاته وأهدافه، ويمارس - على هديه - مهمةَ استخلافهِ العمراني على العالم الذي سُخِّر له ابتداءً.

---

(١) سورة الشورى: الآيتان ٢٧، ٢٨.
(٢) سورة الزخرف: الآيات ١٠ - ١٣.
(٣) سورة فاطر: الآية ٣٩.
(٤) سورة يونس: الآية ١٤.
(٥) سورة النمل: الآية ٦٢.
(٦) سورة النور: الآية ٥٥.

وبدون الوحي القادم من السماء يحمل المنهاج فإن الإنسان سيضيع ويفقد القدرة على أداء وظيفته المرسومة. وهكذا تلقّى آدم - منذ لحظة هبوطه الأولى - « كلمات » من ربه لتكون بمثابة الهادي والدليل، وجاءت الرسل من بعده تترى لأداء المهمة ذاتها.

إن « الدين » وفق هذه الرؤية يبدو برنامجًا حضاريًّا وهو يكمل ويناظر طرفي المسألة الآخرين: العالم والإنسان.

* * *

لم يقف القرآن الكريم عند حد الإخبار أو تحديد الشروط الملائمة للفعل الحضاري لحظة هبوط آدم ﵇، وإنما مضى عبر نسيجه كله يقدم المحفزات، وصيغ العمل، والأساليب التي تمكن الإنسان من إدامة جهده الحضاري (العمراني) ومده وإغنائه؛ أي - وفق المصطلح الحضاري - الانتقال بالحضارة من مرحلة النشوء إلى مرحلة النمو، فيما يبدو معه كتاب اللّه - بمعنى من المعاني - مشروعًا حضاريًّا مفتوحًا.

وعلى سبيل المثال - فإن القرآن الكريم يضع الجماعة المؤمنة في برنامج نشاط موصول ذي ثلاثة أبعاد: البعد التعبدي، والبعد المعرفي، والبعد العملي. وللوهلة الأولى يبدو أن البعد الأول معنيٌّ بالجانب الروحي، والبعد الثاني بالجانب العقلي، والبعد الثالث بالجانب الجسدي. ولكن المسلم - على وجه الخصوص - يعرف من خلال خبرته اليومية، وفقهه لكتاب اللّه ﷻ، أنه ليس ثمة فواصل في التجربة الإسلامية بين الروحي والعقلي والجسدي، وأن الممارسة التعبدية - مثلًا - تنطوي على بطانة عقلية وأخرى جسدية، وكذلك الأمر بالنسبة للممارسة المعرفية أو العملية.

إن كل ممارسة في المنظور الإسلامي، عبادةٌ يتقرب بها الإنسان إلى اللّه ﷻ، وقد جُعلت الأرض كلها كما يقول رسول اللّه ﷺ: « **طهورًا ومسجدًا** »[1]. وإذا

(١) أخرجه مسلم (١١٠٣)، وأخرجه البخاري بلفظ « مسجدًا وطهورًا » (٤٢٧).

كان الذكر هو لب العبادة، والشعائر الخمس هي الالتزامات التعبدية في حدودها الدنيا، فإن الفضاء يظل مفتوحًا للمزيد من التعبد، ليس فقط بالممارسة الروحية، وإنما - أيضًا - بالعمل والمعرفة، ويصبح أي جهد عقلي أو جسدي، إذا أريد به وجه اللَّـه، تعبدًا للَّـه وتقربًا إليه، كما تصير العبادة نفسها مشروعًا عمليًّا ومعرفيًّا لترقية الحياة وإغنائها.

ومهما يكن من أمر، فإننا إذا جئنا إلى كل واحد من السياقات الثلاثة فإننا سنلحظ بوضوح - ودون أية محاولة للإقحام -، كيف أنه يمارس دوره في شحذ مهمة الإنسان العمرانية في العالم وحمايتها من التآكل أو السكون.

فالعبادة تمضي بالإنسان والجماعة صعدًا عبر مواقع الإسلام والإيمان والتقوى فالإحسان؛ لكي تجعلهما إزاء الحضور الإلهي في أقصى حالات التوتر الفعال والأداء في وتائره العليا، وهي مسألة ذات ارتباط أكيد بالمعطى الحضاري. هذا إلى أنها تمارس دورًا تحريريًّا للإنسان إزاء كل الطاغوتيات والصنميات والحتميات وعوامل الشد والإعاقة التي تكبله عن التعبير عن طاقته، ولنا أن نتذكر - مرةً أخرى - كيف أن العبادة في المنظور الإسلامي لا تقتصر على الشعائر المحدودة في الزمن والمكان فحسب، وإنما تمضي إلى كل جهد بناء، أو إضافة ذات غناء يبتغي بها المرء وجه اللَّـه سبحانه وتعالى.

إن عبادة اللَّـه وحده، بالمفهوم الشامل، هي الهدف الذي يتحتم على الإنسان فردًا وجماعةً، أن يصعد إليه أوجه أنشطته كافة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾[1]. وبينما ترسم المذاهب الوضعية - هي الأخرى - أهدافًا لحركتها الحضارية، تتميز - حينًا - بالغموض والمثالية، كما هو الحال عند هيغل، وتتميز - حينًا آخر- بالتحديدات المادية الصارمة، كما هو الحال عند ماركس وإنغلز، الأمر الذي قاد الأوّل - وهو يتحدث عن تجلّي المتوحد من خلال الدولة - إلى أن يعطيها المبررات الفلسفية لممارسة سياستها العدوانية التي قد تقود إلى الدمار الحضاري والظلم البشري، وقاد الآخرين

---

(١) سورة الذاريات: الآيتان ٥٦، ٥٧.

إلى تبني مبدأ دكتاتورية الطبقة العاملة وتبرير أي أسلوب تعتمده لتحقيق أهدافها ما دامت لا تعدو أن تكون منفذةً أمينة لمنطق التبدل في وسائل الإنتاج، الأمر الذي قادها إلى تنفيذ عدد لا يُحصى من المجازر الجماعية تجاه القوى المعارضة فيما هو نقيض التحضر والعمران.

بينما ترسم المذاهب الوضعية أهدافًا كهذه، نجد الموقف الإسلامي يحدد هدفه الواضح المتوحد المفتوح الذي يستقطب الفاعليات والمعطيات كافة: عبادة اللّـه، والتوجه إليه، والتلقي عنه؛ لكي تتوحد في ممارساتها مع النواميس الكونية الشاملة، والنظام الإلهي الملزم في مداه البعيد، والذي ما منح هذا القدر من الحرية للإنسان إلا لكي يعتمدها باختياره في التساوق مع هذا النظام، والاندماج في المجرى العام للخلائق جميعًا، تمييزًا له - بهذه الحرية التي تنبثق عن دوره كخليفة ومكانته كسيد للعالمين - عن سائر خلق اللّـه.

وثمة فارق شاسع، على كل المستويات الذاتية والحضارية والاجتماعية، في النتائج المتمخضة عن نشاط يبذله الإنسان وهو متساوق مع نواميس الوجود، متناغم مع مسيره ومصيره، أو وهو منشق على هذه النواميس متنافر معها بدءًا ومصيرًا.

أما الجهد العقلي أو المعرفي فقد أريد له - ابتداءً - أن يكتشف سر الأشياء، وينقب عن السنن والنواميس، ويتعرف على العالم الذي سُخر له ابتداءً، من أجل ابتكار وتقديم التيسيرات الضرورية في حياة المؤمن، فيتمكن - بذلك - من التحرر من شد الضرورات وضغوطها، والتمحض أكثر فأكثر للّه.

إننا نجد، من بدء القرآن حتى منتهاه، خطابًا معرفيًّا يرفع نداءه بالمفردات التي تتردد في جنبات كتاب اللّـه: اسمعوا، أبصِروا، سيروا، تفكروا، تدبروا، تفقهوا، اعلموا.. إلخ، عبر عشرات المواضع ومئاتها، وهو هنا لا يريد المعرفة لذاتها، وإنما لتحويلها إلى أداة صالحة لتحقيق المهمة العمرانية في العالم، وتمكين الجهد التعبدي من مواصلة الطريق(١).

---

(١) يُنظر بالتفصيل: عماد الدين خليل: حول إعادة تشكيل العقل المسلم، سلسلة كتاب الأمة، الدوحة (١٩٨٥م)، (ص٤١ - ٦١).

أما (العمل)، وما يرتبط به من دعوة مؤكدة في عشرات المواضع، للإصلاح ووقف الإفساد والتخريب، فيكفي أنه ورد في كتاب اللّـه، بتصريفاته المختلفة أكثر من ثلاثمائة مرة، كأنه يريد تذكير المؤمن بأن عليه أن يعمل على مدار السنة ذات الثلاثمائة والستين يومًا، لا يكل ولا يتكاسل، « **فمن استوى يوماه فهو مغبون** »(١) كما يقول رسول اللّـه ﷺ.

إننا نقرأ في كتاب اللّـه هذ الدعوة الشاملة للعمل: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾(٢)، ونتذكر حديث الرسول ﷺ: « **إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألَّا تقوم حتى يغرسها فليغرسها، فله بذلك أجر** »(٣)، فنعرف كيف أن الدور الحضاري للإنسان والجماعة المؤمنة يقوم على العمل والإبداع المتواصلين منذ لحظة الوعي الأولى وحتى ساعة الحساب، ونعلم كيف أن الحياة الإسلامية يجب أن تكون فعلًا إبداعيًا موصولًا..

إن العمل - على ذلك - هو المحور الأساس لوجود الإنسان فردًا وجماعةً على الأرض، وبمعياره يتحدد المصير في الدنيا والآخرة، وهو موقف ينسجم تمامًا مع مبدأي « الاستخلاف » و « الاستعمار » اللذين أشرنا إليهما.

والعمل في المنظور القرآني لا يتشكل بمعزل عن الإيمان، ولكنه مشروط به، وطالما أكدت المعطيات القرآنية على حقيقة أن موقف الإنسان في العالم سيؤول إلى الخسران بمجرد افتقاد شرطيه الأساسيين: الإيمان، والعمل الصالح: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾(٤)، ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ .. ﴾(٥).

---

(١) رواه السخاوي بسند ضعيف في المقاصد الحسنة (ص٤٠٢)، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٥.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سورة العصر: الآيات ١ - ٣.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

والإيمان الذي يقوم عليه بنيان الدين يجيء بمثابة « معامل حضاري » يمتد أفقيًّا لكي يصب إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب ويوجّهها في مسالكها الصحيحة، ويجعلها تنسجم في علاقاتها وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسها فيزيدها عطاء وقوة وإيجابية وتناسقًا، كما أنه يمتد في العمق ليبعث في الإنسان الإحساس الدائم بالمسؤولية، ويقظة الضمير، ويدفعه في سباق زمني لاستغلال الفرصة التي أُتيحت له كي يفجر طاقاته، ويعبر عن قدراته التي منحه اللّـه إياها، على طريق (القيم) التي يؤمن بها و (الأهداف) التي يسعى لبلوغها، فيما يعتبر جميعًا - في المنظور الإسلامي - عبادةً يتقرب بها الإنسان إلى اللّـه.

ومع (العبادة) و (المعرفة) و (العمل)، هناك دعوة قرآنية مؤكدة لتوظيف (الزمن) و (المكان)، وهي مسألة ذات أهمية بالغة في نشوء الحضارات ونموها.

والقرآن الكريم يصف المؤمنين الجادين بأنهم ﴿ .. وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ .. ﴾[١] وأنهم ﴿ .. لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[٢]، والمسارعة والسبق مفردتان تحملان دلالتهما الزمنية على ضرورة توظيف الزمن باعتباره الفرصة التي منحها اللّـه للإنسان؛ حيث يتحتم عليه الإحسان في التعامل معها.

ومع توظيف الزمن دعوة لتوظيف المكان، والتعامل بجدية مع الكتلة التي سُخرت للإنسان ابتداءً، والتي صيغت سننها وأبعادها بما ينسجم ومهمة الإنسان العمرانية في العالم، شريطة أن يشمر عن ساعد الجد ويعمل عقله وجهده لاكتِناه سرِّها وتوظيف طاقاتِها لأداء مهمته في الأرض.

والملاحظ في علاقة الإنسان بالكتلة أو المكان، أنها في الإسلام تأخذ طابع الألفة والتناغم والانسجام مع العالم، ومحاولة التعرف عليه وتوظيفه، كما أنها تصور العالم ليس خصمًا غامضًا يقف في مواجهة الإنسان فيدفعه هذا إلى غزوه وهتك سره وإشهار الحرب ضده، إنما خادم مطيع لمطالب الإنسان وضروراته.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٤، سورة الأنبياء: الآية ٩٠، سورة المؤمنون: الآية ٦١.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٦١.

وإذا كانت الكتلة في بعض المذاهب الوضعية تتحول إلى حتميات تقهر الإنسان وترغمه على الخضوع لمقولاتها، وإذا كانت في مذاهب أخرى خصمًا يتحتم غزوه، فإنها في المنظور القرآني تأخذ موقعها الملائم في خدمة الإنسان، تخضع وتعطي، إذا أحسن التعامل معها، ولا تُقهر وتُستعبد كما هو الحال في العديد من النظريات والمذاهب الوضعية.

وفي كل الأحوال يغدو الزمن والمكان - في المنظور القرآني - فرصةً مضافة لأداء الدور العمراني، وفضاءً ملائمًا لنشوء الحضارات وازدهارها.

* * *

ويبدو الصراع في القرآن الكريم فرصة، أو آلية أخرى، للفعل الحضاري، ويجب أن نتذكر أنه في الإسلام لا يغطي الصراع مساحة التجربة كلها (كما هو الحال مثلًا في بعض مذاهب التفسير التاريخي وبخاصة المادية التاريخية) فهنالك، وبموازاته عنصر التناغم والتوافق الذي يغطي المساحة الأوسع، ومهما يكن من أمر فإنه في القرآن الكريم يحمل خصوصياتِه بالمقارنة مع المذاهب الأخرى.

إن أبرز معطيات (المثالية) الهيغلية تتمثل في ذلك التأكيد الدائم على أن الحركة الحضارية تحقق مسيرتها صوب الأكمل والأحسن عن طريق الصراع المستمر بين النقائض في عالم الأفكار. وجاء رواد التفسير المادي (ماركس وإنغلز) لكي يأخذا عن هيغل مقولته في صراع النقائض كأساس للحركة الحضارية، وسحبها من عالم الأفكار إلى عالم المادة، ووسائل الإنتاج على وجه التحديد، تلك التي تخلق ظروفها الإنتاجية فصيغها الحضارية. واتّهم الرجلان هيغل بأنه صنع رجلًا يمشي على رأسه، ولكنهما وهما بصدد تعديل الوقفة أخطآ المحاولة فصنعا رجلًا يمشي على بطنه.

وعندما جاء توينبي قدم نظريته في (التحدي والاستجابة) مفسرًا بها حركة الحضارات نشوءًا ونموًّا وتدهورًا وانحلالًا، وهي في نبضها تقوم على الجدل أو الصراع بين الإنسان والبيئة الجغرافية أو الظرف التاريخي، مانحةً الإنسان والجماعة فرصتهما في الاختيار وتقرير المصير بخلاف العديد من المذاهب الأخرى.

بمجرد أن نرجع ثانيةً إلى واقعة خلق آدم فإننا سنلتقي بهذا المقطع ذي الارتباط الوثيق بمسألة الصراع: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[١].

فمنذ لحظات الخلق الأولى ينفجر الصراع باتجاهين: بين الإنسان والشيطان، وبين الإنسان والإنسان. ثم ما يلبث أن يمتد إلى مساحات واسعة تضم جناحيها حتى على الفضاء المكاني الذي يتعامل معه الإنسان؛ حيث نجد أنفسنا قبالة التضاد الموزون بين السالب والموجب، والتركيب الزوجي الذي يتجاوز عوامل الحياة على اختلاف درجاتها إلى صميم المادة، وهو في كل الأحوال مصدر التوليد والتكاثر، الحركة والاتساع[٢].

على مستوى الإنسان والبشرية يأخذ الصراع، أو التقابل الثنائي الفعال، أكثر من صيغة، ويمتد إلى أكثر من اتجاه. فهناك الصراع بين الإنسان والشيطان، وهو صراع شامل واسع معقد متشابك.. إنه تقابل بين الخير والشر على أوسع الجبهات.. تقابلٌ لا بد منه إذا ما أريد للحياة البشرية أن تتجاوز الكسل إلى النشاط، والفتور إلى التمخض، والسكونَ إلى الحركة. إنه ابتلاء فعال لن يأخذ تاريخ البشرية - بدونه - صيغته الإيجابية ولا يمضي إلى غاياته الموسومة منذ هبوط آدم إلى يوم الحساب: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[٣]، ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[٤]، ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ .. ﴾[٥]، ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ .. ﴾[٦].

على مستوى الإنسان نفسه يأخذ الصراع، والتنوع، والاختلاف، والتضاد،

---

(١) سورة البقرة: الآيات ٣٤ - ٣٦.

(٢) ينظر: سورة الشعراء: الآية ٧، سورة لقمان: الآية ١٠، سورة ق: الآية ٧، سورة الذاريات: الآية ٤٩، سورة عبس: الآية ٣٦، سورة الزخرف: الآية ١٢، سورة طه: الآية ٥٣.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٣.

(٥) سورة الحج: الآية ٥٣.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

صيغًا شتى، تستقطبها كلمتا الإيمان والكفر، أو الحق والباطل، ومن خلال الصراع المتطاول بين الأضداد تتحرك مياه التاريخ، فلا تركد ولا تسكن، وتحفظ بهذا قدرتها على التجدد والنقاء.

إن الإرادة الحرة والاختيار المفتوح اللذين مُنحا للإنسان فردًا وجماعةً، للانتماء إلى هذا المذهب أو ذاك يقودان - بالضرورة - إلى عدم توحد البشرية وتحولها إلى معسكر متشابه واحد أو أرقام في جداول رياضية صماء.. إن قيمة الحياة الدنيا وصيرورتها الحضارية الدائمة تكمن في هذا الصراع القائم بين كتل البشرية المختلفة، المتضادة، الموزعة، وإن حكمة اللّـه سبحانه شاءت، حتى بالنسبة للكتلة أو المعسكر الواحد أن تشهد انقسامًا وتغيرًا وتنوعًا وصراعًا، تمييزًا لها عن حياة الخلائق الأخرى الأعلى مرتبةً أو الأدنى سُلّمًا: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[١]، ﴿ .. لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ .. ﴾[٢]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[٣].

بل إن القرآن، انطلاقًا من رؤيته الواقعية، يبين في أكثر من موضع كيف أن (الأكثريات) البشرية تقف دائمًا بمواجهة الحق الذي لا تنتمي إليه إلَّا القلة الطليعية الرائدة، نظـرًا لما يتطلبه هذا الانتماء من جهد وتضحية وعطاء دائم لا يتقبلها الكثيرون[٤].

وكثيـرًا مـا يكون اختـلاف الألسنة والألـوان، والـذي يعقبه تغايـر الثقافـات والأجناس، أحد العوامل المؤثرة التي تكمن وراء الصراع البشري المحتوم[٥].

---

(١) سورة الشورى: الآية ٦١.
(٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.
(٣) سورة هود: الآيتان ١١٨ - ١١٩.
(٤) ينظر: سورة المؤمنون: الآية ٧٠، سورة الزخرف: الآية ٧٨.
(٥) يُنظر: سورة الروم: الآية ٢٢.

أما الهدف من وراء هذا التغاير الذي يعقب تنوعًا وتدافعًا وصراعًا، فهو - مرة أخرى - تحريك الحياة نحو الأحسن، وتخطي مواقع الركون والسكون والفساد، ومنح القدرة للقوى الإنسانية الخيرة كي تصقل قدراتها قبالة التحديات المتعاقبة التي يفرضها التدافع، وأن تسعى لتحقيق المجتمع المؤمن الذي ينفذ أمر الله ﷻ في العالم: ﴿ .. وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١)، ﴿ .. وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾(٢).

هذا إلى أن الصراع يغدو ميدانًا حيويًّا، للكشف عن مواقف الجماعة البشرية والتعرف على أصالة المؤمنين. ففي جحيم المعارك، وعلى وهجها المضيء يتضح الذهب من التراب، ويتميز الطيب من الخبيث، ويسقط كل الضعفة والمنافقين والعاجزين والمترددين عن مواصلة الحركة صوب المصير المرسوم: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾(٣)، ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا .. ﴾(٤)، ﴿ .. وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ .. ﴾(٥).

وبينما تسعى بعض المذاهب الوضعية إلى تصور عالم لا صراع فيه (المثالية في مرحلة تجلي المتوحد والمادية التاريخية في مرحلة حكم البروليتاريا) يسوده السلام والمحبة، فتتجاوز بهذا واقعيتها وتغفل عن أصول الحركة الحضارية، نجد القرآن الكريم يقدم رؤية واقعية، ويتعامل مع تجارب واقعية وينبثق عن تصور يجمع الماضي والحاضر والمستقبل، فيؤكد ظاهرة الصراع من جهة، ويقر من جهة أخرى التمايز الأبدي للشعوب والأقوام والجماعات، ويصعّد - من جهة ثالثة -

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥١.
(٢) سورة الحج: الآيتان ٤٠، ٤١.
(٣) سورة محمد: الآية ٣١.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٣٧.
(٥) سورة محمد: الآية ٤.

صيغ الصراع والتدافع حتى ليصل بها إلى مرحلة التعارف والتعاون دون أن يتجاوز بهذا واقعيته أبدًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[١].

أما دور الإنسان والجماعة المؤمنة في ميادين الصراع الدائم فيأخذ اتجاهين:

أحدهما: ذاتي يمارسه الإنسان المسلم فيما سماه الرسول ﷺ: (الجهاد الأكبر) لما يتطلبه من مصاعب ويستلزمه من قدرة على المقاومة والمراقبة والحذر والتجرد، وهو يهدف إلى مواجهة الإنسان لذاته وتغييرها تغييرًا حركيًّا مستمرًّا من أجل أن يسقط عنها كل النزعات والشهوات والممارسات السلبية التي من شأنها أن تصدها عن التحقق العقدي الذي يتطلب شروطًا نفسية وأخلاقية وذهنية. وبدون هذا الجهد المتواصل من أجل تغيير الذات فإنه لا ينتظر حدوث تغيير أساسي على مستوى الصراع الخارجي في العالم: ﴿ .. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴾[٢].

وأما **الاتجاه الثاني** فهو ما يصطلح عليه القرآن والسنة باسم (الجهاد)، وهو يتضمن كل أشكال الصراع الخارجي على الإطلاق: مذهبيًّا، سياسيًّا، عسكريًّا، أخلاقيًّا، اقتصاديًّا وحضاريًّا، وهو - بهذا - يحتل مساحة للحركة أوسع بكثير من تلك التي تحتلها صراعات التفسير الوضعي وبخاصة المثالية والمادية. كما أنه يتضمن ديمومة زمنية يعبر عنها حديث الرسول ﷺ: « **الجهاد ماضٍ منذ أن بعثني اللـه إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال** »[٣].

إن القرآن الكريم يبين لنا كيف أن هذا الجهاد هو صراع دائم بين معسكرين كبيرين كل منهما ينتمي إلى فكرة، ويلتزم موقفًا، ويعمل في سبيل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[٤]، وسواء تم النصر لمعسكر الإيمان في مراحل تاريخية محددة، كما حدث - فعلًا - لعديد من الأديان السماوية الكبرى، أم أنه سيتم -

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٢) سورة الرعد: الآية ١١.
(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٣٢).
(٤) سورة النساء: الآية ٧٦.

ثانيةً - لحساب الإسلام، كمحصلة نهائية للموقف الديني في يوم قريب أم بعيد، فإن جهاد المؤمنين ماضٍ في بقاع العالم، بكل وسيلة شريفة، وإلى يوم القيامة، وهو الذي حركهم، ويحركهم دومًا لتحقيق كلمة اللّـه: ﴿ .. وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١).

إن الجهاد - سواء بالكلمة والحوار أم القوة والصراع وفق مقتضى الحال - يضع الأمة الإسلامية أمام مسؤوليتها الحضارية في العالم، ويمنحها فاعلية دائمة أمام التجارب والمواقف البشرية، تتجاوز حدود الزمان والمكان، ويرفعها إلى موقع (الشهادة) على الناس، ذلك الموقع (الوسط) المميز، المتفرِّد، الذي لن ترتفع إليه إلَّا عندما تمارس جهادها الدائم على كل الجبهات: أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وحوارًا بالكلمة وكفاحًا مسلحًا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴾(٢).

* * *
* *
*

(١) سورة يوسف: الآية ٢١.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

سقوط الدول والحضارات
في المنظور القرآني

تلقى النص القرآني عبر العصور الكثير الكثير من المعالجات والدراسات، سواء في العقيدة أو التشريع أو آداب السلوك، أو النحو واللغة والبلاغة، بينما ظلت حلقة مهمة لم تُعطَ العناية الكافية رغم أن القرآن الكريم منحها مساحةً واسعةً جدًّا، تلك هي حلقة الفقه الحضاري التي تُعنى بمتابعة قوانين الحركة التاريخية، أو سنن اللَّـه العاملة في التاريخ.

كان هناك نوع من عدم التوازن في التعامل مع النص القرآني، حيث تُركت هذه الحلقة إلى فترات متأخرة نسبيًّا عندما جاء ابن خلدون في القرن الثامن الهجري لكي يضع يديه في « المقدمة » على شبكة من قوانين الحركة التاريخية التي تشكّل المجتمعات وتنشئ الدول والحضارات أو تقودها إلى التفكك والزوال. لكن ابن خلدون - على تألُّقه وتفرده وقدرته على الاكتشاف وريادته في مجال علم الاجتماع، وتفسير التاريخ أو فلسفته، فيما يعترف به الغربيون قبل الشرقيين - لم يُشر - ولا يدري المرء لماذا؟ - إلى أن القرآن الكريم سبقه في التأكيد على هذه المسألة وإعطائها مساحاتٍ واسعة في سوره وآياته البينات.

مهما يكن من أمر، فإن الخطاب الدعوي في القرآن الكريم يتحرك عبر ثلاث قنوات أو بوابات كبرى: **أولاها**: التاريخ؛ أي الزمن، **وثانيتها**: العالم والطبيعة والكون؛ أي المكان، **وثالثتها**: اليوم الآخر؛ أي المصير. وسنقف قليلًا عبر هذه المحاضرة الموجزة عند البوابة الأولى حيث نجد النص القرآني يمنح أكثر من نصف مساحته للتاريخ وسننه وقوانينه، وهو يقودنا من وراء الأحداث والوقائع والتفاصيل إلى المغزى أو القانون الذي يتشكل الحدث بموجبه وتنسج حيثياته لحظةً بلحظة ودقيقةً بدقيقة.

يكفي أن نتذكر الآية الأخيرة في سورة يوسف: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ

﴿كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، لكي نعرف الأهمية الكبيرة التي أوْلاها القرآن الكريم للتاريخ وسننه.. للوقائع التاريخية ولما وراءها من قوانين تحركها وتسوقها إلى مصائرها.

ورغم أن القرآن الكريم أعطى هذه الأهمية للتاريخ وسننه، إلَّا أنه لم يشأ أن يجعل الأجيال المتعاقبة على مر الزمن أسيرةً للتاريخ، مشدودة الأعناق إلى الماضي، تنوء بوقره الثقيل.. إن هذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، يمسك دائمًا بالعصا من أوسطها - إذا صح التعبير - فهو يضعنا في التاريخ عبر ما يزيد عن نصف مساحته من خلال قصص الأنبياء عليهم السلام وحركة الصراع الأبدي بين التوحيد والشرك، وهو يحررنا - في الوقت نفسه - من التاريخ فيما نجده في آيتين متقاربتين من سورة البقرة تصاغان بالمفردات نفسها: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].. وذلك من أجل أن يضعنا في قلب العصر قبالة تحديات الواقع ومطالب المستقبل وضروراته.

وبقدر ما يتعلق الأمر بمتابعة الظاهرة التاريخية في النص القرآني، فإنها بحاجة إلى المزيد من التحليل والدراسة بسببٍ من ارتباطها الوثيق بصراع الأمم والشعوب، والتحديات التي تجابه الأمة الإسلامية عبر اللحظات الراهنة، وإمكانات الانبعاث والنهوض مرةً أخرى..

إن القرآن الكريم يقدم عبر تجواله في التاريخ جملةً من الإشارات الضوئية التي تعين الأمة على وضع خطواتها على الطريق الصحيح، وتمنحها الأمل فيما سيتشكل من مصائر ومقدرات على مستوى العالم، وتخرجها من دائرة السوء والانكسار التي قادتها إليها معطيات القرون الأخيرة.. إن الذي تعانيه الأمة ليس هو قدرها النهائي ولا نهاية المطاف: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ

---

(١) سورة يوسف: الآية ١١١.
(٢) سورة البقرة: الآيات ١٣٤، ١٤١.

مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

إن القرآن الكريم يربط دائمًا الأسباب بمسبباتها والنتائج بمقدماتها، ولا بد إذن - في المنطوق القرآني - من الأخذ بالأسباب.. هذا هو المفتاح الأساس، ونحن لا نستطيع أن نجد آيةً واحدة تعدنا بالنهوض كرةً أخرى إلَّا وهي مشروطةٌ بالعمل والفاعلية، والأخذ بالأسباب.. وبدون ذلك لن يكون بمقدور الإيمان، أو العبادة المنفصلة عن العمل في واقع الحياة.. أن تؤدي دورها في إعادة الأمة إلى التاريخ مرةً أخرى، بعد أن خرجت من التاريخ.. وإلى أن تبدأ خطواتها في إعادة نسج حضارتها الإسلامية الواعدة بعد أن تفككت وفقدت قدرتها على الفعل والإنجاز. إن الزمن المخصص لمحاضرة موجزة كهذه لا يسمح بالخوض في قوانين الحركة التاريخية التي عني بها فلاسفة التاريخ وبخاصة في القرون الثلاثة الأخيرة بدءًا من أوغست كونت، مرورًا بهيغل وماركس وإنغلز وكروتشه واشبنغلر، وصولًا إلى أرنولد توينبي.

ولحسن الحظ، فإن ربع القرن الأخير شهد على مستوى دور النشر والدوائر الأكاديمية عددًا طيبًا من الأعمال المعنية بدراسة هذا الجانب المهم من النص القرآني، ولا أكون مبالغًا إن قلت بأن: ما يزيد عن عشر رسائل للماجستير والدكتوراه أُنجزت عن سنن اللّـه العاملة في التاريخ، في جامعات عربية وإسلامية مختلفة، والمستقبل القريب يعد بالمزيد - إن شاء اللّـه - لملء هذا الفراغ المُلحّ الذي يُعد عبر اللحظات الراهنة ضرورةً من الضرورات على المستويين الدراسي والواقعي.

سأنتقل فيما تبقى من وقت من التعميمات أو المداخل العامة إلى اختبار عينة محددة، أو تأشيرة قرآنية واحدة تعطينا مثلًا فحسب عما ينطوي عليه القرآن الكريم بخصوص قوانين الحركة التاريخية، تلك الآية التي تقول: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٣٧ - ١٤٠. (٢) سورة الرعد: الآية ٤١.

إننا في العصر الراهن الذي مُنيت فيه الأمة بالهزائم والانكسارات، بأمسّ الحاجة إلى أن نقف طويلًا عند هذه الآية، لكي تمنحنا الأمل بالمصير من جهة، وتبين لنا - من جهةٍ أخرى - أن التاريخ لن يكون في يوم من الأيام ملكًا لقوة في الأرض، وأنه يقدم لنا معطيات معاكسة تمامًا لما ادعته الماركسية - يومًا - بخصوص فكرة نهاية التاريخ؛ حيث تتوقف حركته عند مرحلة حكم البروليتاريا (أي الطبقة العاملة) وتتراجع إلى الأبد معطيات الصراع الطبقي وإفرازاته كالعائلة والدين والوطنية والقيم الأخلاقية، في ضوء ما سماه ماركس وإنغلز في بيانهما الشيوعي بالقوانين العلمية لحركة التاريخ؛ حيث يبلغ التاريخ محطته الأخيرة فلا ظالم ولا مظلوم.

ما لبثت هذه النظرية التي تتناقض وقوانين الحركة التاريخية أن انهارت، وانهارت معها المؤسسة الكبرى للاتحاد السوفياتي بعد إذ تبين عجزها عن الاستمرار.

الآن.. هناك ادعاء مشابه لدى المنظرين في الساحة الغربية الرأسمالية، يوازي هذا الذي قالت به الماركسية، ولكنه يخالفه بزاوية مقدارها مائة وثمانون درجة، وسيؤول بالتأكيد إلى المصير نفسه الذي آلت إليه الماركسية تنظيرًا وتطبيقًا، وهو ما يسمى بنظرية (نهاية التاريخ) التي كان المفكر الأمريكي (فرنسيس فوكوياما) قد نسج حيثياتها في ثمانينيات القرن الماضي وقدمها في كتابه المعروف الذي يحمل الاسم نفسه، ثم ما لبث أن عاد في أواخر التسعينيات لكي يجري عليها بعض التعديلات بما يجعلها أكثر قبولًا وتوافقًا مع المعطيات والخصوصيات التاريخية للأمم والشعوب.

وتلك هي إحدى إشكاليات العقل الغربي الوضعي التي تنطوي على ما يستحق التقدير والرفض في الوقت نفسه.. التقدير للجرأة التي يملكها الغربيون في نقد وتعديل أنساقهم الفكرية لحظة يتبين وجود خطأ ما في جانب من جوانبها، وقد يقودهم هذا - كما حدث في كثير من الأحيان - إلى رفض النسق الفكري بكليته والانقلاب عليه والبحث عن بدائل أكثر إحكامًا..

وأما ما يستحق الرفض والنقد في ممارسات العقل الغربي فهو ذلك التقليد الفكري الخاطئ الذي يجعل أي مفكر في الساحة الغربية، عندما يكتشف حقيقة

أو معلومة ما تحمل أهمية معرفية، فإنه يحاول أن يَمْطَّها بأكثر مما تطيق من أجل أن يحولها إلى نظرية أو عقيدة تتحكم بالحقائق الكبرى وتصادر العقل البشري وتحاول أن ترغمه على الدخول من عنق زجاجتها الضيق.. فما تلبث أن تقع في الخطأ وتدفع المستعبَدين - بحكم قوانين رد الفعل - إلى التمرد عليها وإسقاطها من الحساب.. لقد حاول ماركس وإنغلز - على سبيل المثال - أن يحكما كشفهما بخصوص الصراع الطبقي والتبدُّل في وسائل الإنتاج، بمجرى التاريخ البشري ومعطياته كافة بما في ذلك الظاهرة الدينية.. (سيغموند فرويد) فعل الشيء نفسه إزاء كشوفه في مجال النفس والضغوط الجنسية.. و (دُركايم) مع نظريته في العقل الجمعي.. (وجان بول سارتر) مع وجوديته.. بل ما حدث ويحدث عبر العقود الأخيرة بخصوص تيارات الحداثة: البنيوية والتفكيكية وما بعدهما.. إلى آخره..

يريد فوكوياما أن يقول بأن: تاريخ البشرية ألقى قياده، أو انتهى - بعبارةٍ أدق - بالخبرة الليبرالية الرأسمالية التي تتزعمها - في اللحظات الراهنة - الولايات المتحدة الأمريكية.. وأنه ليس ثمة متغيرات تاريخية بعد هذا.. لقد ألقى التاريخ عصا تسياره عند الحالة الليبرالية التي هي في زعمه أعلى صيغ الخبرة البشرية وأكثرها انطباقًا مع مطالب الأمم والشعوب.. تمامًا كما ادّعت الماركسية على الطرف الآخر..

وفي الحالتين، فإننا نجد أنفسنا إزاء معطيات مناقضة لقوانين الحركة التاريخية التي أُريد لها أن تمضي في تمخضها الدائم فلا تقف أو تسكن عند هذه المرحلة أو تلك.. إننا نرجع مرةً أخرى إلى القرآن الكريم لكي نجد أنفسنا إزاء هذه الرؤية الواقعية المحكمة لمجرى التاريخ البشري: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾(١)؛ أي إنه ﷻ خلقهم للتدافع والتغاير والاختلاف.. وفي آية أخرى نقرأ: ﴿.. وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٢).

ها هو ذا صنم جديد يبرز في الساحة الغربية باسم نظرية (نهاية التاريخ) يستعبد

---

(١) سورة هود: الآية ١١٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

عقول أجيال من المعجبين في الغرب والشرق معتقدين أنها الإنجيل الذي يجب أن يُتبع، وأن أي شعب من شعوب العالم في جانبيه الغني والفقير، ما لم يحذ حذو الخبرة الليبرالية الأمريكية بديمقراطيتها المدعاة، وبرغبتها في التنامي بالأشياء والتكاثر بالأموال والمتاع، والتنمية الاقتصادية التي تمضي إلى غاياتها بعيدًا عن منظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية.. فلن يكون له مكان في العالم.. في التاريخ..

ومرةً أخرى، فإن هذا الادعاء، يذكرنا بادعاءات الماركسية التي انسحبت في نهاية الأمر من التاريخ، بينما ظلت الحركة التاريخية على دفقها وتزاحمها وتمخضها الدائم.. ومرةً أخرى - أيضًا - نرجع إلى كتاب اللّـه لكي نرى أنفسنا إزاء مفهوم (المداولة) الدائم الذي لا يسكن ولا يزول إلى أن يرث اللّـه الأرض ومن عليها: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

إنه الدولاب التاريخي الذي يظل يدور، يرفع قومًا ويضع آخرين.. ولن تظل أمة أو دولة أو حضارة على حالها.. أنها جميعًا تخضع للحركة ذاتها: الميلاد والنمو والشيخوخة والذبول.. ليس ثمة نهاية للتاريخ في المنظور القرآني على الإطلاق، إنما هي الحركة الدائمة؛ لأن اللّـه ﷻ أرادها منذ البدء أن تكون تدافعًا وتغايرًا واختلافًا، وهذا هو الذي يحرك التاريخ ويعطيه طعمه وملحه، ويمكّنه من الانتقال من حالةٍ إلى حالةٍ أخرى، وإلّا فهي المياه الراكدة التي تأسن وتفقد القدرة على الاحتفاظ بصفاتها ونقائها. والآن.. ما الذي تريد الآية القرآنية أن تقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(٢).

إن الدلالات القرآنية يأخذ بعضها برقاب بعض.. لا يمكن لأية كلمة إلّا أن تصب في البؤرة الأساسية للمنظور.. هاهنا نلحظ - أولًا - حركة التاريخ، وتآكل الدول والإمبراطوريات والحضارات التي تفقد شروط الديمومة والبقاء.. لا بد أن تتآكل.. شاءت أم أبت.. وفكرة أن العالم يمكن أن تحكمه قطبية واحدة لمديات

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٠.
(٢) سورة الرعد: الآية ٤١.

زمنية متطاولة، مسألة مرفوضة في المنظورين القرآني والتاريخي على السواء..

إن الذي يشهده الميدان، في الواقع وليس في النظريات والأحلام، هو تآكل الأمم والجماعات والدول والإمبراطوريات والحضارات: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(١) بعد أن كانت إرادة اللّه ﷻ، ومن خلال قوانين الحركة التاريخية، قد مدتها وفتحتها وأعطتها فرصتها التاريخية حضاريًا، أو سياسيًا، أو اجتماعيًا.. ما من أمة تملك شروط التفوق أو جانبًا منها، وتأخذ بأسبابها بالجد المطلوب، مؤمنةً كانت أم كافرة، إلّا ومنطق العدل الإلهي يمنحها الفرصة لأن تصعد إلى فوق: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾(٢)، والذي يطمح للصعود.. للتمتع بالمنحة الإلهية المفتوحة، عليه أن يُعْمِلَ عقله وحواسه في كتلة العالم وأسرارها.. فإذا أضفنا إلى هذا البعد (الإيماني) كأمةٍ مسلمة ورثت مقدرات الأديان والنبوات، قدمنا للعالم حضارةً ليست كالحضارات.. وحياة آمنة مطمئنة متوحدة سعيدة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان.. ولكن - وفي مقابل هذا - فإننا حيثما آثرنا الانسحاب من التعامل مع كتلة العالم ونواميسه، ولم ننتبه إلى الخطاب القرآني.. كان (للآخر) أن يتفوق علينا، من خلال قدرته المتفوقة على الإمساك بتلابيب العالم الذي سخّره اللّه ﷻ للبشرية كافة.

والقرآن الكريم يؤكد في خمسٍ وأربعين آيةً أنه ما من دولة أو إمبراطورية أو حضارة إلّا مصيرها الهلاك، كما يؤكد في تسعِ آياتٍ على أن لكل أمة أجَلًا لا تتقدم عنه أو تتأخر لحظةً واحدةً، هذا فضلًا عن تأكيده في اثنتي عشرة آية على أنه لا العدد (الديموغرافيا السكانية) ولا القوة (أيًّا كان حجمها)، يمكن أن تحمي الأمم من مصيرها المكتوب.. وفيما يلي جدول بهذه الأصناف الثلاثة من الآيات:

الإهلاك:

١ - ﴿ .. أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً

(١) سورة الرعد: الآية ٤١. (٢) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾(١).

٢ - ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾(٢).

٣ - ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾(٣).

٤ - ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾(٤).

٥ - ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴾(٥).

٦ - ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾(٦).

٧ - ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾(٧).

٨ - ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾(٨).

٩ - ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾(٩).

الأجل:

١ - ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾(١٠).

٢ - ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾(١١).

٣ - ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾(١٢).

٤ - ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٨.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٦.
(٣) سورة يونس: الآية ١٣.
(٤) سورة الحجر: الآية ٤.
(٥) سورة مريم: الآية ٧٤.
(٦) سورة مريم: الآية ٩٨.
(٧) سورة القصص: الآية ٥٨.
(٨) سورة الزخرف: الآية ٨.
(٩) سورة الكهف: الآية ٥٩.
(١٠) سورة الأعراف: الآية ٣٤.
(١١) سورة الأعراف: الآية ١٣٥.
(١٢) سورة هود: الآية ٣.

مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[١].

٥ - ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾[٢].

العدد والقوة لا تحمي الأمم من السقوط:

١ - ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا .. ﴾[٣].

٢ - ﴿ .. أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[٤].

٣ - ﴿ .. كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. ﴾[٥].

٤ - ﴿ .. كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[٦].

٥ - ﴿ .. كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾[٧].

٦ - ﴿ .. كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[٨].

٧ - ﴿ .. وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[٩].

٨ - ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾[١٠].

---

(١) سورة النحل: الآية ٦١.
(٢) سورة الحجر: الآيتان ٤، ٥.
(٣) سورة التوبة: الآية ٦٩.
(٤) سورة القصص: الآية ٧٨.
(٥) سورة الروم: الآية ٩.
(٦) سورة فاطر: الآية ٤٤.
(٧) سورة غافر: الآية ٢١.
(٨) سورة غافر: الآية ٨٢.
(٩) سورة فصلت: الآية ١٥.
(١٠) سورة محمد: الآية ١٣.

٩ - ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[١].

١٠ - ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾[٢].

١١ - ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ.. ﴾[٣].

١٢ - ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا ﴾[٤].

إنه - إذن - التآكل المحتوم للقوى السياسية والعسكرية والاجتماعية والحضارية التي تتعاقب على مسرح التاريخ: ﴿.. نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴾[٥]، إنه التأكيد على الإتيان الإلهي الذي لا راد لكلماته.. هذا الإتيان الذي يجيء من خلال القوانين العاملة في التاريخ، والتي تقرض الأمم والدول والحضارات وتتآكلها يومًا بعد يوم، وسنة بعد أخرى، وعقدًا بعد عقد، وقرنًا بعد قرن.

إن هذا يذكرنا - على سبيل المثال - بتلك الشبكة الكثيفة من عوامل التدهور والانحلال والفناء التي تحدث عنها المؤرخ المعروف (جيبون) في (تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية)، واحدة من أعظم الإمبراطوريات في التاريخ البشري.. إن هذا المؤرخ يمارس تغطية مدهشة عبر متابعته المتأنية الصبورة لقرون من الزمن تنخر فيها بجلاء وخفاء عناصر التآكل والدمار التي أتت في نهاية الأمر على هذه الإمبراطورية التي كانت يومًا تحكم العالم.. ولسوف نؤشر بعد لحظات على تجارب كبيرة أخرى أعمل فيها المقص الإلهي فأتى على بنيانها من القواعد: ﴿.. وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[٦].. فالذي يحكم هذا العالم بدوله وإمبراطورياته وقطبياته وحضاراته ويقودها عبر رحلة الصعود والتنامي، ثم في حركة الانكماش والسقوط، إنما هو اللّـه ﷻ وليس (بوش) أو (بريجينيف) أو (ماوتسي تونغ) أو (هتلر) أو (موسوليني).. اللّـه ﷻ هو

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٨.
(٢) سورة ق: الآية ٣٦.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٦.
(٤) سورة مريم: الآية ٧٤.
(٥) سورة الرعد: الآية ٤١.
(٦) سورة الرعد: الآية ٤١.

الذي يحكم هذا العالم.. وحكم اللّه تعالى لا استئناف فيه، ولا مراجعات في دوائر القضاء العليا: ﴿.. لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(١).

هنا تأتي الدلالة الزمنية في المنظور القرآني لكي تتعامل مع الواقع التاريخي، فمهما طال المدى بالنسبة للدول الكبرى التي أخذت نصيبها في قيادة العالم لا بد أن ينتهي بها الأمر إلى التدهور والتآكل والسقوط، شاءت أم أبت، ورغم كل التبريرات التي ادعت يومًا على الساحة الماركسية الشرقية، ويومًا آخر على الساحة الأمريكية الغربية، قدرة هذه التجارب على أن تبقى إلى الأبد وأن تكون نهاية للتاريخ.

الذي يحكم هو اللّه تعالى، وهو - على قدرته المطلقة - سريع الحساب.

نحن - في المنظور الزمني الأرضي المحدود - لا يتجاوز عمرنا الحضاري أربعة أو خمسة آلاف سنة، وهي مجرد أيام قلائل، وربما لحظات في المنظور الفوقي لحركة التاريخ: ﴿.. وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾(٢)، ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾(٣)؛ أي ثمانية عشر مليونًا ومائتين وخمسين ألف يومًا أرضيًا.. ماذا تساوي هذه الإمبراطورية التي عاشت قرنين أو خمسة قرون، أو حتى ألفين من السنين، في المنظور الإلهي؟! ومن ثم يعقّب القرآن الكريم على الآية المذكورة مخاطبًا رسول اللّه ﷺ: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾(٤).

كل الدول الكبرى والإمبراطوريات التي امتدت في الزمن والمكان أتى عليها المقص الإلهي، فتآكلت وآلت إلى الفناء..

ونحن في لحظات اليأس والعتمة والانكسار والخروج من التاريخ وتيه الأربعمائة سنة بعيدًا عن مواقعنا المتقدمة التي أرادها لنا اللّه ورسوله ﷺ.. نحن في هذه اللحظات نتصور أن القوة التي تحكم العالم اليوم وتسوده لن تنكسر أبدًا..

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤١.
(٢) سورة الحج: الآية ٤٧.
(٣) سورة المعارج: الآية ٤.
(٤) سورة المعارج: الآيات ٥ - ٧.

في المنظور القرآني ستنكسر.. شاءت أم أبت.. ولسوف تخرج من التاريخ.. والقضية قضية وقت.. بدليل أننا على مدى خمس وسبعين سنة فحسب، ولا أقول: قرنًا بكامله.. شهدنا مصرع العديد من الإمبراطوريات العتيقة والاستعماريات الكبرى والدول الشمولية التي بسطت جناحيها على قارات العالم القديم.. تذكروا معي - أيها الإخوة - كيف أتى عليها حكم اللـه ﷻ وكيف طواها النسيان.. تذكروا وعد (هتلر) في كتابه المعروف (كفاحي) بإقامة (إمبراطورية الألف عام) كيف اختزلها المقص الإلهي باثني عشر عامًا فحسب.. و (موسوليني) الذي كان يقف في شرفة قصره الكبير في روما مخاطبًا عباده من الإيطاليين: (سنركز راياتنا فوق النجوم) بعدما غزا الحبشة وسحق الحركة الجهادية في ليبيا وأصبح الحاكم بأمره.. ثم ما لبث بعد خمسة عشر عامًا أن هُزِمَ وتجرع من الكأس نفسها حتى الثمالة، وأصبح الثائرون عليه يلاحقونه في سهول لومبارديا وهو يهرب من بين أيديهم كالجرذ المذعور، حتى أُلقي القبض عليه وأُعدم في حالة بائسة نقيضة تمامًا لما كان عليه من أبهة وطاغوتية وجبروت.

هناك - أيضًا - الإمبراطورية البريطانية العظمى التي كان معلمونا في الدراسة الابتدائية يسمونها (الدولة التي لا تغيب عن أملاكها الشمس) ما لبثت أن تآكلت في أعقاب الحرب العالمية الثانية وأصبحت مجرد دولة صغيرة منحسرة في الجزيرة البريطانية والقليل من أيرلندة.. وأصبحت المشاكل والتحديات تلاحقها من جيش التحرير السري الأيرلندي في عقر دارها، ونحن نذكر كيف تعرض يومًا مجلس الوزراء البريطاني نفسه - زمن تاتشر - لتفجير عنيف من قبل المنظمة المذكورة.. كانوا يحكمون نصف العالم، فأصبحوا لا يأمنون على أنفسهم في عقر دارهم.

والإمبراطورية الفرنسية أين هي الآن؟ لقد وضع المجاهدون الجزائريون مسمارًا في نعشها تمامًا كما وضع الأفغان أيام جهادهم الكبير مسمارًا في جسد الاتحاد السوفياتي العملاق.. كانت فرنسا تحكم مساحات شاسعة تمتد على قارات أربع وترفرف راياتها ما بين (دِيَان بِيان فُو) في الهند الصينية و (كُويبِك) في كندا.. والآن تنحسر في ديارها فيما كان يُسمى يومًا بلاد الغال أو بلاد الفرنجة..

والاتحاد السوفياتي الذي أريد له أن يحكم التاريخ إلى الأبد، باعتباره المرآة الصادقة للاشتراكية العلمية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.. أين هو الآن؟

وحتى التنظيرات والمذاهب الوضعية التي غزت عقول أجيال من الناس وهيمنت على الشارع والمؤسسة الثقافية تعرضت هي الأخرى للتآكل والاندثار.. وليست الوجودية التي أعلن مؤسسها ومهندسها (جان بول سارتر) تنصله منها عبر لقائه الأخير مع عشيقته (سيمون دو بوفوار) هي المثل الوحيد..

كل المحاولات البشرية عرضة في نهاية الأمر للتآكل والزوال.. الأفكار الشمولية والدول الكبرى والنظريات التاريخية التي انعكست من خلال إمبراطوريات عملاقة كالاتحاد السوفياتي.. تمامًا كما تنعكس الآن نظريات (فرانسيس فوكوياما) في « نهاية التاريخ » و (صموئيل هنتنغتن) في « صراع الحضارات » ومعطيات العولمة والقطبية أحادية الجانب والنظام العالمي الجديد في الساحة الأمريكية التي يتصور المهزومون من ذوي النظر القصير أنها ستمسك بمقدرات العالم والبشرية إلى الأبد..

إن تنوع التاريخ واستعصاءه على المسطرة يجعل من النظام ذي القطبية الواحدة حالة استثنائية لن تدوم طويلًا.. فعلى مدى التاريخ البشري كانت دائمًا هناك روما بمواجهة أثينا، والبابوية بمواجهة القسطنطينية، والرومانية المقدسة بمواجهة البابا، وفرنسا بمواجهة بريطانيا وألمانيا وروسيا، وبريطانيا بمواجهة القارة، والمحور بمواجهة المستعمرين القدماء، وأمريكا بمواجهة بريطانيا، والاتحاد السوفياتي ومن بعده أوربا الغربية بمواجهة أمريكا.

ومعنى هذا أن تفرد قوة غربية واحدة بالسلطان أمر يكاد يكون مستحيلًا على الفترات الزمنية الطويلة نسبيًّا، وأن الثغرة التي قد ينفذ منها الإسلام المحاصر، ستتشكل أو هي قد تشكلت فعلًا بحكم قوانين الحركة التاريخية التي طالما حدثنا عنها كتاب اللّه.. ومعنى هذا أيضًا أن على عالم الإسلام اليوم ألَّا تذهب به الهزيمة النفسية إزاء التفرد الأمريكي إلى المدى، وأن يبذل جهده لكي يتماسك وينهض،

مستفيدًا من حالة الثنائيات الغربية المتولدة باستمرار.. من الثغرات والممرات التي تفتحها في جدار الغالب. وقبل هذا من قدرات الإسلام الذاتية على كل المستويات النفسية والفكرية والاستراتيجية والاقتصادية، والحضارية في نهاية الأمر. وهي - بتميزها العقدي وعمقها التاريخي - ليست كلامًا يُقال وأماني تُزجى، ولكنها فاعلية في صميم الصيرورة التاريخية، قديرةٌ في حالة اعتماد الصيغ المدروسة والمحسوب حسابها، على أن تحمي الوجود الإسلامي من التفكك والذوبان، بل أن تمضي ثانيةً باتجاه مواقع أكثر تقدمًا على خرائط العالم المعاصر لكي تشارك في اتخاذ القرار وصياغة المصير.

إن ألفين من السنين تنسجان اليوم حيثيات الصراع بين أمريكا وعالم الإسلام، ولكن في أي من هاتين الألفين قدر الغرب على أن يطمس نهائيًا هوية الشرق؟ في أي منها ألقى الإسلام السلاح وارتمى - مغلوبًا على أمره - في أحضان الغالبين؟

إن عالم الإسلام يقف اليوم قبالة حالة تاريخية ليست جديدة بالكلية، قد تكون جدتها في الزخم الكبير الذي تنطوي عليه، بما أنه حصيلة قرون طويلة من التشكل التاريخي على مستويي الكم والنوع، ولكنها - في الأساس - حلقة في مسلسل طويل يبدأ في (أثينا) ولكنه لن ينتهي في (واشنطن).

فها هي المتغيرات الأكثر حداثةً تطل برأسها، ولم يصل النظام العالمي الجديد - بعد - إلى بر الأمان: أوربا الغربية تتوحد - ربما - قبالة أمريكا.. روسيا ربما تنضاف إلى أوربا الموحدة.. اليابان تواصل قفزاتها التقنية والاقتصادية بحساب متواليات هندسية قد تحد من قدرات التفرد الأمريكي في المستقبل المنظور.. الصين ودول العالم الثالث قد تخز جملتها العصبية إبرة التحدي الجديد لعالم تهيمن على مقدراته إرادة واحدة، فتتحرك لتفعل شيئًا على الأقل في سياق الرد السلبي.. ثم عالم الإسلام نفسه الذي طالما دفعته التحديات إلى استعادة حيويته وفاعليته بما يملكه من عمق اقتصادي وبشري وامتداد جغرافي وموقع استراتيجي، وعقيدة فاعلة تملك القدرة على قبول واحتواء التقدم التقني، وتمنح الحياة البشرية في الوقت نفسه مغزى المسير والمصير.

ثمة - أخيرًا - إشارة لا بد منها إلى هذه التركيبة المدهشة في النص القرآني بخصوص قوانين الحركة.

في الماركسية هناك نمطان من الحركة إحداهما طبيعية مادية سميت بالمادية الديالكتيكية، والأخرى اجتماعية سميت بالمادية التاريخية، تفسر أولاهما الحركة الكونية من منظور مادي، وتفسر الأخرى الحركة التاريخية للجماعات والطبقات من منظور التغير الدوري المحتوم في وسائل الإنتاج.. وفي الماديتين يستبعد الدين والإيمان، ويتم التنكر للوجود الإلهي.. وتصير الرؤية الإلحادية هي الحكم الفصل في مجريات التقلبات الكونية والبشرية على السواء.

في النص القرآني نلتقي بالثنائية نفسها: الكون والتاريخ.. ولكن بصيغة تختلف اختلافًا كليًا.. فهناك تصميم كوني يتوازى مع التصميم التاريخي.

التصميم الكوني عمليةُ فرشٍ ولَمٍّ، والتصميم التاريخي عملية فرشٍ ولَمٍّ كذلك.. فهاهنا تفرش الإرادة الإلهية الفرص المفتوحة للجماعات والأمم والشعوب لكي تُنشئ دولًا وإمبراطوريات وحضارات للإنكليز والفرنسيين حينًا وللروس والأمريكيين حينًا آخر وللمسلمين حينًا ثالثًا.. نحن كنا في يوم من الأيام، ومن خلال أخذنا بالأسباب وتعاملنا الفاعل مع العقيدة، قد فُرشت لنا الأرض.. ثم ما لبثت عملية التآكل واللم أن حاقت بنا بعد أن تخلّينا عن الأخذ بالأسباب وتهاونّا في التعامل مع مطالب عقيدتنا العليا بمشروعها الحضاري الكبير.. انسحبنا من التاريخ؛ لأن أيدينا ارتخت، وعقولنا عجزت عن أن تواصل التوتر المطلوب ولو في حدوده الدنيا.

وما جرى علينا مضى لكي يسوق كل التجارب التاريخية الكبيرة إلى المصير نفسه: التآكل واللم والزوال.. بعد الفرش والامتداد والسلطان..

باختصار شديد، فإن الحركتين الكونية والتاريخية تمضيان على خط متوازٍ بين الحالتين.. ولكنهما في المنظور القرآني تتشكلان في إطار إيماني؛ حيث تصير إرادة اللّـه ﷻ هي الحكم الفصل في بدء الحركتين وصيرورتهما والمصير الذي تؤولان إليه في نهاية المطاف.. والمساحة المعطاة للفعل الإنساني واسعة ممتدة

فاعلة، ولكنها تتحرك في إطار الإرادة الإلهية المحيطة الشاملة التي يصير فيها الفعل الإنساني سببًا في الانبعاث والصعود أو الانحسار والزوال..

في المنظور القرآني تبدأ الحركة الكونية بإرادة اللّـه ﷻ: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[١]، فنحن إزاء عملية اتساع دائم تؤكده الدراسات الطبيعية والفيزيائية، كما تؤكده معطيات (أينشتاين) عن « الكون المتسع » والمنحنيات المتمددة إلى مسافات لا يعلم مداها إلّا اللّـه ﷻ.

وبإزاء الفرش الكوني، وبمرور الزمن، وعبر مديات متطاولة تبدأ عملية اللم المعاكسة التي تؤذن بها – ربما – الثقوب السوداء التي تملك كما يؤكد الدارسون قدرة أسطورية على جذب الكتل والأجرام والتقامها.. وفي كل الأحوال، فإننا بإزاء إعادة الكتلة الكونية إلى ضيقها السابق يوم تشكلت أول مرة: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[٢].

مرةً أخرى.. إننا بإزاء مسارين للحركة في المنظور القرآني: إحداهما طبيعية كونية، والأخرى تاريخية اجتماعية.. بإزاء حركة فرش ولمّ محتوم.. ولن تستطيع قوة في الأرض مهما ادعت من جبروت وطاغوتية وسلطان أن تقف قبالة قوانين اللّـه ﷻ العاملة في الكون أو التاريخ؛ لأن الذي يحكم العالم والتاريخ هو اللّـه – جلّت قدرته – وليست أية قوة في الأرض: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[٣].. وصدق اللّـه العظيم.

* * *
* *
*

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٤٧. (٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.
(٣) سورة الرعد: الآية ٤١.

ملاحظات حول منهجي التاريخي

رحلتي مع التاريخ ومنهجه وفلسفته وحضارته الإسلامية استغرقَتْ من جهدي وعمري ما يقرب من الستين عامًا.. كنت أتابع وأنسج خلالها المنهج الأكثر مقاربةً في تفسير هذا التاريخ ومعطياته الحضارية. وقد وفقني اللّـه ﷻ لوضع اليد على أهم خصائص هذا المنهج الذي انتشر على ما يقرب من الثلاثين كتابًا، توزّعت على المحاور الأربعة التالية: محور المنهج والفلسفة، محور السيرة والتراجم، محور البحوث والدراسات، ومحور التاريخ المعاصر.

ولن يتسع المجال للحديث عنها جميعًا، ولكني سأقف - وبالإيجاز المطلوب - عند بعضها ممّا يمسّ الموضوع مباشرةً.

- ففي كتاب (حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي) - على سبيل المثال - دعوةٌ لاعتماد منهج صارم في التعامل مع مصادرنا التاريخية برؤية نقدية ترفض الاستسلام لمروياتها، وفق ضوابط ومعايير النقد الأصلي والمعاصر؛ حيث تمّ طرح أربعة عشر شرطًا أو معيارًا لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي.

- وفي كتاب (مدخل إلى التاريخ الإسلامي) محاولة تطبيقية لاعتماد المنهج الأكثر مقاربةً للواقعة التاريخية من مثل:

أولًا: فهم التاريخ الإسلامي من خلال وحدة الحركة وكسر القشرة الخارجية للأحداث والتبدّلات.

ثانيًا: التحقق برؤية شمولية تلمّ التفاصيل والجزئيات لكي تستمد منها المؤشرات الأكثر امتدادًا لمعطيات التاريخ الإسلامي.

ثالثًا: تحقيق التوازن المطلوب بين الجوانب السياسية - العسكرية، والجوانب العقيدية والاجتماعية، والحضارية.

رابعًا: تسليط الضوء على العلاقة الأصيلة المتبادلة بين الإسلام وبين وقائع التاريخ الإسلامي في آفاقها كافة.

خامسًا: متابعة الظواهر التاريخيـة الكبرى عموديًا؛ لكـي لا تتعرض للتشتت والتقطيع، ولكي تتاح فرصة السيطرة على أبعادها وصيرورتها وصولًا إلى ملامحها الأساسية وسماتها المتفردة.

من أجل ذلك حاولت فصول الكتاب أن تعالج التاريخ الإسلامي من خلال رؤية جديدة تتجاوز التقسيم التقليدي للعصور الإسلامية إلى طرح هندسة جديدة لوقائعه، ربما تكون أكثر قدرةً على لمّ شتاته وإضاءتها والكشف عن مغزاها. وتقوم هذه الهندسة المنهجية على معالجة أركان أو مساحات أساسية أربع في التاريخ الإسلامي؛ وهي:

أولًا: الدولة والسلطة والقيادة.

ثانيًـا: الدعوة والانتشار والتعامل مع الآخر.

ثالثًـا: التحديات والهجمات المضادة والعلاقات الدولية.

رابعًا: الحياة الاجتماعية.

- وفي كتاب (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) الذي أعتبره أهم إنجازاتي التاريخية على الإطلاق.. محاولة تطبيقية لاعتماد المنهج السليم في التعامل مع المشروع الحضاري الإسلامي دراسةً وبحثًا وتدريسًا. ذلك أن مناهج دراسة الحضارة الإسلامية في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، تعاني ولا تزال، من عيوب شتى، أبرزها ولا ريب تقطيع جسد هذه الحضارة وتقديمها للطالب مزقًا وتفاريق، وهي بهذا ستفقد شخصيتها المتميزة، وملامحها المتفردة التي تمنحها الخصوصية بين الحضـارات، وتصيـر مجرد أنشطة ثقافيـة أو معرفية أو اقتصادية أو عمرانية أو اجتماعية في هذا المجال أو ذاك، قد تتميز ببعض الخصائص، لكنها لا تعكس التصوّر النهائي لرؤية المنتمين إليها للحياة والعالم والوجود.

ويتخرج تلميذ الإعدادية والطالب الجامعي وهو لا يكاد يملك معرفة معمقة بخصائص حضارته الإسلامية، وبالمكوّنات التي تميزها عن الحضارات الأخرى، فضلًا عن أنه يتخرج وهو لا يملك الاعتزاز بحضارته، بما أن النشاط التدريسي في التاريخ والحضارة ينطوي - بالضرورة - على بُعْدٍ تربويٍّ، لكن هذا البعد يتفكك

ويغيب من خلال الخطيئة المنهجية التي لا تكاد تمنح الطالب أي ملمح يجعله يتشبث بتراثه الحضاري باعتباره أقرب إلى مطامح الإنسان ومهماته الأساسية في هذا العالم. بل إننا قد نصل في نهاية الأمر إلى نتائج معاكسة تتمثل في رفض حشود الخرّيجين لمشروعهم الحضاري، وإنكاره، وإعلان التمرّد عليه، والاندفاع بالمقابل في اتجاه إغراءات الحضارات الأخرى، وإغواء بريقها الظاهري الخادع، وبخاصةٍ الحضارة الغربية. وبهذا يصير تدريس الحضارة الإسلامية سلاحًا نُشْهره ضد أنفسنا لتدمير الثقة بمقومات حضارتنا، وقدرتها على الاستعادة والفاعلية في صميم العصر، وفي مشاركاتها المحتملة في صياغة المصير البشري كما يؤكد العديد من المفكرين والباحثين والمستشرقين الغربيين أنفسهم.

مهما يكن من أمرٍ، فإننا اليوم ونحن ندرّس حضارتنا الإسلامية، بأمس الحاجة إلى منهج يسعى لأنْ يتعامل مع هذه الحضارة كشخصية أو تكوين متميز بدءًا وصيرورة ونموًّا وانكماشًا وتدهورًا وانبعاثًا من جديد. فإذا تذكرنا أن حضارتنا هذه لم تتشكل من العدم، ولم تلمّ شتاتها بطريقة ميكانيكية، من هذه الحضارة أو تلك، فتكون عالةً عليها، وأنها إنما نشأت بتأثيرات إسلامية، ووفق شبكة شروط وتأسيسات صاغها هذا الدين، وأنها تكوّنت في رحم إسلامي وليس في أي رحمٍ آخر، وأن بصمات كتاب اللّـه وسنة رسوله ﷺ على حجيراتها وخلاياها ونبضها وجملتها العصبية، من الأمور التي لا يكاد ينكرها باحث جاد ؛ إذا عرفنا هذا كلّه أدركنا كم تكون جنايتنا على طلبتنا بتقديم الحضارة إليهم ممزقة ومتفرقة وبنوع من فك الارتباط الساذج أو الخبيث الذي يتعمد التعامل معها كما لو لم يكن للتأثيرات الإسلامية في تكوينها أي حضور ملحوظ، اللّـهم إلّا في خانةِ ما يسمى بالعلوم النقلية المعتقلة في المصنفات العتيقة والبعيدة عن تشكيل الحياة والنزول إلى المؤسسة والشارع والمدرسة والبيت.

ولطالما درّسنا طلبتنا، بإسهابٍ حينًا وإيجاز حينًا آخر، عوامل سقوط هذه الدولة أو تلك من دول الإسلام، كالأمويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين، لكننا لم نحاول إلّا نادرًا، أن نقف طويلًا عند ظاهرة تدهور الحضارة الإسلامية

نفسها - في سياقها التاريخي - بعيدًا عن الأطر السياسية المحددة، لمتابعة عوامل الشلل المتشعبة، والتأشير عليها بقدر من العمق والوضوح، فيما يمكن أن يقدّم لنا خبرةً بالغة الأهمية تتمثل في احتمالات النهوض من جديد، في ضوء فهم وإدراك العوامل التي قادتنا عبر قرون طويلة إلى التدهور والانحلال.

ومرةً أخرى، فإن المشروع الحضاري البديل المنوط بالأمة الإسلامية في مطالع القرن الجديد، لن يستكمل أسبابه وينطلق من البداية الصحيحة ما لم يضع في حسبانه كل العوامل التي قادت التجربة الحضارية السابقة إلى الانكماش والضمور، وحينذاك، وفي ضوء وعي حضاري كهذا، يمكن أن يتحقق التجاوز، والمضي إلى الهدف بأكبر قدر من التحرّر من عوامل الشد والإعاقة والتعطيل، وفي ضوء المتغيرات التي تراكمت، كمًّا ونوعًا، عبر القرون الأخيرة، داخِلَ الساحة الإسلامية وخارجها.

إن هذه الحلقة تحمل أهميتها الأكاديمية في الدراسات الحضارية، ولكنها - في تجربتنا المعاصرة - تحمل فوق هذا قيمةً مضافة؛ لأنها ستُعِين على بناء المشروع الحضاري بأكبر قدر من الوعي والاستبصار.

في ضوء ما تقدّم، ومن أجل تجاوز المنهج التفكيكي في دراسة الحضارة الإسلامية، والمعمول به في معظم المدارس والمعاهد والجامعات العربية والإسلامية، يمكن اعتماد السياقات التالية موزعةً على سنوات الدراسة الجامعية الأربع (وفق النظام الإنكليزي) أو (المساقات) (وفق النظام الأمريكي):

السنة الأولى (أو المساق الأوّل): أصول الحضارة الإسلامية (التأسيسات الإسلامية للفعل الحضاري في القرآن والسنة، والتطبيقات التاريخية لعصري الرسالة والراشدين).

السنة الثانية (أو المساق الثاني): نمو الحضارة الإسلامية (المعطيات والوظائف والخصائص).

السنة الثالثة (أو المساق الثالث): تدهور وانحلال الحضارة الإسلامية (العوامل الداخلية والخارجية).

السنة الرابعة (أو المساق الرابع): واقع الحضارة الإسلامية ومستقبلها (قبالة تحديات التكنولوجيا، والتفوّق الغربي، والنظام العالمي الجديد، والعولمة، والنظريات الأكثر حداثةً بخصوص نهاية التاريخ وصراع الحضارات، ومقومات المشروع الحضاري البديل، واحتمالات المشاركة العالمية في المصير).

ولقد جاء كتابي (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) بمقدماته وفصوله الأربعة محاولةً تجريبية في هذا السبيل.

- أما كتاب (التفسير الإسلامي للتاريخ) فيكاد يكون أولى المحاولات المعاصرة في فلسفة التاريخ لتقديم التصوّر الشامل لرؤية الإسلام لقوانين الحركة التاريخية، أو السنن الإلهية العاملة في التاريخ.

إن القرآن الكريم يقدّم أصول (منهج) متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب، إلى محاولة استخلاص السنن والقوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية - التاريخية، كما فعل (ابن خلدون) فيما بعد، فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ الذين ما تلقوا إشارته تلك وبنوا عليها إلّا بعد انقضاء سبعة قرون، وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم السابقة، وعلى وجود (سنن) و (نواميس) تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وانتقالها من حالٍ إلى حالٍ.

ولقد وقع كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين في خطأ القول بأن (ابن خلدون) هو أوّل من مارس هذا (المنهج)، وأنه لا توجد قبله أية محاولة في هذا السبيل.. إن المنهج الجديد الذي يطرحه القرآن يؤكد - أكثر من مرة - على أن (التاريخ) لا يكتسب أهميته الإيجابية إلّا بأن يُتخذ ميدانًا للدراسة والاختبار، تُستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلّا على هداها..

إن التفسير الإسلامي ليس - أبدًا - مجرّد مسلَّمات بعدية تسعى إلى أن تُقَوْلب حوادث التاريخ القبلية في إطارها المتعسِّف، وإنما هو مذهب ينبثق وفق أسلوب

موضوعي (كما حدث فعلًا) لا (كما يجب أن يكون)، وعن طبيعة التصميم التاريخي للبشرية، فهو إذن تبلور للخطوط الأساسية لحركة التاريخ يصوغها القرآن الكريم في مبادئ عامة يسميها (سننًا)، ويعتمدها المفسرون الإسلاميون منطلقًا - لا لتزييف التاريخ - وإنما لتفسيره وفهمه وإدراك عناصر حركته ومصائر وقائعه ومسالكها المتشعبة، وهو - إذن - تفسير شامل محيط، يعطي أصدق صورة للسنن التي تسيّر هذا التاريخ.

لقد أدركت من خلال تدريسي مادة (فلسفة التاريخ) لطلبة كلية الآداب مدى ضرورة عرض التفسير الإسلامي للتاريخ، في بحث موسّع شامل يستمد رؤيته من كتاب اللّـه مباشرةً، ويتجاوز معطيات الفلاسفة والمفكرين القدماء والمحدثين، الذين تأرجح كثير منهم بين تهاويل الخيال القصصي الإسرائيلي وبين أطروحات الفلسفة اليونانية ذات التصوّر الوثني، وبين النزعات العقلية والطبيعية التي سادت القرنين الأخيرين. ولقد قادهم هذا التأرجح والجنوح إلى مواقع ومواقف ما تلبث أن تتفكك ويبدو زيفها واصطناعها الكيفي بمجرد عرضها على المعطيات القرآنية مباشرةً.

- وقد أتيح لي بعد سنوات طويلة من إنجاز هذا الكتاب (الذي صدر عن دار العلم للملايين سنة ١٩٧٤م) أن أنفِّذ دراستين نُشرتا في مجلتين علميتين؛ تناولت في أولاهما الرؤية القرآنية لنشوء الحضارات، وفي ثانيتهما الرؤية القرآنية لسقوط الحضارات، وستصدران - بإذن اللّـه - ضمن جملة من البحوث في كتاب قيد النشر بعنوان (محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية)[1].

- في مؤلفاتي عن السيرة وعدد من رجالات الإسلام كان التأكيد المنهجي على حقيقة أنه ما لم يتم إعمال المنظور في البعد الغيبي لتكوين الشخصية وممارساتها، فلن نكون قد فعلنا شيئًا؛ لأننا بصدد دراسة نبي الإسلام ﷺ وقادته، أولئك الذين انطلقوا من رؤيتهم الثاقبة وتجربتِهم العميقة في التعامل مع الغيب الذي هو التأسيس الأخطر لهذا الدين الذي انتموا إليه، وبشّروا به، وتحقّقوا بمقولاته،

---

(١) انظر: ص (١٢٤ - ١٤٥)، وص (١٤٦ - ١٦١).

ورَبَطوا من خلاله الدنيا بالآخرة، في كل فعل أو حركة أو إنجاز سَعَوْا إلى تنفيذه في واقع الحياة. وهكذا جاءت كتبي التالية: (دراسة في السيرة، دراسة في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتكمري وات، كتابات معاصرة في السيرة النبوية، دليل التاريخ والحضارة في السيرة النبوية، ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود: الرجل وتجربته الإسلامية).. انعكاسًا لهذا المنظور المنهجي الذي يميّزنا كأمة عن سائر الأمم والجماعات.

– في مؤلفاتي عن التاريخ المعاصر من مثل: (ملامح مأساتنا في إفريقيا، لعبة اليمين واليسار، أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار، كتابات إسلامية، الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الإسلامي، أولى ملاحم القرن، مذكرات حول ١١ أيلول، أمريكا مرةً أخرى) تمت معالجة عشرات القضايا ومئاتها من زاوية رؤية إسلامية طالما امتلكت القدرة على أن تقول كلمتها في كل صغيرة وكبيرة، مما شهده هذا التاريخ، وبالرؤية الإسلامية ذاتها التي تحكّم المعيار الإسلامي الأصيل في الحكم على التجارب والخبرات.

– وأخيرًا وليس آخرًا، فإنني في تعاملي مع معطيات الحركة الاستشراقية، تجاوزت الانجرار وراء رَفْضِ هذه المعطيات وإعلان الحرب عليها، كما رفضت الاندفاع وراء الأخذ بها وتبنّيها، واعتمدت المعيار المنهجي القرآني الذي يقول: ﴿ .. وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .. ﴾(١).

فعلى مدى خمسين عامًا، وعبر مراحل زمنيةٍ متقاربةٍ حينًا متباعدةٍ أحيانًا، تعاملت مع « الاستشراق » قراءةً وتدريسًا وتأليفًا. وقد أتيح لي منذ أخريات خمسينيات القرن الماضي، وحتى العقد الأوّل من القرن الحالي، أن أقرأ عشرات المصنفات التي أنجزها المستشرقون على اختلاف بلدانهم في أوربا غربًا وشرقًا، وأن أدرّس مادة (الاستشراق) لطلبة الدراسات العليا، وأناقش رسائل الماجستير وأطروحات

(١) سورة المائدة: الآية ٨.

الدكتوراه التي تمسّ الموضوع، في العديد من الجامعات العربية والإسلامية، وأن أنجز جملةً من المؤلفات، محّض بعضها للفكر الغربي والاستشراقي، وخصّص بعضها الآخر مقاطع وفصولًا عن هذا الفكر بلغ عددها جميعًا أربعة عشر كتابًا.

وقد اتخذت هذه المؤلفات اتجاهين في الكتابة، مضى **أحدهما** لكي ينقد ويفنّد المعطيات الاستشراقية: (دراسة في السيرة، ابن خلدون إسلاميًا، حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، دراسة مقارنة في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتكمري وات، مدخل إلى التاريخ الإسلامي). ومضى **الآخر** يتبنّى ويحلّل الجوانب الموضوعية المضيئة من تلك المعطيات: (قالوا عن الإسلام، الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي، مدخل إلى الحضارة الإسلامية، أصول تشكيل العقل المسلم، نظرة الغرب إلى حاضر الإسلام ومستقبله، المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي، القرآن الكريم من منظور غربي، الفن والعقيدة، غربيون يتحدثون عن الإسلام)..

على أية حال - كنتُ أقول في نفسي - لقد تحقق التعامل المنهجي العادل مع الموروث الاستشراقي، وتمّ تناوُل الصورة بوجهيها: الأسود الكالح والأبيض المشع، فالمؤرخ ليس شاعرًا يهجو أو يمدح، ولكنه باحث عدل يتوخى الوصول إلى الحقيقة بأكبر قدر من الموضوعية.

لقد كان مبدأي الذي أكدته على طلبتي لمدى خمسين عامًا: احذروا قاعدة « **إما هذا أو ذاك** »، والتزموا قاعدة « **هذا وذاك** »، فإنها تمنحكم مفتاحًا منهجيًّا أكثر دقةً في التعامل مع الظواهر والأشياء في سياقي الفكر والحياة، وتخفف عنكم عناء الجدل العقيم الذي يتشبث فيه كل طرف بوجهة نظره وقناعاته الخاصة، بينما هي في الحقيقة تكمل إحداهما الأخرى. تُرى كم من الزمن والجهد استغرقه إلحاح كهذا كان يمكن أن يُوظَّفَا للعمل والبناء بدلًا مما سبق وأن حذّر منه رسول اللّـه ﷺ في أكثر من حديث شريف؟!

* * *
* *
*

ملاحظات حول
المفردات المنهجية لمرحلة البكالوريوس
في قسم التاريخ - كلية الآداب

« إن الأميين في القرن الحادي والعشرين لن يكونوا أولئك الذين لا يعرفون القراءة، بل هم الذين لا يعرفون التعلّم ثم نسيان ما تعلَّموه من جديد ». (توفلر) في كتاب (تحوّل السلطة).

إن أية محاولة لإعادة تصميم المفردات المنهجية لمرحلة البكالوريوس في أقسام التاريخ، بما يرفع من سويتها، ويحقق التوازنات الضرورية لهذه المفردات، لن يأتِ بنتائجه المرجوة ما لم تمضِ عملية التغيير والإصلاح إلى الطرفين الآخرين في العملية التعليمية وهما التدريسيون والطلاب.

ولسوف نجد أنفسنا - كما حدث ويحدث منذ أكثر من عقدين من الزمن - إزاء حلقة فارغة تدفع بأفواج الخرّيجين من الأميين وأنصاف المتعلمين الذين يتزايدون (كمًّا) سنة بعد أخرى دون أيّ تحسن في (النوع).. وبعضهم يمارس العمل التعليمي فلا يكاد يعطي لطلبته ثقافة حقيقية أو علمًا أصيلًا.. ويتدفق هؤلاء على الجامعة وهم لا يكادون يملكون شيئًا، لكي يتلقاهم تدريسيون فقد الكثير منهم أولى شروط الأداء الجامعي المتألق.. أَلَا وهو الإبداع.

والمشكلة في أساسها تعود إلى جملة أسباب قادت إلى هذا الانهيار المريع في الأداء الجامعي الذي يعترف به الجميع، ولكنهم لا يكادون يفعلون شيئًا لتداركه.

ولن يتسع المجال لاستعراض وتحليل هذه الأسباب في عرضٍ أريد له أن يتعامل مع المناهج، ولكننا نريد أن نشير إلى واحدٍ من أهمها على الإطلاق؛ أَلَا وهو: التعامل الجاد مع الكتاب، أو ما يُسمى بالمطالعة الخارجية.

فإن الاكتفاء بما تعطيه الجامعة من مقررات لن يخرّج باحثًا ولا مفكرًا ولا كاتبًا ولا مبدعًا، حتى ولو امتدت سنوات الدراسة الجامعية عشر سنوات أو عشرين..

لن يخرّج سوى متعلمين أو أنصاف مثقفين لا يملكون القدرة على العطاء والإبداع على مستويي العمل التدريسي أو البحث والكتابة.

إنها مسؤولية جادة ملقاة على عاتق الطرفين معًا: التدريسي والطالب، إذا أريد كسر الحلقة المفرغة والعودة إلى ما كانت تنتجه الجامعات حتى أواخر الربع الثالث من القرن الماضي.

كان الجميع يقرأون.. التدريسيون والطلاب، وكان (الكتاب) خبزهم اليومي الذي زوّدهم بالكثير، وقادهم إلى التألّق والإبداع.

المطالعة الخارجية بشروطها طبعًا: عشق الكتاب.. القراءة الدارسة المنتجة، وليست العابرة المستهلكة.. ثم التنويع في القراءة، فإن الجمود على فرع معرفي واحد يقود إلى التضحّل، رغم كل ما يقال من أن الاكتفاء بالتخصص الدقيق يفي بالمطلوب.. إنه ضروري بكل تأكيد، ولكنه لا يكفي وحده، ولا بد من تشكيل فضاء معرفي أو ثقافي واسع ليتحرك الجهد التخصّصي داخل دائرته المنفتحة.

ومنذ عشرين سنة أو ثلاثين لم يعد أحد يقرأ، لا التدريسيون ولا الطلبة.. أولئك يكتفون بما حصلوا عليه من معرفة جامعية، وما أنجزوه من رسائل وأطروحات، وهؤلاء يلتصقون بالمقرر الجامعي لا يكادون يفارقونه إلّا قليلًا.

إن هذا البوار ينعكس حتى في الكثير من رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه، وهذه مسألة ستناقشها اللجنة المعنية بالدراسات العليا فلا مبرّر للخوض فيها.

والمهم أن علينا - نحن التدريسيون - أن نبذل جهدًا مكافحًا وموصولًا من أجل العودة بالتدريسيين والطلبة معًا إلى عصر المطالعة اليومية، وتقاليد عشق الكتاب، وملاحقته بالجدّ المطلوب.

* * *

فإذا جئنا لمتابعة وقراءة المفردات المنهجية المعطاة في قسم التاريخ في كليتنا مقارنةً بما يُعطى في أقسام التاريخ في العديد من الجامعات العربية، فإننا سنجد

أنفسنا - بالضرورة - أمام قاسم مشترك بين معظم هذه الأقسام، تُعطى من خلاله المواد نفسها في محاولةٍ للتغطية الزمنية للتاريخ البشري كله، مع التركيز على سياقيّ التاريخ العربي الإسلامي والتاريخ المحلي والإقليمي، وكذلك إضافة جملة من الموضوعات التي تساعد المتخصصَ في التاريخ على أداء مهمته، فيما يُعرف بالعلوم المساعدة أو الموصّلة من مثل: اللغة العربية، واللغة الإنكليزية، والجغرافيا، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والآثار، ومنهج البحث وتحقيق المخطوطات، وعلم الحاسوب.. ينضمّ إليها في أقسام التاريخ التي تستهدف تخريج (المدرّسين): علم النفس، وفلسفة التربية، وأصول التدريس.

ولعلّ واحدةً من أهم ما تعاني منه أقسام التاريخ في معظم الجامعات العربية، بما فيها قسم التاريخ في كلية آداب جامعة الموصل، حرصها الملحوظ على تحقيق التغطية الزمنية، فيما يُحمّل الطالب عبء ملاحقة وقائع القرون المزدحمة المتشابكة، بدءًا من العصور الحجرية وانتهاءً بالتاريخ المعاصر، مرورًا بتاريخ الأقوام السامية، فالعرب قبل الإسلام، فالسيرة النبوية، فالعصر الراشدي، فالأموي، فالعباسي، فالدويلات الإسلامية، فالعصور المتأخرة، فالعثماني، فالوطن العربي المعاصر.. وهناك في موازاة هذا الامتداد الزمني المتطاول: تاريخ اليونان والرومان والساسانيين، وأوربا العصور الوسطى فالحديثة فالمعاصرة، فضلًا عن الأمريكيتين ودول العالم الثالث.

هذه الرحلة الحريصة على التغطية الزمنية والمكانية المتكاملة، قد تجيء على حساب قدرة الطالب على استيعاب الوقائع والأحداث، وهو حتى في حالة استيعابها زمن تلقّيها قد لا يحتفظ بها في ذاكرته طويلًا؛ إذ سرعان ما يتعرض معظمها للنسيان.

ليس هذا فحسب، بل إن الحرص يقود بالضرورة إلى الركض بالطلبة على سطح الوقائع التاريخية من أجل الإمساك بها جميعًا، دون منحها - إلّا في حالات استثنائية - وقفةً متأنية للتعامل المعمّق مع هذه الظاهرة أو تلك، ومع هذا التغيير أو ذاك، فيما هو أقل تعرّضًا للنسيان بكل تأكيد.

هذا وإن تغطية كهذه تقود بالضرورة إلى إعطاء الأولوية للتاريخ السياسي وتضييق الخناق على التاريخ الحضاري الذي هو أكثر أهمية بكثير، وهذه مسألة سيحاول هذا التقرير أن يقف عندها قليلًا.

فمنذ أكثر من قرن مُورست هذه الخطيئة في معظم المعاهد والجامعات العربية والإسلامية، فضلًا عن أنها اعتمدت منهجًا تفكيكيًّا تتقطع معه شخصية هذه الحضارة وتضيع ملامحها الأساسية، وذلك باسم الضرورات الزمنية أو التخصصية أو المنهجية؛ حيث يدرس الطالب تاريخ العلوم أو الفكر في سنة، والنشاط الاقتصادي أو العمراني في سنة أخرى، والنظم الإدارية في سنة ثالثة.. إلى آخره.. وهكذا تصير الحضارة الإسلامية لهاثًا وراء مبررات الجزية، وركضًا وراء قوائم الضرائب، ومتابعة للمحتسب وهو يتجول في الأسواق، واستعراضًا وصفيًّا لمنظومة الدواوين، وعرضًا للصراع على المناصب الكبرى، وتصنيفًا فجًّا للعلوم ما بين نقلية وعقلية.. إلى آخره..

وبذلك يتخرج الطالب وهو لا يملك معرفةً معمقة بشخصية حضارته الإسلامية ومكوّنيها الأساسيين: الوحي والوجود، ونقطة ارتكازها الكبرى: التوحيد.. كما أنه لا يلمُّ جيدًا بعناصر تميّز هذه الحضارة، ولا الاعتزاز بها، رغم البعد التربوي للنشاط الأكاديمي. وما يتمخض عن ذلك من نتائج معاكسة؛ حيث يصير تدريس الحضارة الإسلامية سلاحًا نشهره ضد أنفسنا.. هذا وما يترتب على المنهج التفكيكي من فك الارتباط بين العقيدة الإسلامية وبين معطيات ومكوّنات الحضارة الإسلامية نفسها، كما أنه يقود إلى نتائج مضلّلة كتلك التي قال بها (فيليب حتّي) في (تاريخ العرب المطول) وعدد من الباحثين والمستشرقين، من أن الحضارة الإسلامية لا تعدو أن تكون (قطع غيار) لُملمت من الحضارات الأخرى اليونانية والهلّينية والرومانية والبيزنطية والفارسية والهندية، ووُضع عليها رداء خارجي يحمل شعار (الحضارة الإسلامية).

وتجاوزًا لذلك كله يمكن اعتماد منهج شمولي يتابع الخصائص الأساسية للحضارة الإسلامية كشخصية متميزة، ويضع اليد على شبكة التأسيسات التي

صاغها كتاب اللّـه وسنة رسوله ﷺ وعصر الرسالة لتحفيز الفاعلية الحضارية، ويتابع معطيات هذه الحضارة، في سياقاتها كافة، ووظائفها الأساسية، وملامحها المتميزة عبر مراحل نموّها وتألّقها، ويستقصي - بالمقابل - العوامل التي قادتها إلى التدهور وفقدان الفاعلية، والشروط التي تمكّنها من الانبعاث كرّة أخرى، واحتمالات المشاركة العالمية في المصير.

ويمكن أن تخصص السنة الأولى للتأسيسات، والسنة الثانية للمعطيات والوظائف والخصائص، والسنة الثالثة لعوامل الانهيار، والسنة الرابعة لإمكانيات الانبعاث وأبعاد الجدل مع التحديات والنظريات المعاصرة من مثل النظام العالمي الجديد ذي القطبية الأحادية، والعولمة، ونظريتي (نهاية التاريخ) و (صراع الحضارات).

لنرجع إلى المقررات المنهجية لقسم التاريخ في كليتنا مقارنةً بما يعطى في عدد من الجامعات العربية..

ابتداءً لا بد من الإشارة إلى أن قسم التاريخ في كليتنا عقد في صيف عام (٢٠٠٣م) جملةً من الجلسات لمناقشة المناهج المعتمدة في القسم، وقد شارك في هذه الجلسات عدد من أساتذة القسم وتدريسييه؛ حيث أجريت جملةٌ من التغييرات على هذه المناهج شملت مساحات ليست بالقليلة من مفرداتها، فيما جعلها أقرب إلى السوية المطلوبة، ومع ذلك تظل الأقسام كافة، وليس قسم التاريخ وحده، بحاجة إلى جهد كهذا يأخذ طابعًا دوريًّا من أجل إحكام المناهج، وتحسين الأداء، حينًا بعد حين، وستكون بعض البحوث والمرئيات المعروضة في هذا المؤتمر خطوةً أخرى على الطريق.

لقد قامت اللجنة المعنية بمنهاج قسم التاريخ في كليتنا باستقصاء المواد المعطاة في أقسام التاريخ في كل من كليتي آداب وتربية جامعة الموصل، وكليتي آداب وتربية جامعة بغداد، وكلية الدراسات التاريخية في جامعة البصرة، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة دمشق، وكلية آداب جامعة بيروت العربية، وكلية آداب جامعة القاهرة، وكلية آداب جامعة الزرقاء الأهلية في الأردن.

وقد تبيّن - كما هو معلوم - أن المواد المعطاة في هذه الأقسام كافة، وربما في معظم أقسام التاريخ في الوطن العربي، تندرج في سياقين رئيسين يتمثل **أولهما** بالمواد التاريخية الصرفة، ويتمثل **ثانيهما** بالعلوم المساندة أو المساعدة. هذا وإن السياق الأول ينطوي على نمطين من المواد التاريخية، نمط يمثل قاسمًا مشتركًا بين الأقسام كافة، من خلال سعيه لتغطية التاريخ البشري حسب مراحله أو بيئاته، ونمط يختلف فيه قسم عن آخر، يتناول موضوعات تاريخية ذات طابع إقليمي مما يرتبط بالبلدان والأقاليم التي يمارس فيها القسم مهماته.

والسياق الثاني يختلف هو الآخر في بعض مفرداته.. وهنالك بالتأكيد - كما سنرى - قاسمًا مشتركًا لعلوم مساندة تُدرّس في الأقسام كافة، ولكن هناك - في الوقت نفسه - عدد من المواد المغايرة التي قد تُدرّس في هذا القسم ولا تدرّس في ذاك.

فأما السياق الرئيس في قاسمه المشترك بين الأقسام كافة، فيتمثل في المواد التالية: عصور ما قبل التاريخ، التاريخ القديم، وادي الرافدين ووادي النيل والأقوام السامية، اليونان والرومان والفرس، تاريخ العرب قبل الإسلام، عصر الرسالة، عصر الراشدين، الدولة الأموية، العصور العباسية المتقدمة، العصور العباسية المتأخرة، المغرب والأندلس، الدويلات الإسلامية (بما فيها الفاطميون والأيوبيون والمماليك)، الدولة العثمانية، تاريخ الوطن العربي المعاصر، العصور الوسطى الأوربية، عصر النهضة، العصور الحديثة الأوربية، أوربا المعاصرة، أمريكا، العالم الإسلامي، العالم الثالث (آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية)، الحضارة الإسلامية (الفكر والنظم الاقتصادية والمجتمع والعمران).

وأما المواد ذات الطابع الإقليمي فهذه بعض نماذجها: تاريخ العراق القديم، تاريخ الإسلام في البحر المتوسط، تاريخ الموصل والجزيرة الفراتية، انتشار الإسلام في إفريقيا، انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا، تاريخ الشرق القديم، تاريخ العراق الحديث والمعاصر، تاريخ مصر الحديث والمعاصر، تاريخ بلاد الشام الحديث والمعاصر، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، تاريخ إيران

وتركيا الحديث والمعاصر، الحروب الصليبية، حركات التحرر الحديثة، تاريخ مصر القديم.. إلى آخره..

فإذا جئنا إلى المواد المساندة فإننا سنجدهـا هي الأخرى تنقسم إلى نمطين، يمثل **أولهما** قاسمًا مشتركًا بين الأقسام كافة بسبب ضرورته القصوى لدارس التاريخ، من مثل: منهج البحث والمكتبة، فلسفة التاريخ، الجغرافيا (بفروعها كافة)، اللغة العربية والنصوص الإنكليزية، الحاسبة الإلكترونية.

أما النمط **الآخر** فتختلف فيه كلية عن أخرى حسب توجهاتها الأساسية، وأهم مواد هذا النمط: علم النفس، علم الاجتماع، الأنثروبولوجي، علم التاريخ، حقوق الإنسان، ثقافة، طرق تدريس، الإرشاد والصحة النفسية، قياس وتقويم، تطبيقات، لغات (مختلفة)، الاقتصاد، الفكر السياسي، التربية، الفلسفة، بحث التخرج، الآثار، قضايا عالمية معاصرة، الإعلام، الأخلاق، الأدب العربي، المدينة العربية الإسلامية، الاستشراق.

وقد استطاع قسم التاريخ في كلية الآداب أن يحقق قدرًا من التوازن في السياقات كافة، فأعطى المساحة الزمنية الأوسع للمواد التاريخية الصرفة التي تغطي معظم الفترات، باعتبار انتمائه إلى كلية أكاديمية وليست مهنية أو تربوية، لكنه لم يغفل اعتماد عدد من المواد هي: منهج البحث التاريخي، وبحث التخرج، وفلسفة التاريخ، واللغة العربية، والجغرافيا العامة، والحاسبة الإلكترونية، والنصوص الإنكليزية، وحقوق الإنسان (وهذه الأخيرة تأتي في سياق مادة الثقافة المعتمَدة في كليات جامعة الموصل كافة).

ويبقى هناك عدد من المواد المساندة تحمل ضرورتها البالغة في تمكين طالب التاريخ من استكمال قدراته التخصصية من مثل الأدب، وعلم الاجتماع، والفكر السياسي، والعلوم الإسلامية والاقتصاد، إلَّا أن ضغط الساعات تضع قسم التاريخ، والأقسام كافة، أمام محنة الاختيار، فتجد نفسها إزاء المبدأ المعروف (ما لا يُدرك كله لا يُترك جله). والمهم أن قسم التاريخ في كلية الآداب، بقدر تعلق الأمر بالمواد التخصصية، وبإحالة برنامجه على برامج الأقسام التي اعتمدت في هذه

الدراسة الموجزة، استطاع أن يحقق تغطية زمنية متكاملة لمعظم المراحل والبيئات التاريخية، وأن يحقق مع هذه التغطية توازنًا ملحوظًا في المساحة المعطاة للمواد التخصصية كافة.

ويبقى أن هناك بعض الملاحظات والمرئيات التي خلصت إليها هذه الدراسة، يفضّل أن تؤخذ بعين الجدِّ من أجل تحسين الأداء في أقسام التاريخ كافة، فضلًا عن قسم التاريخ في كليتنا، من أجل تخريج طلبة يستحقون فعلًا أن يحملوا شهادة التخصص (البكالوريوس) في علم التاريخ، **وفيما يلي أهم تلك الملاحظات:**

١ - هناك ارتباك في التسلسل الزمني للدول والعصور المعطاة للطلاب، يفضل تداركه بإعادة ترتيب هذه المواد.

٢ - غياب العرض المقارن والضروري بين ما كان يجري في مرحلة ما من التاريخ الإسلامي وما يزامنها من أحداث في العالم المحيط.

٣ - عدم مراعاة النضج العلمي للطالب من خلال وضع بعض المواد الصعبة في مراحل مبكرة.

٤ - عدم الاهتمام بالبحث بشكل كافٍ، وهذا يعني ضرورة إعطاء مادة منهج البحث في أكثر من سنة، وتعزيز ذلك بتكليف الطلاب ببحوث وتقارير على مدى السنوات الأربع، ومنح اهتمام أكبر ببحث التخرج من خلال وضع قائمة ضوابط ومعايير سواء في إنجازه أو تقدير مستواه.

٥ - ضرورة البحث عن صيغ أكثر فاعلية في تمكين الطالب من اللغة الإنكليزية.

٦ - إعادة النظر في المواد المساعدة، أو المساندة، لتحقيق توازن أفضل في الساعات بين المواد التخصصية والمواد المساعدة.

٧ - التأكيد على الخطوط والملامح الأساسية للعصور التاريخية المعطاة للطلبة بدلًا من الاستغراق في التفاصيل التي سرعان ما تتعرض للنسيان، فالذي يبقى في الذاكرة ويُعين على الوعي التاريخي هو الملمح أو مجموعة الملامح الأساسية لكل عصر من العصور.

٨ - عدم تقطيع الحضارة الإسلامية وتفريق معطياتها على السنوات الدراسية، والتعامل معها - بدلًا من ذلك - كوحدة مترابطة ذات شخصية متميزة ومتنامية، تمرّ بمراحل النشوء والنمو والذبول، وتحمل إمكانيات القدرة على الانبعاث، وتخصيص كل مرحلة لسنة من سنوات الدراسة الجامعية.

٩ - منح الاهتمام الجاد والمتواصل بإعادة الطلبة إلى تقاليد المطالعة الخارجية وعشق الكتاب، وتوسيع فضائهم المعرفي بالقـراءات المتنوعة. ويـفضل أن يقوم التدريسيون بترتيب قوائم منتقاة بالكتب الأكثر أهمية وفائدة، وإغراء الطلاب بقراءتها.

١٠ - لغة التعبير في بحوث طلبة البكالوريوس، وحتى الكثيرين من طلبة الدراسات العليا، تعاني من العقم والضعف والركاكة، فضلًا عن أنها تنطوي على حشود كبيرة من الأخطاء النحوية والإملائية واللغوية، ولا بد من أخْذ ذلك بقدر كبير من الجدية، وتحويل مادة اللغة العربية المعطاة في أقسام التاريخ إلى آلية فاعلة في تحسين أدائهم التعبيري. ولعل الفقرة السابقة الخاصة بالمطالعة الخارجية تساعد الجهد التدريسي على تحقيق المطلوب.

١١ - يفضل إضافة مادة تُعنى بعالم الإسلام والتحديات المعاصرة فيما يكاد يكون غائبًا عن مناهج أقسام التاريخ في معظم الجامعات العربية، وقد يندرج في المادة المذكورة موضوع (الأقليات الإسلامية في العالم المعاصر)، فضلًا عن (عالم الإسلام والحضارة الغربية) و (العولمة) ونظريتي (نهاية التاريخ) و (صراع الحضارات).

١٢ - كما يفضل أن تخصص ساعات مناسبة لتاريخ الأمريكيتين الحديث والمعاصر، وكذلك الحال بالنسبة لإفريقيا وآسيا، ودول الجوار (تركيا وإيران)؛ نظرًا لأهميتها البالغة للمتخصصين في التاريخ.

١٣ - وبسبب من ضآلة معرفة طلبة قسم التاريخ، وانعدامها أحيانًا، في العديد من العلوم الضرورية للتخصص في حقل التاريخ، وبخاصة العلوم الإسلامية

والفكر السياسي، يفضل تخصيص ساعاتٍ مناسبة لمادة (الثقافة) من أجل تدارك هذا الفراغ الملحوظ لدى خريجي التاريخ.

* * *
* *
*

في التراث الإسلامي

- في منهج التعامل مع التراث.
- ملاحظات في التراث.

في منهج التعامل مع التراث

قد يكون الإلحاح في التنظير مضللًا في بعض الحلقات المعرفية، وقد ينشئ « تقاليد » تزداد بمرور الوقت شيوعًا، فيجد الباحثون أنفسهم ملزمين بأن يقولوا كلمتهم أو « وجهة نظرهم » في مسألة قد لا تحتاج إلى كبير عناء للتأشير على صيغ التعامل معها.

وهذا ما حدث بالنسبة للموروث المعرفي الذي خلّفته الأمة الإسلامية عبر التاريخ والذي أصبح - للسبب المذكور - حقلًا مفتوحًا لتجارب اليمين والوسط واليسار، إذا صحّ التعبير، ومورست إزاءه صيغ الانتقاء حينًا، والأحكام (الأيديولوجية) المسبقة حينًا آخر، والتنظيرات الشمولية التي قد ترتطم ببعض حلقاته، حينًا ثالثًا، وكانت النتيجة في كل الأحوال سيلًا من البحوث والمؤلفات التي تنطوي - بالتأكيد - على كشوف واستنتاجات في غاية الأهمية، ولكنها تتضمن في الوقت نفسه مواقف ومرئيات قد لا تصمد طويلًا بإحالتها على التيّار العام للتراث الإسلامي، وخصائصه الأساسية، ومنظومة الأفكار التي تمحور حولها عبر القرون.

وعلى سبيل المثال، فإن تنظير « الجابري » المعروف بخصوص ثلاثية العقيدة والقبيلة والغنيمة التي يفسر تراث الإسلام، قد لا يكون مقنعًا وهو يذكرنا بمقولة الكاتب المجري كوستلر من أن الفكرة التي تستطيع تفسير كل شيء، فإنها في نهاية الأمر لا تكاد تفسّر شيئًا، كما تذكرنا بتعليق الفيلسوف الإيطالي بنيدتو كروتشه على (مثالية) هيغل من أن فكرة هيغل عن الحياة كانت فلسفية، بحيث إن النزعتين المحافظة والثورية تجد فيها ما يبرّرها، وفي هذه النقطة يتفق إنغلز الاشتراكي والمؤرخ المحافظ ترايتشه؛ لأن كليهما يرى أن تماثل المعقول والحقيقي يمكن أن يدعى إليه بصورة متساوية في كل الآراء السياسية والأحزاب التي تختلف عن بعضها، لا من ناحية هذه الصيغة المشتركة، بل في تعيين ما هو المعقول والحقيقي، وما هو غير المعقول وغير الحقيقي!! واتهام خصمه - بالتالي - بأنه مخالف

للمعقول؛ أي أنه ليس له وجود ملموس وحقيقي، ويكون بهذا الادعاء قد وضع نفسه مع الفلسفة في خط واحد[١]!!

إن الوقائع التاريخية - إذا أردنا الحق - تستعصي على القياس، وتتأبى على المسطرة، ولقد مارس الكثيرون هذا الأسلوب فأخفقوا؛ لأن منظوماتهم المهندسة بإتقان اختُرقت في أكثر من مكان، وليست تنظيرات الماركسية عنا ببعيدة. إننا نتذكر هنا - أيضًا - استنتاجًا لألكسيس كاريل في (الإنسان ذلك المجهول)[٢] بخصوص طرائق عمل الدماغ البشري يشير فيه إلى عشق العقل البشري هندسة الظواهر والأشياء وترتيبها في أنساق محددة، حتى ولو كانت ظواهر حيوية يصعب إخضاعها للنظام بخلاف الظاهرات الفيزيائية مثلًا.

لننظر - على سبيل المثال - في تاريخ أوربا في العصور الوسطى، فماذا نجد؟ إن العقيدة والغنيمة والقبيلة هي المؤشرات الأساسية في هذا التاريخ، ولو رجعنا إلى ما قبل هذا التاريخ، أو إلى تاريخ أية أمة من الأمم فإننا سنجد هذا المثلث - إلى جانب مؤشرات أخرى - يلعب دوره المؤكد في الصيرورة التاريخية لتلك الأمة. هذا هو قدر التاريخ البشري، فإذا حاولنا أن نقصر الظاهرة على أمة بالذات وقعنا في الخطأ. بل إنه حتى التاريخ الحديث والمعاصر يشهد على فاعلية هذه العوامل الثلاثة: أليس الاستعمار والبحث عن مناطق النفوذ في العالم محاولات غنائمية؟ أليس التمييز العنصري في أمريكا مزاجًا قبليًّا بشكل من الأشكال؟ أليس الصراع بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثذوكسية صراعًا عقديًّا؟ والاستعمار نفسه أَلَا يمكن أن نضيفَ إلى بُعده الغنائمي بُعدًا عقديًّا (صليبيًّا) وبُعدًا قبليًّا يتحرك تحت غطاء تفوق الرجل الأبيض؟ لا، بل إن التجربتين النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا تنطويان - بشكل أو آخر - على ثلاثية العقيدة والغنيمة والقبيلة؟ إذن ماذا نسمّي الصليب المعقوف والممارسات الإيطالية الصليبية في ليبيا والبحث

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ، ترجمة كاظم الجوادي، الدار الكويتية للطباعة والنشر (ص٧٦ - ٧٧).

(٢) ترجمة عادل شفيق، الدار القومية، القاهرة (١٩٦٤م)، الفصل الأول (ص١١ - ٣١).

عن المجال الحيوي وسط أوربا ودعوى الآرية والرومانية في التجربتين؟

هذا مثال على السياق العام في التعامل مع التراث، وهناك بين يدي مثال آخر على السياق الخاص متمثلًا بمحاولة إرغام حلقة ما من التراث، أو مفكر أو مؤرخ أو فيلسوف، على أن ينطق بلسان عقائديي القرن العشرين.

يقول مهدي العامل في كتاب يحمل عنوان (في علمية الفكر الخلدوني): « ثورة ابن خلدون الفكرية تكمن في أنه حرّر الفكر التاريخي من هيمنة الفكر الديني، بأن اكتشف في واقعات التاريخ عقلها المادي فأحلّ ضرورة العمران محل اللّـه - أو ما يشبهه - في تفسير الظاهرات جميعًا فاستبدل التأويل بالتفسير، فكان التفسير، بالضرورة، ماديًا، وكان علميًّا من حيث هو مادي، دون أن يعني هذا رفضًا للدين أو الشرع ومبادئه، فالشرع شيء، والتاريخ - أو العمران - شيء آخر، وليس هذا ذاك ولا ذاك هذا! ولئن دخل الشرع، أو الدين، في حقل العمران، أو التاريخ، كما هو واقع الأمر في « المقدمة »، فكأمر عمراني، أو تاريخي، مادي، لا كأمر غيبي أو إلهي، وينظر فيه، حينئذٍ، بعين العمران وقوانينه، لا بعين الدين ومبادئه، أو بعين الشرع وأحكامه، فلمسائل الشرع منطقها، ولمسائل العمران والتاريخ منطقها، ولا يصحّ، في المعرفة، الخلط بين المنطقين »[1].

وغير هذين المثالين تيار من الشواهد يمكن أن يضع المرء يده عليها وهو يتابع البحوث والمؤلفات التي شهدتها المكتبة العربية عبر ربع القرن الأخير بخصوص منهج التعامل مع التراث، ولن يتسع المجال في صفحات محدودة كهذه لإيراد المزيد منها.

في ضوء هذا كلّه لا بدّ من التأشير على جملة من الضوابط والمعايير الأساسية في منهج التعامل مع التراث، إذا أردنا - فعلًا - أن نصل إلى صيغ واستنتاجات أكثر دقة وأدعى إلى القبول:

أولًا: إن هذا التراث هو تراث إسلامي على وجه التحديد، يعكس - بدرجة

---

(١) مهدي العامل: في علمية الفكر الخلدوني، دار الفارابي، بيروت (١٩٨٦م)، الطبعة الثانية (ينظر تعليق الناشر على الغلاف الخلفي للكتاب).

أو أخرى - تصوّرًا متميزًا للكون والعالم والوجود، وأنه - بشكل أو بآخر - تعبير عن العقيدة والشريعة الإسلاميتين، بغض النظر عن مدى توافق هذا التعبير أو تغايره - أحيانًا - مع ثوابت هذه العقيدة أو الشريعة.

لقد هيأت العقيدة الإسلامية، عن طريق المعطيات القرآنية والنبوية، المناخَ المناسب للنشاط المعرفي، ومنحته الحوافز والمبرّرات، ودفعته إلى العطاء، ومكّنته من مجابهة تحديات المعارف التي وجد المسلمون أنفسهم قبالتها في أعقاب عمليات الفتح الكبرى، والتي كان عليهم أن يؤصِّلوا شخصيتهم الثقافية إزاءها، ليس عن طريق الانغلاق على الذات الذي قد يقود إلى التضحّل والانكماش، وليس عن طريق تقبّل هذه المعارف بالكلية، الأمر الذي قد يقود إلى الاندغام في الآخر، وإنما باختيار الحدّ الوسط الذي يقوم على الانفتاح والتحصّن.. القبول والرفض.. الأخذ والعطاء.

وقد يكون الحديث عن دور الإسلام، عقيدة ومنهجًا وتشريعًا، في تشكيل المناخ المعرفي، مسألة عقدية صرفة، ولكننا سرعان ما ندرك بعدها التاريخي بمجرد أن نتذكر ما تمخض عنها من نشاط معرفي عبر تاريخنا الإسلامي، والخصائص التي اكتسبها هذا النشاط وهو ينبثق عن العقيدة التي صاغت، أو أثّرت في مفرداته على أقل تقدير، وبمجرد أن نتذكر أن هذا الدور أحدث تغييرًا أساسيًّا في المواريث الفكرية (الوضعية والدينية المحرّفة) التي كانت سائدة في العالم عند ظهور الإسلام، وبمجرد أن نقارن المدى الواسع للنقلات المعرفية التي حققها الإسلام والتي لم يبلغ العقل البشري الوضعي حافاتها إلَّا بعد انقضاء قرون طويلة.

إننا بمجرد أن نتذكر هذا كلّه، نتبين كيف أن الدور الذي رسمه ونفّذه الإسلام في السياق المعرفي، كان - بمعنًى من المعاني - دورًا تاريخيًّا؛ أي ممارسة في صميم الحركة التاريخية التي استمرّت تتصادى في فاعليتها مع مقوّماتها الإسلامية عبر العصور التالية كافة، وصاغت بالتالي معرفة متميزة كان لها ثقلها وخصوصيتها وتأثيرها بين ثقافات التاريخ البشري كلّه.

إن انعكاس المبادئ الإسلامية الأساسية على النشاط المعرفي عبر تاريخنا

منحه خصائصه الإسلامية المتميزة التي يمكن أن تمثل ليس مبرّر استمراره في العالم فحسب، بل تمنحه القدرة على اقتحام شبكة النشاط المعرفي للحضارة الراهنة، والقدرة الفعالة على الإسهام المستقبلي فيه.

ولن يتسع المجال للتأشير على بعض ما قاله الباحثون الغربيون لتأكيد هذا الانعكاس، ويكفي أن نحيل القارئ إلى بعض شواهده..[1]. وهذا التأكيد يعد - ولا ريب - ضرورة علمية بسبب من صعوبة الفصل بين النشاط المعرفي الإسلامي عبر التاريخ، وبين البيئة الإسلامية التي تشكّل فيها وتلقّى عنها مؤثراته وحوافزه ومكوّناته. وما من ريب - استنادًا إلى هذا - في أن أية محاولة لتوهّم فصل أو تعارض كهذا، إنما هو أسلوب مضلّل في دراسة تراثنا المعرفي، ولن تكون نتيجته سوى حشود من الأوهام والأخطاء التي تنافي روح البحث العلمي الجاد.

ثانيًا: وهذا لا يعني - بالضرورة - إدراج النصوص القرآنية والنبوية التي تنبني

(١) يُنظر - على سبيل المثال -: كوستاف فون كرونباوم: الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، تحرير كرونباوم، ترجمة د. صدقي حمدي، دار المتنبي، بغداد (١٩٦٦م)، (ص٣٨ - ٣٩، ٥٣، ٧٩ - ٨٠، ٨٠ - ٨١، ١٢٣، ١٤١)، مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت (١٩٨٠ م)، (ص ٤٢٥)، موريس بوكاي: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، دار المعارف، القاهرة (١٩٧٨م)، (ص١٤)، أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (١٩٦٠م)، (١/ ٢٤١)، دومينيك سورديل: الإسلام، ترجمة د. خليل الجر، المنشورات العربية، بيروت (١٩٧٧م)، (ص ١٠٢)، ليوبولد فايس (محمد أسد): الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٦٥م)، الطبعة السادسة، (ص ٧٠ - ٧١)، شاخت وبوزورث: تراث الإسلام، ترجمة السمهوري ورفاقه، سلسلة عالم المعرفة، الكويت (١٩٧٨م)، (١/ ١٠)، هاملتون كب: دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة د. إحسان عباس ورفاقه، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٦٤م)، (ص٣ - ٤)، كوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (١٩٥٦م)، الطبعة الثالثة، ص ٣١٨، سيكريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب (في الأصل: شمس اللّـه تسطع على الغرب)، ترجمة بيضون والدسوقي، المكتب التجاري، بيروت (١٩٦٤م)، (ص٣٩٣ - ٣٩٤، ٣٩٤، ٥٣٠)، مونتكمري وات: تأثير الإسلام على أوربا في العصور الوسطى، ترجمة د. عادل نجم العبو، دار الكتب، الموصل (١٩٨٢م)، (ص١٨، ١٢٤)، روم لاندو: الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٧٧م)، الطبعة الثانية (ص٢٤٦، ٢٨٠ - ٢٨١).

عليها العقيدة والشريعة، في سياق المعطى التراثي، بسبب من اختلاف المصدرين، والخصائص المتميزة لكل معطًى. فنحن في الحالة الأولى نجد أنفسنا قبالة موروث ينطوي على الصواب والخطأ؛ لأنه موروث بشري، أو وضعي، بالمفهوم اللغوي. بينما تعكس الحالة الثانية معطيات إلهية ونبوية « يقينية » لا تقبل أيما نقص أو خطأ. وهكذا فإن المسلم هاهنا يجد نفسه ملزمًا بالأخذ بالقبول والتسليم، أما هناك فهو بإزاء هامش واسع من الحرية والاختيار في الأخذ والردّ والتغيير والتحوير.

وإذا كان التراث بمفهومه الوضعي وليد لحظة زمنية ما، أو بيئة محددة في أغلب الأحيان، فإنه يظل - إلى حد كبير - مشروطًا بالتاريخ والجغرافيا.. قد يتحرر منهما - بكل تأكيد - في هذه الناحية أو تلك، وعبر هذا المسار أو ذاك، لكنه في الأعم الأغلب يبقى انعكاسًا لوضع نسبي يصعب سحبه على كل الأماكن والأزمان. بينما نجد أنفسنا ونحن نتعامل مع القرآن والسنة، أننا في التاريخ وخارجه، في التراث وبعيدًا عنه.. إنهما يتعاملان بكل تأكيد مع التاريخ والجغرافيا، بحكم التوجّه الواقعي لهذا الدين، والذي يستهدف إعادة صياغة الحياة في الزمن والمكان في ضوء معايير ومعطيات الوحي القادمة من فوق. ولكن هذا ليس نهايةَ المطاف، وإلَّا وقع التعارض - ابتداءً - بين المنطوق الديني للإسلام والمنطوق الوضعي الذي يراد أن يصبّ فيه أو يؤثر في حدوده.

إن النصّ الديني يتحرّر من الجغرافيا والتاريخ، ويتجاوز مواضعات الزمن والمكان، ويمضي لكي يتعامل مع كل لحظة أو بيئة وفق مطالبها المتميزة، قديرًا على الحضور بكل ثقله في قرن عاشر أو عشرين، في ساحة أفريقية أو آسيوية أو أمريكية، ومن ثم فإن محاولة إرغامه على أن يصير معطًى تراثيًّا إنما هي محاولة خاطئة ومضلّلة ابتداءً.

إن تراث أمتنا ليس الإسلام، والإسلام ليس تراث أمتنا بالشكل الرياضي الصارم كتطابق مثلثين تناظرت زواياهما، إنما يجيء التراث نتاج تفاعل بالإيجاب والسلب، مع الإسلام بالدرجة الأولى، ومع عدد آخر من المذاهب والثقافات والأديان بدرجة أو أخرى، فهو إذن - أي التراث - حشد من المعطيات تتمخض

عن طبيعة التجربة التي أحدثتها مواقف آبائنا وأجدادنا في تعاملها مع هذا الدين ومع حيثيات التاريخ والجغرافيا ونسبيّاتهما.

إن الإسلام عقيدة ومنهاج صاغتهما يد اللّـه الحكيمة القديرة المريدة العالمة، ومنحتهما الصفة الدائمة التي تتجاوز حدود الزمن والمكان وأطروحتهما الموقوتة الزائلة المتغيرة النسبية؛ لكي تكون بمثابة استشراف كامل مرن يتسع لكل حالة، ويحتوي كل تجربة بغض النظر عن موقعها في الزمان والمكان.

أما التراث فهو عطاء موقوت، وهو رغم تأثيراته الدائمة الممتدة في مسارب الزمان والمكان، لن يبلغ حالة الاستمرارية والدوام، كما أنه - باعتباره حصيلة لقاء واقعي بين الإنسان والعقيدة - يجيء متأرجحًا بين الفجاجة والنضج، وبين الصرامة والمرونة، وبين النقص والكمال.

ثالثًا: وهذا يقود إلى معيار أو حقيقة أخرى: إن تراث المسلمين الذي يعكس الحالة الإسلامية، وينطوي في الوقت نفسه على احتمالات الخطأ والصواب.. الرؤية النسبية والتصوّر الممتد في الزمن والمكان.. هذا التراث، بعد فك الارتباط بين معطياته وبين النصوص الدينية المستمدة من الوحي، لا يحمل - بالضرورة - حكمًا ملزمًا بقبوله، أو التعامل معه بأي قدر من الإجلال والتقديس، ومن ثم ينفتح المجال للأخذ والردّ، للقبول والرفض، وللانتقاء المنضبط بمعايير مستمدة من داخل الحالة الإسلامية لا من خارجها، من أجل أن نكون صادقين مع أنفسنا وتراثنا.

بمعنى أن استدعاء معايير خارجية قد لا يكون على المستوى المنهجي عملًا صحيحًا؛ لأنه سيقود إلى نتائجَ خاطئةٍ أو مضللةٍ، فيما يذكرنا بالخطأ الحسابي الذي يجعل من حاصل جمع برتقالة وتفاحة: اثنتين. وهذا هو الذي حدث ويحدث عبر الزمن الراهن، ومن خلال سيل من البحوث والدراسات التي أرادت إرغام هذا التراث على الخضوع لمعايير « أجنبية » بمعنى الكلمة، وجعل منظومة الأفكار المتشكلة عبر القرنين الأخيرين حاكمًا على التراث المتشكل في قرون سبقتها بعمق زمني كبير.

ولأضرب مثلًا واحدًا فحسب على هذه الخطيئة التي تغطي مساحات واسعة من أعمال المعاصرين، شرقيين كانوا أم غربيين.

يذكر المستشرق الهولندي دي بوير « بأن الدين لم يؤثر في آراء - ابن خلدون - العلمية - في المقدمة - بقدر ما أثّرت الأرسطوطاليسية الأفلاطونية »[١]، ويشير باحث آخر هو ناتانيل شميت، الأستاذ في جامعة كورنل بأمريكا إلى أن ابن خلدون « إذا كان يذكر خلال بحثه كثيرًا من آيات القرآن، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله، ولعله يذكرها - فقط - ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن »[٢].

وثمة مستشرق ألماني هو فون فيسندنك يقول: إن ابن خلدون « تحرّر من أصفاد التقاليد الإسلامية في درس شؤون الدولة والإدارة وغيرهما، وأنه حرّر ذهنه - كذلك - من القيود الفكرية التي ارتبطت في عصره بالعقائد العربية الصحيحة »[٣].

ويبقى أن التراث ليس معطًى مقدسًا، أو وقرًا تنوء به ظهور أجيال المسلمين على مدار القرون، فإن القرآن الكريم نفسه إذ وضعنا في مساحات واسعة منه تربو على النصف في التاريخ، حرّرنا منه في الوقت نفسه ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٥].

وهذا يقودنا إلى مسألة منهجية أخرى:

رابعًا: إذ ما دام الأمر كذلك، فإن لنا - ونحن نطمح للتأصيل الإسلامي للنشاط المعرفي، ولصياغة مشروعنا الحضاري، أو وضع لمساته الأولى بشكل أدق - أن نرسم منهجًا مناسبًا ومرنًا في التعامل مع التراث، منهجًا يمنح المشروع عمقه التراثي، وشخصانيته وخصوصياته، ولكنه يحرّره في الوقت نفسه من تيار من

(١) محمد عبد اللـه عنان: ابن خلدون: حياته وتراثه الفكري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (١٩٦٥م)، الطبعة الثالثة (ص١٧٧ - ١٧٨).

(٢) المرجع السابق (ص١٩٠).

(٣) المرجع السابق (ص٢٨١).

(٤) سورة البقرة: الآيتان ١٣٤، ١٤١.

(٥) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

المعطيات قد لا تكون مناسبة أو ضرورية لحملها والمضي بها قدمًا عبر القرن الجديد؛ **أولًا**: لكونها أسيرة لحظة ما من التاريخ أو بيئة ما من الجغرافيا، قد تكون صالحة « هناك » ولكنها لا تحمل جواز مرورها إلى لحظات أو بيئات أخرى. **ثانيًا**: لكونها تنطوي على استنتاجات متناقضة، أو خاطئة ابتداءً، بالإحالة على الكشوف المعرفية الأكثر حداثة. **ثالثًا**: لكونها تقف عائقًا أمام حرية الفقيه في تنزيل أحكامه على الواقع المتغيّر في ضوء مقاصد الشريعة العليا، ووفق الضوابط الأصولية المتعارف عليها.

إن الإمام الشافعي نفسه رَحِمَهُ اللهُ أفتى بمصر في قضية ما بغير ما أفتى به في العراق إزاء القضية نفسها؛ أي أنه - بمعنًى من المعاني - لم يحمل معه وهو يرحل إلى مصر مطالب البيئة العراقية، ووجد نفسه حرًّا في إصدار « قضاء » جديد، وهذا ينسحب على تغاير الأزمان مثلما هو بالنسبة لتغاير الأماكن.

خامسًا: وفي ضوء هذا كلّه يمكن إعادة تفكيك الموروث المعرفي الإسلامي، أو محاولة تصنيفه وفق أولويات وضوابط محددة تستهدف التأشير المتأنّي على ما يلي:

١ - المساحات التراثية « المرحلية » التي فقدت قدرتها على المرور إلى العصر، والتي يمكن أن تكون مجالًا للتحقيق والبحث والدراسة في السياقات العلمية والأكاديمية والتاريخية.

٢ - المساحات « الحيوية » المرنة والقديرة على الاستمرار، والتي يمكن أن تضيف إلى المعرفة البشرية الراهنة والمستقبلية رصيدًا خصبًا من المعطيات في هذا الفرع المعرفي أو ذاك.

٣ - المساحات التي تعكس التأثير العقدي الإسلامي، ومنطلقه الأساس، ومحوره الأم: التوحيد، بأكبر قدر من الصدق والفاعلية.

عمومًا، فإن النشاط المعرفي عبر التاريخ الإسلامي لن يتجاوز **توجهات ثلاثة**:

- أما **أولها** فهو يغطي المساحة الأوسع في نسيج هذا التراث، وهو ذو دوافع

ومعطيات ونتائج إسلامية. وهذا أمر طبيعي؛ لأن الأرضية التي يقوم عليها هذا النشاط، والبيئة التي يعمل فيها، إسلامية التكوين في جلّ سياقاتها.

- **والتوجّه الثاني** الذي تضيق به المساحة يتضمن معارف محايدة لا تحتوي أيّما قدر من التأثير الإسلامي (كما هو الحال مثلًا في بعض العلوم المنقولة عن الآخرين).

- أما **التوجه الثالث**، الأضيق نطاقًا، فيتضمن أنشطة معرفية مضادة للإسلام (من مثل ما نجده في أدبيات الشعوبية والمعطيات الفكرية لحركة الزندقة).

ويبقى التوجه الأول ذو الصبغة الإسلامية، هو التوجه الأكثر امتدادًا والأعمق تعبيرًا عن عمل العقل المسلم. فإذا أردنا أن نختبر مصداقية هذه المقولة فإن لنا أن نتذكر أنماط المعارف التي تشكلت في دائرة العلوم الإسلامية، تلك الأنماط التي يتضمن كل منها حشودًا من الكشوف والمصنفات، ومئات وربما ألوفًا من البحوث التي تعرض وتوثّق وتحلّل وتستنتج.. إلخ، فهناك:

- **أولًا**: معرفة تعالج قضايا إسلامية (علوم القرآن والحديث، والفقه والتشريع).
- **ثانيًا**: معرفة تجادل عن قضايا إسلامية (علم الكلام، الفلسفة، الأدب..).
- **ثالثًا**: معرفة منبثقة عن قضايا إسلامية (التاريخ، علوم اللغة، البلاغة..).
- **رابعًا**: معرفة متشكّلة لحلّ قضايا إسلامية (الحساب، الطب..).
- **خامسًا**: معرفة متشكّلة بدوافع إسلامية (العلوم الصرفة..).
- **سادسًا**: معرفة تعبر عن قضايا إسلامية (الآداب والفنون..).
- **سابعًا**: معرفة تستهدف تنفيذ مطالب الحياة الإسلامية (علوم الإدارة، السياسة، التربية..).
- **ثامنًا**: معرفة تحلّل ملامح الحياة الإسلامية (علم النفس، الاجتماع..).
- **تاسعًا**: معرفة تحكي وتوثق للحياة الإسلامية (التاريخ، الأدب، الجغرافيا).
- **عاشرًا**: معرفة تؤكد قيم الحياة الإسلامية وتدعو لها (الأخلاق، الرقائق).

فإذا انتقلنا للتأشير على بعض العلوم والمعطيات التي تمخّضت عن النشاط

المعرفي في التاريخ الإسلامي لتحديد طبيعة التأثيرات الإسلامية في نسيجها، فإننا سنجد هذا التأثير يمتد إلى كل علم وفن، فلا يكاد واحد منها يندّ عن دائرته بالمفهوم الرؤيوي الشامل، بل إننا سنجد بعضها يتشكل في رحم البيئة والمؤثرات الإسلامية، وبعضها الآخر سيصوغ مناهجه في العمل من مفردات هذه البيئة، وفئة ثالثة ستضيف خبرات جديدة في الحقل الذي تعمل فيه، وستكون هذه الخبرات إسلامية في دوافعها وتكوينها وأهدافها.

ويصعب على المرء في حيّز كهذا أن يتابع العلوم والآداب كلها، بل حتى أن يؤشر عليها، كما يصعب عليه أن يضرب مثلًا على ما قدمه كل منها من أعمال وكشوف ومصنفات، ولعل نظرة متأنية في فهارس التراث الإسلامي (كتلك التي أنجزها ابن النديم وحاجي خليفة أو بروكلمان وفؤاد سيزكين) تعوض بعض الشيء عن الدخول في التفاصيل، ومن ثم سنكتفي هنا بمجرد التأشير الذي تحتّمه ضرورات الإيجاز.

فعلم التاريخ - مثلًا - يتجذّر في أساسه في المنهج الإسلامي؛ حيث يستعير من مناهج المحدّثين في علم الرجال والجرح والتعديل، ومتابعة الحياة التي تحرّك في مساربها رواة الحديث، طرائقه في العمل، وهو يطرح على أيدي مؤرخين - كالطبري والدينوري واليعقوبي والمسعودي - رؤية عالمية للتاريخ البشري تستمد مقوّماتها من المنظور الإسلامي الذي يعاين التاريخ من خلال توالي الرسالات السماوية ذات الأصول المشتركة والهدف الواحد، وصولًا إلى الإسلام خاتم الرسالات، والأمة التي حملت أمانته الصعبة. فإذا تذكرنا الآفاق الضيقة (القبلية والبيئية) التي كانت تحكم العقل العربي، وجلّ الأقوام الأولى قبل الإسلام، عرفنا كيف كانت التأثيرات الإسلامية قديرة على كسر الجدران وفتح الآفاق باتجاه العالمية وتحويل التاريخ بالتالي من حكايات وأيام ووقائع وأخبار مارستها هذه القبيلة أو تلك إلى عَرْض للتاريخ البشري كلّه.

ثم إن علم التاريخ مضى قدمًا على أيدي أبنائه المسلمين لكي يقدم للفكر التاريخي إضافات ذات غناء كبير على مستوى المنهج والموضوع، وبنظرة سريعة

على رفوف مكتبتنا التاريخية ما بين تواريخ عامة تعتمد منهجًا حوليًّا أو موضوعيًّا، وتواريخ محلية تتابع معطيات مدينة ما أو إقليم أو كيان سياسي، وتتوغل في نسيجه الحضاري دون الاكتفاء بالوقوف عند سطح الأحداث السياسية - العسكرية، ومؤلفات في الخطط تتابع جغرافية المدن وتضع لمساتها الإسلامية على خرائطها.

كما أننا نجد سيلًا من كتب التراجم التي تغطي المساحة الأوسع في المكتبة الإسلامية التاريخية، والتي يتفرّد بها تاريخ الأمة الإسلامية كمًّا ونوعًا قياسًا على تواريخ سائر الأمم والحضارات الأخرى. فإذا تذكرنا الارتباط الصميم بين هذا النمط التاريخي وعلوم الحديث، عرفنا كيف تكون التراجم وليدًا شرعيًّا للبيئة الإسلامية. وبمقدور المرء أن يتابع ألوف المصنفات في هذا السياق، وهي بدورها تنطوي على تغاير في صيغ العرض، فبعضها يعتمد التسلسل الأبجدي، وبعضها الآخر الحدّ الزمني أو المكاني، وفئة أخرى تتابع التخصص العلمي للمترجم لهم، وخامسة تكتفي بالوقوف عند الرجال الذين أتيح لهم أن يكونوا في قمة الهرم الاجتماعي أو السياسي، وسادسة - وهي الأكثر عطاء - تحكي لنا عن أولئك الذين أغنوا الحياة الإسلامية بأعمالهم، وضربوا مثلًا عمليًّا، بسلوكهم الخاص، على ما يريده هذا الدين من أبنائه. ولم يكن معظم هؤلاء سوى أناس عاديين من قلب المجتمع، بل من قاعه، إذا تابعنا مقاييس الملكية والسلم الاجتماعي.

ولم تقف حركة علم التاريخ في الإسلام عند حدّ، إلّا لتتجاوزه إلى آفاق جديدة؛ إذ إننا ما نلبث أن نجد مؤرخين يرفضون اعتبار التاريخ مجرد أداة سردية للوقائع التاريخية تكتفي بالعرض والوصف، وإنما هي مع هذا - بل قبل هذا - منهج للتفسير والتحليل، وإذا بنا نلتقي مع رجال كالطرطوشي والماوردي وابن خلدون، بالتاريخ وهو يوشك أن يحاذي علم الاجتماع لأول مرة، ويسعى إلى تفسير الظواهر الاجتماعية مستمدًّا مادته ومنهجه من البيئة والمؤثرات الإسلامية الأصيلة.

والجغرافيا تمدّ جذورها هي الأخرى في الحياة الإسلامية وصفًا لهذه الحياة، واستجابة لتحدياتها، واستمدادًا من المنظور الإيماني لمفهوم الرحلة باعتبارها مفردة إسلامية كان هذا الدين قد عدّها فرصة للتقرّب إلى اللّـه. هذا إلى أن الحج،

وزيارة الأماكن الدينية الأخرى، أصبحا بمرور الوقت حافزًا ودافعًا لتوسيع نطاق الرحلات، وتزايد البلدانيين عددًا وعطاء، ونقرأ رحلات (ابن جبير) و (ابن بطوطة) و (الهروي) فنرى كيف كان نداء الموقع الديني يدفعهم إلى الرحيل، فضلًا عن تشوّقهم المعرفي ورغبتهم الأكيدة في تنمية خبراتهم بالمشاهدة الميدانية التي كانت تستمد نبضها ومفرداتها من واقع الحياة الإسلامية، وتحرص على تأكيد قيم هذه الحياة ذات الجذور العقيدية، وهي تصفها وتحكي عنها.

ولم يكن الأمر مسألة رحلة فحسب، بل كانت علمًا بدأ بتقديم خدماته لمؤسسات الدولة وبخاصة في مجالي البريد والمال، ثم انفكّ عنها، وأصبح بتوجّهه المعرفي المستقل قديرًا على تقديم المزيد من الإضافات القيّمة لحقل الجغرافيا بكافة فروعها: البشرية والسياسية والإقليمية والطبيعية.. إلى آخره.. لقد صححت الجغرافيا الإسلامية في كثير من الأحيان معطياتِ الجغرافيا الإغريقية، بعد قيام الرحالة المسلمين بكشوفهم الجديدة في الأصقاع البعيدة، وأصدر الجغرافيون الكتب التي تصف الطرق والمدن الإسلامية، وأسهموا في توسيع مجال علم الجغرافيا.

ومن أبرز هؤلاء (المقدسي) في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » الذي تضمّن بحوثًا في المناجم واللغات المحلية وعروق البشر والعادات والديانات والأوزان والمقاييس.. كما كان هناك جغرافيون هامّون من أمثال البلخي والإصطخري وابن حوقل، فضلًا عن الإدريسي الذي أشار في كتابه المعروف « نزهة المشتاق » إلى كروية الأرض، وبصورة عامة فإن أهمية الجغرافيين المسلمين تكمن في رسمهم الخرائط الجغرافية ووصفهم التفصيلي لمناطق خاصة؛ أي الجغرافية الإقليمية..

والفلسفة اتُّخذت في الأساس أداةً للجدل من أجل تعزيز الأصول العقيدية للإسلام ومحاججة خصومه، ولما كانت في تكوينها يونانية بالدرجة الأولى، فلقد نقلت معها وهي تترجم إلى العربية الكثير من القيم التي قد تتناقض ومبادئ الإسلام، ومن أجل ذلك جرت محاولات واسعة لغربلتها وتنقيتها وجعْلها قديرةً

على أداء مهمتها، متوافقة مع قناعات البيئة التي نقلت إليها.

إن جهود فلاسفة كالكندي والفارابي وابن سينا وابن ماجه وابن رشد، في هذا السياق معروفة، رغم أن انبهار بعضهم بفلسفة الخصم قد دفعهم إلى تمرير مساحات منها قد لا تتفق وتوجهات الإسلام، ومن ثم كانت تلك الوقفة المعروفة لفيلسوف كبير كالغزالي وكان جدله الشهير في « التهافت » مع ابن رشد، الذي يمثل رغم محاولاته التوفيقية، الاتجاه المذكور بدرجة أو بأخرى.

وبمعنًى آخر فإن النشاط الفلسفي، في معظم الأحوال، رغم أنه ليس وليدَ البيئة الإسلامية، كما هو الحال في علوم أخرى، فإنه قد وظَّف بشكل من الأشكال، وبغض النظر عن مدى نجاح المحاولة، لخدمة الأهداف الإسلامية.

في علم الاجتماع يبرز ابن خلدون وهو ليس وحده في الميدان، فقد جاء قبله وأعقبه آخرون، لكن مقدّمته تظل معلمًا بارزًا على قدرة الحياة الإسلامية على إفراز عقل تعليلي نشط كابن خلدون الذي جعل من مقدمته أداة لتحويل النشاط التاريخي إلى فرصة للكشف عن السنن التي تعمل في التاريخ، والتأشير على ما سُمي فيما بعد بقوانين الحركة التاريخية، ورغم ما قيل عن هذه المقدمة من قِبل بعض الباحثين الغربيين الذين اعتبروها - قسرًا - استثناءً ثقافيًا للبيئة الإسلامية، فإننا بالرجوع المتأنّي إلى المقدمة، وإلى حياة الرجل الذي كتبها، سنجدها متجذّرة في البيئة الإسلامية، وسنجد صاحبها واحدًا من أشد المنتمين للإسلام إخلاصًا لعقيدته وقدرةً على فهم دورها في صيرورة المجتمعات[1].

في السياسة نلتقي بتنظيرات كتلك التي قدّمها الطرطوشي في « سراج الملوك » والماوردي في « الأحكام السلطانية » ونظام الملك في « سياسة نامه » وغيرهم، تسعى لأن تحاكم مفردات الحياة السياسية، والنظم والمؤسسات الإدارية التي تنبثق عنها، إلى الإسلام، فتقيس به وعليه. وليس المهم أَلَّا تقع في الخطأ، وأن يظل تأويلها سليمًا، إنما أن تظل على ولائها للمبادئ الأساسية للشريعة التي

---

(١) عولجت هذه المسألة بالتفصيل في كتاب للمؤلف بعنوان (ابن خلدون إسلاميًا)، المكتب الإسلامي، بيروت (١٩٨٣م).

كانت، رغم تداعي السلطات وانهياراتها، الحكمَ الفصل في حياة المسلمين، عبر مساحات واسعة من تاريخهم.

في الاقتصاد نجد كيف نُفذت محاولات جادة لترشيد هذا الجانب أو ذاك من جوانب الحياة الاقتصادية والنشاط المالي، في ضوء المعايير الإسلامية، فأبو يوسف الذي يعهد إليه الخليفة العباسي بمهمة تصنيف كتابه المعروف « الخراج » كان تلميذًا لأبي حنيفة، ونادى في كتابه هذا بضرورة التعامل العادل مع المزارعين وأن تسود قيم العدل الاجتماعي التي أعلنها الإسلام، العلاقة بين الحاكم والمحكوم. والمشكلة الإروائية التي شهدتها بلاد فارس في عهد الطاهريين، والتي تمثلت بمسألة إيجاد نظام لتوزيع مياه الري على المزارعين كافة، عهد بحلِّها إلى لجنة من الفقهاء عكفت على وضع كتاب يعرف بـ« القنيّ » أعان على تجاوز المشكلة بمنظور مستمدّ من أصول إسلامية؛ لأن الذي قدّم الاقتراح هم الفقهاء أنفسهم.

في التربية يكفي أن نرجع إلى معطيات ابن خلدون في « المقدمة »، وإلى الصفحات الأولى من « كشف الظنون » لحاجي خليفة، لكي نرى أن التربية التي تحدثا عنها وقدّما إزاءها المقترحات وطرائق العمل هي تربية إسلامية على وجه التحديد، وليس مطلق تربية، وأنهما قدَرا على تغطية كافة مفردات العملية التربوية من منظور إسلامي أصيل، بل إننا نجد، باستمدادهما هذا من أسس التربية الإسلامية، كيف قدرا على تقديم مسائل في هذا الميدان لم تمسّها الأنشطة التربوية في العالم إلّا في العصر الحديث[1].

ويكفي أن نتذكر - كذلك - أن « المسجد » والمؤسسة التعبدية عمومًا، كانت في أغلب الأحيان مركز العملية التربوية ومنطلقها، فكيف لا تكون المعطيات متشكّلة بخصائص المؤسسة التي مارست فيها نشاطها؟

أما الفقه وأصوله، فباعتبارهما علمين إسلاميين في الأساس، كعلوم القرآن

---

(١) عولجَتْ هذه المسألة بالتفصيل في بحثين للمؤلف أولهما بعنوان: (ابن خلدون)، وثانيهما بعنوان: (حاجي خليفة)، وقد نشرا في المجلد الرابع من كتاب (من أعلام التربية العربية الإسلامية) الذي أصدره مكتب التربية العربي لدول الخليج عام (١٩٨٨ - ١٩٨٩م).

والحديث، فليس ثمة مبرر للتأشير على إسلاميتهما؛ لأن الأمر بديهي تمامًا. لكن المرء قد يتذكر هاهنا كيف وقف الفقهاء الرواد وقفتهم الصلبة تلك بمواجهة السلطات، وكيف أنهم طُوردوا واعتُقلوا وعُذّبوا وضُربوا بالسياط لرفضهم ما اعتبروه خروجًا عن مبادئ الإسلام الذي نذروا أنفسهم له، بمعنًى آخر أنهم عرفوا كيف يوحّدون بين الكلمة والسلوك، وكيف يصرّون على جعْل النشاط العلمي نشاطًا إسلاميًا، ليس بمفرداته فحسب، بل في مناخه وشروطه الأخلاقية.

والحديث عن الأدب يطول، وتأثُّر الحركة الشعرية بالمؤثرات الإسلامية تَشَكَّل منذ البدايات، وأخذ يتزايد مع الزمن بمقاييسِ الكم والنوع، جنبًا إلى جنب مع الأنشطة الأدبية واللغوية الأخرى التي انبثق بعضها أساسًا عبر التعامل مع كتاب اللّه.. ومضى بعضها الآخر يحمل مؤثراتٍ إسلامية بينة ليس إلى نكرانها من سبيل.

ولن يستطيع باحثٌ أن يجرّد نقادًا كالآمدي والقيرواني وعبد العزيز الجرجاني وابن سلام الجمحي وابن المعتز وقدامة بن جعفر وغيرهم عن التأثيرات الثقافية للبيئة، والتقاليد الأساسية للعقيدة التي شبّوا في ظلالها، رغم أن مساحاتٍ ضيّقة من معطياتهم وأحكامهم تبدو للوهلة الأولى بعيدةً أو منفصلةً عن هذه التأثيرات انسياقًا منهم وراء المطالب الجمالية الصرفة.

حتى إذا ما بلغْنا العلوم الصرفة (فلكًا وفيزياء وكيمياء ورياضيات وهندسة ونباتًا وحيوانًا وأدوية وطبًّا.. إلخ)، فإننا سنجد كيف أنها مارست نشاطها بحرية تامة منحها إياها هذا الدين الذي كان يمثل أقصى درجات التناغم والوفاق مع أية محاولة للكشف عن السنن الكونية، ولإزاحة الغطاء عن القوى والطاقات التي سخرها اللّه سبحانه ابتداءً لعباده القادرين على الكشف والتنقيب.

ولقد زادت هذه الحقيقة المؤكدة في كتاب اللّه وسنة نبيّه ﷺ وفي الممارسات التاريخية بين الحاكم والمحكوم، من تحفيز العلماء على المضي في أنشطتهم إلى المدى الذي بلغوه، فقدموا لحضارتهم، وللبشرية كلها - من وراء ذلك - تلك الكشوف الخصبة ذات القيمة العلمية الصرفة والتطبيقية، والتي أشار إليها واعترف

بريادتها وتفوّقها الغربيون أنفسهم.

سادسًا: سنجد أنفسنا عبر المحور الثالث المشار إليه قبل قليل (من الفقرة الخامسة) (وإلى حدٍّ ما المحور الثاني) قبالة ما يمكن أن يغذّي أنشطة إسلامية المعرفة والمشروع الحضاري الإسلامي ويمنحهما القدرة على الغناء والتأصيل، ويمنح الأمة قدرات أكبر في مجابهة تحديات المستقبل والمشاركة العالمية في المصير.

إن انعكاس المبادئ والقيم الإسلامية على مساحات واسعة من الموروث الثقافي منحه خصائصه النوعية المتميزة التي يمكن أن تمثل ليس مبرّر استمراره في العالم فحسب، بل قدرته على اقتحام وإغناء شبكة النشاط المعرفي للحضارة الراهنة، والقدرة الفعالة على الإسهام المستقبلي فيه.

إننا بوضع هذه الخصائص في حالة تقابل مع نظيراتها أو أضدادها في الثقافات الأخرى، والغربية الراهنة منها على وجه الخصوص، فإنها ستمنح الأخيرة فرصًا عديدة للتعديلات الملحة لهذه الثقافة باستدعاء البدائل الإسلامية ومنحها الفرصة المناسبة للمشاركة.

إن الخصيصة الإيمانية للثقافة الإسلامية - على سبيل المثال - تقف بمواجهة التوجّه المادي المتزايد للثقافات الأخرى، والتزامها يلجم تفلُّتها الآخذ بالاتساع من منظومة القيم الخلقية، وواقعيتها تحدّ من شطط تنظيراتها الفكرية باتجاه طوباويات الحلم والخيال، وأصالتها تمنح المسار البشري طعمًا جديدًا متميزًا، وشموليتها، وقدرتها على موازنة الثنائيات ولمّها، توقف اندفاع الثقافات الأخرى وميلها إلى هذا الجانب أو ذاك على حساب الجوانب الأخرى التي قد لا تقل أهمية وإلحاحًا، وإنسانيتها تتجاوز بها حواجز العرق واللون والجغرافيا والمذهب.. وميزتها التحريرية ستنقذ الإنسان في نهاية الأمر من سائر الضغوط والصنميات التي أذلّت عنقه وهبطت به درجات عن مستوى بشريته كمخلوق متفرّد في هذا العالم سيِّد عليه.

والباحثون الغربيون أنفسُهم انتبهوا إلى هذا، وقدّموا شهاداتهم بهذا الخصوص، والتي تجيء كاعتراف حرّ مدعم بالقناعات العقلية، وموثّق بالرؤية المقارنة لما تتضمنه ثقافة الإسلام من قيم وخصائص متميزة وفعالة، يمكن أن تمارس دورها في صياغة حاضر الإنسان ومستقبله[(١)].

سابعًا: في المحصلة النهائية، وكمؤشر عام، فإن علينا ألّا نقع في مظنة التسليم بأحد التعميمين التاليين:

أ - إن التراث الإسلامي يعبر بكليته عن التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان.

ب - إن التراث الإسلامي لا يمثل بالضرورة امتدادًا لهذا التصور.

فهذا التراث إنما هو نسيج متداخل الخيوط بين ما هو أصيل وما هو طارئ دخيل.. بين معطيات تشكلت من مقولات القرآن والسنة، وتخلقت في إطاراتهما، وبين أنشطة أُقحمت إقحامًا في مجرى الفعل الحضاري الإسلامي، بتأثير الدهشة والإعجاب بهذا الجانب أو ذاك من معطيات الغير.. أو عن قصدية مسبقة لعناصر غير إسلامية، بالمفهوم غير المحدد للكلمة، لزرع أجسام غريبة في نسيج هذه الحضارة ومحاولة غزوها والتلبيس عليها من الداخل.

وفي كل الأحوال، فإن الباحث يجد نفسه قبالة صعوبة بالغة وهو يتعامل مع

(١) يُنظر - على سبيل المثال -: مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام (ص٣٣٠ - ٣٣١، ٣٦٩، ٣٨٧ - ٣٨٨، ٣٨٩، ٤٣١، ٤٣٩)، ليوبولد فايس (محمد أسد): الطريق إلى مكة، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٥٦م)، (ص٣٢٣ - ٣٢٤، ٣٧٦)، عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا (٤/ ١٠٨ - ١٠٩)، إميل درمنغم: حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (١٩٤٩م)، (ص٣٧١ - ٣٧٢)، أتيين دينيه: محمد رسول اللّـه [ﷺ] بالاشتراك مع سليمان الجزائري، ترجمة د. عبد الحليم محمود محمد عبد الحليم، الشركة العربية، القاهرة (١٩٥٩م)، (ص٣٤٥ - ٣٤٦)، مونتمكري وات: محمد في المدينة، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بدون تاريخ (ص٥٠٩)، د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، سلسلة كتاب الأمة، الدوحة (١٤٠٤هـ)، (ص١٤٤ - ١٤٥)، روجيه جارودي: وعود الإسلام، ترجمة ذوقان قرقوط، الوطن العربي، القاهرة، بيروت (١٩٨٤م)، (ص٣٦، ٦٤، ٦٧، ١١١، ١٥٦، ١٨٧، ٢٠٨ - ٢٠٩).

التراث قبل أن يتبين بوضوح ما هو إسلامي أصيل منه وما هو يوناني أو فارسي أو هندي أو يهودي أو نصراني دخيل، بل إن المعطَى الواحد نفسه في هذا الحقل أو ذاك من حقول المعرفة قد يتضمن المادتين معًا، فهو في بعض جوانبه إسلامي المنطلق، وفي جانب آخر غير إسلامي، ليس بالضرورة في التفاصيل والجزئيات، ولكن في الخطوط العريضة ومنطلقات التصور الأساسية.

إن ثنائية كهذه تمضي إذًا لكي تعمل عملها باتجاهين، **أولهما**: تشكيل نمطين من المحصلات المعرفية متضادين في أسسهما التصورية. **وثانيهما**: جعل المعطَى المعرفي الواحد يتضمن إشكالية التداخل بين النمطين.

وإذا كان هذا يبدو واضحًا فيما اصطُلح عليه بالفلسفة الإسلامية بسبب من تأثُّرها الواضح بالفلسفة اليونانية، وتقبُّلها الكثير من مقولاتها على مستوى المنهج والموضوع، فإنه قد لا يبدو بهذا القدر من الوضوح في حقول علمية أو إنسانية أخرى.

وفي كل الأحوال، كذلك، فإن محاولات الدراسة والتمحيص ومتابعة طبيعة الارتباط أو الانفصال تقتضي قدرًا كبيرًا من الإلمام بأسس التصور الإسلامي ومقوماته من جهة، وبمطالب التخصص العلمي بهذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة. ومعنى ذلك أن المحاولة في مجملها تقتضي ملاكًا أو كادرًا أو فريقًا متكاملًا يضم جناحيه على المتخصصين (الإسلاميين) في كافة فروع المعرفة؛ إذ ليس بمقدور متخصص في الفلسفة مثلًا أن يمارس العمل في حقل التاريخ، وليس بمقدور هذا أن ينفِّذ المهمة في حقل الفقه والتشريع، كما أنه ليس بمستطاع الآخرين أن يأتيا بنتائج مقنعة وهما يُكلفان بالعمل في حقل اللغويات والآداب والفنون.. وهكذا.

قد يلتقي هؤلاء جميعًا في الخطوط العريضة لمنطلقات العمل، هذه الخطوط أو الضوابط (التصورية أو الشرعية) التي لا بد وأن يحيلوا عليها مفردات الحقول التي يجوسون فيها.. لكن، وبعد هذه البداية يمضي كل منهم في طريقة لكي يتعامل مع فرع يختلف في منهجه وتوجهاته ومعطياته ونتائجه وطبيعة اهتماماته، عن سائر

الفروع الأخرى.

ثمة ضرورة أخرى يتحتم أن نضعها في الحسبان، تلك هي وضع أو تصميم منظومة من المعايير التي يتم بموجبها التعامل مع حشود المعرفة التراثية.. ومنظومة كهذه بقدر ما ستمنح النشاط بعدًا منهجيًا مرسومًا، وليس ضربًا على غير هدًى، بقدر ما ستعين العاملين على اختزال الجهد والوقت، وصولًا إلى هدفهم المرتجَى.

ولا يخفى على أحد أن المعارف التراثية ليست سواء في قيمتها « العلمية » وفي قدرتها على التأثير في البنيان المعرفي للعصر الذي نعيشه ولمستقبل هذا العصر؛ أي في تواصلها مع العصر وديمومة فعاليتها في المكان والزمان.. كما لا يخفى على أحد أنه بالنسبة للمسلمين بالذات فإن هناك سلّمًا للأولويات يجعل هذا الجانب من المعطيات التراثية ضروريًا لا يمكن تجاوزه بحال من الأحوال.. ويتساهل مع جوانبَ أخرى أخْذًا ورفضًا.. وجوانب ثالثة يبدو أن رفضها أو إهمالها في الأقل يمكن أن يكون ضروريًا.

فإذا وضعنا هذا في الحسبان، فإنه سيوفر علينا الكثير من الطاقات؛ لأنه سيُسقط ابتداءً ما يمكن تسميته خطأ بحرمة التراث أو قدسيته، الأمر الذي يفرض تقبُّلَه في إطاره العام وبكافة مفرداته، ويفرض بالتالي تمحيصه وفرزه بالكلية وصولًا إلى فك الارتباط بين عناصره الأصيلة ذات الجذور الإسلامية، وتلك التي أُقحمت عليها من مصادر خارجية.

لكننا من خلال منظومة الأولويات سنوفر جهدًا كهذا إزاء كمّ كبير من المعطيات التراثية قد لا تكون لها - فيما عدا الأهمية التاريخية الساكنة - أيُّما تأثيرات على العصر الذي نعيشه، إنْ على مستوى البشرية، أو في دائرة الجماعات الإسلامية.

ولنضربْ على ذلك بعض الأمثلة من بين حشود منها لا تعد ولا تحصَى:

ففي علم الاجتماع أو العمران البشري في المصطلح القديم، يبدو عمل كـ « مقدمة ابن خلدون » وسائر الأعمال الأخرى التي حذت حذوه، ضرورية لمطالب البحث في هذا الفرع من فروع المعرفة، ليس على مستوى المسلمين وحدهم، بل في نطاق العالم الذي كانت « المقدمة » بالنسبة إليه كشفًا أساسيًا لهذا

الحقل المعرفي المهم، وضعت من خلاله الكثير من مفرداته التي لا تزال الأنشطة المنهجية لهذا العلم تأخذ بها، وتضيف عليها، بكل تأكيد.

وفي علم التاريخ فإن المعرفة البشرية عامة لن يكون بمقدورها أن تستكمل تغطيتها المعرفية للتاريخ البشري إن لم يول الاهتمام الكافي لمؤرخ كالطبري مثلًا ولمساحات واسعة من علم التاريخ الإسلامي حماية وكشفًا وتحليلًا وتركيبًا.. فكيف بالأمة الإسلامية نفسها؟

وما يقال عن الاجتماع والتاريخ يمكن أن يقال - مثلًا - عن التربية والجغرافيا والآداب والفنون.. إلخ. فإذا كانت فروع كهذه ضرورية على المستوى العام، فإن ثمة ما هو أشد ضرورة وإلحاحًا بالنسبة للمسلمين أنفسهم من مثل التراث القانوني، والفقهي والتشريعي، الذي يمكن بدراسته وتمحيصه وتبويبه، التمهيد لحركة الاجتهاد الإسلامية أن تُستأنف من جديد، غير منطلقة من الفراغ، أو قافزة عبر فجوة زمنية متطاولة، وإنما من خلال تواصل زمني مطرد لهذا الفرع الخطير من فروع المعرفة.

صحيح أن الباحثين في هذه العلوم سيجدون في نسيجها مساحاتٍ، وربما مساحاتٍ واسعة، لم تعد تحمل أية قيمة معرفية أو شرعية، ولنتذكر - على سبيل المثال - بعض استنتاجات ابن خلدون الناقصة أو الخاطئة، على مستوى علم الاجتماع، وحشود الأكاذيب والتحزبات والميول والأهواء على مستوى التاريخ، وسيول الإسرائيليات على مستوى علوم القرآن، والحلول الفقهية لمشاكل ومتغيرات عفا عليها الزمن على مستوى الفقه والتشريع، ومعطيات النقد الفجّ الذي لا يقوم على منهج وإنما يعتمد الذوق الخالص على مستوى الآداب .. إلخ.. ولكن هذا كله لن يسقط حسبان هذه المعارف على خط الضرورات البشرية والشرعية.. كل ما هنالك أنه سيتيح للباحث فرصةً لإسقاط المساحات غير المجدية في نسيج هذه المعطيات، الأمر الذي قد يخفف عن كاهله جانبًا ليس بهين من عبء التمحيص الذي أنيط به.

لكن في مقابل هذا كله، أنماط من المعارف قد لا تمثل التضحية بها أو تجاوز

فرزها وتمحيصها أو تعليقها زمنيًّا في الأقل خسارةً كبيرة على مستوى المعرفة البشرية أو الضرورات العقيدية والتشريعية، وأرجو ألَّا أكون مخطئًا أو مبالغًا إذا ضربت على ذلك مثلًا بالفلاسفة ابن سينا، الكندي، الفارابي.. وأضرابهم، والجدليات الفرقية، وأقسام واسعة من علم الكلام، والعديد من النظريات الفجة الناقصة في مجالات العلوم الصرفة والتطبيقية وبخاصة علوم الطبيعة والفلك والحياة والنفس.. إلخ.

والمهم أن وضع معارف كهذه في أسفل المنظومة سيخفف العبء عن عاتق العاملين في تمحيص التراث، ويمَكِّنهم من تقديم الأهم على المهم على الأقل أهمية، وبالتالي سيوفر عليهم الكثير من الجهد والوقت اللازمين لإنجاز مهمة ملحّة كهذه تعد واحدة من أكثر الضرورات أهمية في مشروع أسلمة المعرفة؛ لأنها بمثابة تجذير للعمل في الأصول التصوّرية والحضارية والتاريخية للأمة الإسلامية، وتجاوز لمجازفة الانطلاق من نقطة الصفر أو الحركة في الفراغ.

لقد أصبح التراث الإسلامي - في العقدين الأخيرين على وجه الخصوص - ساحةً مفتوحة يصول فيها ويجول مفكرون لا يملكون قدرًا كافيًا من فهم أسس التصوّر الإسلامي ومقوّماته، بل هم في كثير من الأحيان في خصام مع هذه الأسس والمقوّمات، الأمر الذي كان يقودهم إلى توظيف هذا التراث لتأكيد استنتاجاتهم باعتماد منهج منقوص لا يستقرئ هذا التراث لاستخلاص مؤشراته الأساسية في هذه الدائرة أو تلك من دوائر معطياته المعرفية الخصبة المتشابكة، ولكنه يمارس عملية انتقاء كيفي، تستبعد - بحكم التحزّب والهوى - الكثير من عناصره الأصيلة، ولا تستبقي سوى الشواهد التي تؤكد هذا الاستنتاج المحدود أو ذاك.

ولا ريب في أن الاهتمام الجاد الذي ستوليه أنشطة أسلمة المعرفة لدائرة التراث، والمنهج الدقيق الأصيل الذي ستعتمده، والتصوّر « العلمي » الذي ستنطلق منه في فهم مفردات هذا التراث وتحليلها وتمحيصها، فيما يجعلها أكثر قدرةً على استبطان جوهر معطياته وملامسة حقيقتها. إن هذا كلّه سيبرّر الجهود المضنية التي

ستأخذ المحاولة نفسها بها؛ لأنه سيقدم ثماره التي نضجت على مهل، وفي بيئتها الطبيعية، ليس لمشروع أسلمة المعرفة فقط، ولكن لكل المعنيين بالتراث أكاديميًّا وعقديًّا، وسيقطع الطريـق على سائر المحـاولات المبتسرة الناقصة، المرسومة سلفًا، تلك التي تسعى إلى توظيف المعطيات السخية لهذا التراث بالحق والباطل، لتأكيد قناعاتها المتقاطعة - أساسًا - مع بداهات التصوّر الإسلامي.

* * *
* *
*

ملاحظات في التراث

لنتذكر مرةً أخرى أن الأرض وهي تدور تنطوي في اللحظة الواحدة على الليل والنهار، وأن للحقيقة أكثر من وجه، وأن أحدنا إذا تكلم عن وجه من هذه الحقيقة فلا يعني هذا أنه ينكر الوجه الآخر، وأني إذا تكلمت عن جانب أو طرف آخر من المسألة التراثية، فإن كلامي لن يتناقض مع ما قال به الدكتور محسن عبد الحميد، فنحن متفقون جميعًا، ويجب أن نتفق على فك الارتباط بشكل لا يقبل رجعة بين الأصول الإسلامية وبين المعطيات التاريخية المسماة بالتراث، ذلك أن الإسلام بكتابه الكريم وبسنة نبيه ﷺ الصحيحة هما علم يقيني.

والخبرة التراثية تقبل الخطأ والصواب، هذه الخبرة التي تشكلت ونسجت في بيئة إسلامية لا بد أن تنعكس عليها التأثيرات الإسلامية، فنحن عندما نتحدث عن تراث إسلامي نتحدث عن تراثٍ وُلد في رحم الإسلام وتشكل فيه متضمنًا الخطأ والصواب، الأسود والرمادي، والأبيض، ولكنه على أية حال تراث إسلامي ليس بمعنى تراث عقائدي، وإنما بمعنى خبرة بشرية لأمم وشعوب شتى تعاملت مع هذا الدين، فلا يخطرن على بال أحدكم مرة أخرى أن حديثي عن إسلامية تراثنا هو تناقض مع ما قال به ويقول به كل مسلم يدرك حقيقة الموقف من التراث، من أن الإسلام بأصوله العقدية والمعرفية ينفصل بالكلية عن التراث الإسلامي الذي يتلقى إشاراته من هذه الأصول، ولكنه قد يمضي بها قدمًا في الزمن والمكان، وقد تتعثر به الخطى، وقد ينحرف بها ذات اليمين وذات الشمال، فهو إذن حديث متمم لما قال به الأخ الدكتور محسن عبد الحميد وليس حديثًا مناقضًا له.

إننا يجب أن نتفق في مواسم ثقافية كهذه على بعض المرتكزات المنهجية، ألَّا نبحث عن نقاط الجدل في أمور إذا أمعنا النظر فيها يتبين لنا أنها متكاملة متوازية، وأنها تصب في هدف واحد وتنطلق من معين واحد، وأن نعرف دائمًا أن للحقيقة أكثر من وجه، وأن التراث الذي تضمن الكثير من المثالب والأخطاء في تاريخنا ينطوي في الوقت نفسه على مساحات واسعة بيضاء، مشرقةٍ كنور الشمس يقول

بها الغربيون قبل الشرقيين، ما انطوى عليها تاريخ أمة من الأمم ولا عرفته ولا ذاقته تجربة أخرى حتى في القرن العشرين، وبخاصةٍ بصدد التعامل وفق منظومة من القيم الخلقية بين الإنسان والإنسان، بين المسلم والآخر الذي ينتمي لغير العقيدة التي آمن بها أبناء هذا الدين. ولن تكون رومانسية هذه الكلمات ولا تحليقًا في الأحلام، وإنما هو واقع تاريخي متحقق في الزمان والمكان هو تراث هذه الأمة الذي تشكل عبر صيرورتها وتمخضها الدائمين.

التراث لغةً كما تعلمون هو ما يخلفه الآباء للأبناء، هذا ما اصطلحت عليه القواميس والتفاسير، وقد تحولت هذه المفردة اللغوية بمرور الوقت إلى دلالة اصطلاحية بتحركها من الخاص إلى العام فأصبحت تعني تركة الأجيال للأجيال، أصبح التراث اصطلاحًا، لم يقتصر على ما يتركه الآباء للذراري والأبناء، أصبح يعني منقولًا تراثيًّا، منقولًا ثقافيًّا من جيل إلى جيل آخر يتسلمه ثم يمضي به إلى الأمام مضيفًا إليه.

(هولتكرانس) الباحث السويدي الخبير في شؤون الفولكلور يحدذ بعد دراسة طويلة مفهومًا عالميًّا للتراث وهو أنه المنقول الثقافي للأمم والشعوب، هذا المنقول أو الموروث الثقافي ينطوي على كل الخبرة التراثية بما أنه الوجه الحقيقي للأمة عبر التاريخ، فيجب أن نكون على بينة إذًا من أن كلمة التراث أصبحت مصطلحًا عالميًّا يمضي لكي يغطي كل المفردات الثقافية في حضارةٍ ما من الحضارات، تشكّل هذا التراث - أيها الإخوة - بمرور الوقت، وتلقّى دمه، نسيجه ونبضه من مؤثرات هذا الدين، وبالتالي فإنه يصعب على المرء بشكل أو بآخر وهو يدرس التراث الإسلامي أن يفصله عن التأثيرات الإسلامية، كما يصعب على المرء وهو يدرس تراث الحضارة النصرانية، أو اليونانية أو الرومانية إلى آخره من الحضارات الصينية، الهندية، الفارسية أن يفصل هذا التراث عن البيئة والمناخ الذي تشكّل فيه، معنى هذا أن معطياتنا التراثية عبر الزمن بكل أوجهها، بما انطوت عليه من خطأ، وما تضمنته من صواب، إنما هي وليدة تأثيرات، نوع من التعامل في الأعم الأغلب بين الأمم الإسلامية، شعوبها المختلفة وبين تأثيرات هذا الدين

القدير على وضع بصماته على الحياة، إن الذي يقول بهذا في الحقيقة عدد كبير من الباحثين، ولا يتسع المجال لاستعراض ما قالوه، وإنما هي مجرد تأشيرات على بعض هذه الطروحات: برنشفيك، بوازار، توينبي، سورديل، فايس، كب، لوبون، هونكه، واط، روم لاندو.. وغيرهم، لنقرأ بعض التأشيرات قراءة سريعة، وحسب ما يسمح لنا به الوقت لكي يتأكد لكم أن المحاولات التي تتم في القرن العشرين من قبل فئات تريد أن تقف ليس بموازاة مع الإسلام وإنما في ضدية معه، تريد أن تجعل من التراث فرصة للانتقاء وإعادة التشكيل بعيدًا عن البيئة التي تشكل فيها تمثل خطأً منهجيًا، خطأً علميًا يُرتكب باسم التعامل مع التراث، ومرةً أخرى فإن الذي يقول بهذا الارتباط بين التأثيرات الإسلامية وبين التشكل التراثي مجموعة كبيرة من المستشرقين والعلماء الأوربيين الذين أكدوا الواحد تلو الآخر، هذه الوشائج بين الابن وبين الرحم الذي تخلق فيه.

(برنشفيك) أستاذ اللغة والحضارة العربيتين في جامعتي بوردو وباريس يقول: « إن تأثير الدين الإسلامي تتجلى قوته في عدد كبير من عناصر الثقافة الإنسانية: في اللغة والفنون والآداب والأخلاق والسياسة والتركيب الاجتماعي ونشاطه والقانون، بحيث لا نستطيع إذا أخذنا الوضعية كلًّا أن نلاحظ مدنية مستقلة فيها لا تتميز بالعنصر الإسلامي فحسب، بل بالعامل الإسلامي أيضًا ».

يقول في نص آخر: « لقد أصبحت العقيدة الإسلامية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين نظامًا نما بصورة واسعة في نواحٍ مختلفة، وكان شديد الرغبة في إظهار تماسكه في كل مدرسة أو نزعة تتضح في نطاقه، وهكذا - يقول الرجل - أخذ الإسلام مكانة عملية قُدّرت له في عدة ميادين ثقافية، وهو دور المؤثر والمتأثر، وهو مظهر مزدوج لا يصح الفصل بين جزئيه غالبًا إلَّا بطريقة مصطنعة ».

المفكر الفرنسي المعروف (موريس بوكاي) صاحب الدراسة المشهورة في نصوص الأديان الثلاثة (التوراة، والإنجيل، والقرآن الكريم) وإحالتها على المعرفة البشرية الراهنة، يقول معلقًا على المسألة: « الإسلام قد اعتبر دائمًا أن الدين والعلم توأمان متلازمان: فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءًا لا يتجزأ

من الواجبات التي أمر بها الإسلام، وأن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الإسلامية، تلك التي اقتات منها الغرب قبل عصر النهضة في أوربا ».

المؤرخ المعاصر (أرنولد توينبي) يقول: « إن الإسلام وُفّق فيما فشل فيه سابقوه؛ لأنه استكمل عملية طرد الهيلينية من العالم السوري، كما عاد فأدمج في الخلافة العربية الدولة العالمية السورية التي اختزل الإسكندر الأكبر حياتها بقسوة قبـل أن تستكمل رسالتها، وأخيرًا: منح الإسلام المجتمع السوري بعد قرون من توقُّف حيويته على أن يسلم الروح وهو متأكد أنه لن يزول دون أن يخلف عقبًا؛ إذ غدت العقيدة الإسلامية اليرقة التي بزغت عنها في حينها الحضارتان العربية والإيرانية ».

وثمة شهادات أخرى لا يتيح الوقت الحديث عنها أو حتى قراءتها، يجب أن نكون إذًا حذرين إزاء التعامل مع معطياتنا التراثية، وألّا ندخل ساحة التعامل التراثي - كما يفعل الكثيرون من المفكرين المعاصرين - بعقلية انتقائية تسبقها خطيئة منهجية وهي محاولة فصل نهائي للتأثيرات الإسلامية على معطياتنا التراثية.

لننظر إلى مسألة أخرى من أجل متابعة تأكيد هذا الارتباط بين الإسلام وبين المعرفة التراثية التي تشكلت عبر التاريخ.

فنسيج معطياتنا المعرفية عبر التاريخ ينبض بالتأثيرات الإسلامية، ومرةً أخرى فإنها تتضمن الخطأ والصواب، ولكن الدافع الذي حفزها على الفاعلية، والذي أتاح لها أن تتشكل وأن تنمو وتصير وتحقق حضورًا في ساحات التاريخ الثقافي للأمم والشعوب، يبقى هو الإسلام الذي لولاه لما قدر العرب، ولا غير العرب ممن انضووا فيما بعد تحت لوائه، أن يحققوا هذا الذي تحقق تحت مظلة أو بتأثير الإسلام.

لو تذكرنا أيها الإخوة، مفردات بعض الأنماط المعرفية التي تتبين فيها التأثيرات الإسلامية، فإن الحديث يطول، ولكنها مجرد إشارات قد تغني عن الكثير الذي يمكن أن يقال في غير هذا الموقع، فالتاريخ مثلًا، نشأ في بداياته الأولى من علوم الحديث واهتمامات رجال الحديث، فهو ابن علم إسلامي باتفاق جميع علماء

التاريخ والباحثين عن نشأته، نما وتطور من رحم علم الحديث وتقنياته، ثم فيما بعد أخذ ينمو ويتطور، ويسلم جيل من الرواد الشفويين لجيل من الرواد الإخباريين أصحاب التصانيف الموجزة التي هي أشبه بتصانيف صحفية سريعة للحدث، وهو يتشكل أمام أعينهم، ثم تجيء طبقة المؤرخين الكبار فيدونوا المدونات الكبيرة: كالطبري، والمسعودي، واليعقوبي، والدينوري، وغيرهم.. والتراجم - أيها الإخوة الكرام - واحدة من ميزات حضارتنا الإسلامية وتراثنا الإسلامي، ما من أمة في تاريخ البشرية قدرت على أن تدون هذا العدد الهائل الذي يتجاوز في إحدى الإحصائيات نصف مليون رجل، توثق حياتهم وتؤشر على أخلاقياتهم، وتحكي عن الذي قالوه وفعلوه ودونوه.

وكما يقول محب الدين الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحدى مقالاته: إن الغربيين يحسدوننا على هذا الكم الضخم من علم الرجال الذي يكاد يغطي سبعين بالمائة من مكتبتنا التاريخية. كتب التراجم والطبقات هذه لم تتعلق في سقوف السلطات العليا ولم تدرِ كما استنتج الماركسيون يومًا في أروقة الأرستقراطية. لو قمتم بعمل إحصاء للكشف عن انتماءات هؤلاء العشرات من الآلاف من الذين تحدثت عنهم مصادرنا التاريخية لوجدتموهم من الحفاة العراة الذين تقطعت نعالهم وهم يرحلون في الأرض طلبًا للمعرفة أو بحثًا عن حديث ضائع، ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة، ولا يعبرون بالضرورة، كما يدعي مفسرو التاريخ الماديون عن حالة أرستقراطية أو انعكاس برجوازي. هذه مسألة تسقط بالإحصاء العلمي المتأني الدقيق وبتفحص هذا العلم، علم التاريخ الذي نشأ في بيئة إسلامية، ووُلد في رحم إسلامي ثم نما وتطور بحكم تراكم الخبرة إلى أن صار إلى ما صار إليه.

هنالك الجغرافيا التي بدأت بإغراءات الرحلة في طلب العلم التي أكد عليها الرسول - عليه الصلاة والسلام - أو بالذهاب إلى الحج الذي هو فرض على كل مسلم قادر مستطيع، ثم نمت وتطورت حتى أصبحت كما يقول الباحثون المعاصرون: علمًا له تقنياته وقدراته الاختبارية الميدانية، وظهرت عندنا مؤلفات للمقدسي، والمسعودي، ولابن حوقل، تحكي عن الزراعة والصناعة والتجارة

والأعراق والأجناس والأمم والشعوب والجبال وتقسيمات العالم، وعن السماوات والأرض، في مؤلفات قَدمت للبشرية خبراتٍ خصبة، هذا العلم وُلد في بيئة إسلامية وبدافع إسلامي.

هنالك الاجتماع وكلكم تعرفون ابن خلدون في مقدمته المعروفة، لقد كان ابنَ هذه البيئة، وكتب مقدمته بتأثيرات إسلامية واضحة، وقد حاول بعض الباحثين الغربيين وعدد من المستشرقين أن يفصلوا بينه وبين المناخ الإسلامي الذي وُلد فيه وقدم إبداعه في إطاره.

(ناتانيل شمت) الأستاذ بجامعة كورنل بأمريكا يقول على سبيل المثال: « إذا كان ابن خلدون يذكر خلال بحثه كثيرًا من آيات القرآن، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئَها على الاعتقاد بأنه في بحثه متفِق مع نصوص القرآن ».

أما (دي بوير) الهولندي فيذكر « أن الدين لم يؤثر في آراء ابن خلدون العلمية بقدر ما أثرت الأرسطوطاليسية الأفلاطونية ».

وثمة مستشرق ألماني هو (فون فسندنك) يقول: « إن ابن خلدون تحرر من أصفاد التقاليد الإسلامية في درس شؤون الدولة والإدارة وغيرهما.. ». بعض الأبحاث في أقصى حدتها جعلته مفسرًا ماديًّا للتاريخ لا يحسب للمؤثرات الروحية والغيبية أيما حساب.

إنه انفصام غريب بين الرجل وبيئته ذلك الذي سعت بعض تلك المقولات إلى تأكيده بالأدلة الناقصة المبتسرة، وهذه الحالة - أيها الإخوة - هي ضد العلم وليست مع العلم، ضد المنهجية وليست مع المنهجية؛ لأننا ونحن ندرس تراثنا الاجتماعي والمعرفي عمومًا يجب أن نتبين حقيقة واضحة لا تقبل نقدًا ولا جدلًا، وهي أن النشاط المعرفي لأية أمة إنما هو وليد شبكة من المؤثرات والشروط الحضارية ذات المواصفات الخاصة والتي تقود إلى إنجاز ما، فابن خلدون لدى قراءته بإخلاص للحقيقة يتبين أنه كان إسلاميًّا في نبض نظرياته وصميم معطياته التي تحدث فيها عن التاريخ البشري في محاولة لاكتشاف قوانين الحركة التاريخية..

إسلاميًا، ليس على طريقة ناتانيل شمت في أنه كان يسعى لمجاملة القراء، وإنما لأنه كان يؤمن أشد الإيمان بالارتباط الوثيق بين عقيدته ورؤيته الإسلاميتين وبين معطياته في المقدمة.

هناك - أيضًا - السياسة، الاقتصاد والتربية، ولنقف قليلًا عند هذه كنموذج لسياق معرفي آخر وهو النشاط التربوي الذي وُلد في رحم المسجد والجامع ومضى لكي يتلقى قدرته على النمو والاندفاع من الشيوخ الكبار ويستمد نسقه باستمرار من تأثيرات هذا الدين في أصوله القرآنية والنبوية. لقد كانت التربية كنشاط معرفي تربية إسلامية وليس أية تربية أخرى، وتراثنا التربوي بما فيه من علماء وطلبة وتقاليد مدرسية ومدارس وجامعات ومؤلفات تنبض جميعًا بتأثيرات واضحة لهذا الدين، وبقدراته على دفع الحركة التربوية إلى الأمام وإنضاجها باستمرار.

حتى الفلسفة التي استعيرت من اليونان، أُريد لها أن تكون أداة في خدمة الجدل الإسلامي قبالة الخصوم، قبالة الأطراف الأخرى، صحيح أن الفلاسفة شط بهم النوى، وبعد بعضهم كثيرًا عن المطلوب، واستعبد في نهاية الأمر للعقل اليوناني، إذا صح التعبير، فأصبح ناقلًا أكثر منه مبدعًا أو مبتكرًا، ولكن الدافع لاعتماد الفلسفة اليونانية كان محاولة لاستخدامها أداة للجدل، كما صار علم الكلام فيما بعد في مواجهة الخصم الذي يريد أن يجد ثغرة ما في نسيج هذا الدين فيطعن فيها، كثيرة هي المعارف في سياق العلوم المختلفة، والمهم - فيما يتفق عليه معظم الباحثين الغربيين - هو قدرة هذا التراث على أن يشكِّل تقاليد المختبر، وهي مسألة يجب أن نضعها قبالتنا دائمًا، إن التقاليد الحقيقية للمختبر للتعامل الحسي مع العالم، لاستخدام الحواس كواسطة بين العقل والعالم، بين الذات والموضوع، رسخت وأصبحت بمثابة حجر الزاوية للحضارات التالية، ونتساءل: أين تشكلت هذه التقاليد المختبرية؟ إنه الهدير الذي ينبض به كتاب اللّـه - صباح مساء - في كل مَنْ يحاول أن يتعامل معه، انظروا، تفكروا، تفقهوا، سيروا، من أجل تحفيز العقل المسلم على الفاعلية، هذا التحفيز العقلاني الحسّي الواضح في كتاب اللّـه هو الذي مكّن أمة كهذه من أن ترسخ تقاليد النشاط المختبري الذي يعد في الحقيقة

أساس المعرفة التقنية الراهنة.

كثيرة هي النماذج والشواهد التي بين يدي، لكن الوقت في الحقيقة لا يتسع بالتأكيد لاستعراض شهادات رجال أفنوا أعمارهم في دراسة تاريخ العلوم، وبخاصة (الدومييلي) و (جورج سارتن)، كتبوا المجلدات ونشروا في مئات الصحف والدوريات والمجلات العلمية عن التراث المعرفي البشري، مغطين مساحةً واسعة خصبة لما قدّمه تراثنا من خبرات في ميدان العلوم الصرفة والعلوم التجريبية، وهذه شهادة لاثنين من كبار العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، بالإضافة إلى غيرهم من المستشرقين يجمعون على هذا الذي وصلت إليه الأنشطة المعرفية الإسلامية في نطاق التراث الإسلامي.

مهما يكن من أمر فإن إسرائيل المزروعة في أرضنا منذ ما يقرب من أربعين سنة، تحاول أن تعيد بناء نفسها وأن تتجذر في تاريخها عن طريق إعادة ترميم تراثها المهشم، ولغتها المتكسرة، وأن تحييها مرة أخرى، وأن تتعامل معها بالجدية المطلوبة؛ من أجل أن يقال بأن العبرانيين أو اليهود ذوو تاريخ وتراث معرفي، وهم الآن يفعلون الأفاعيل في جامعاتهم من أجل إحياء هذا التراث كما لو أنهم يتعاملون مع قبر مهدم يريدون إعادة بنائه من جديد مع هشيم من الأشياء والخبرات التي طاح بها الزمن ولكنهم يعضون عليها بالنواجذ. فنحن أيها الإخوة الأحبة عندما نتعامل مع التراث، يجب أن نتعامل معه بعقلية منهجية علمية تحاول أن تؤشر على جوانب الإبداع فيه وأن ترفض أيَّ جدار يفصل بين حريتنا وبين معطيات هذا التراث، لكي نقول لمساحات كبيرة من هذا التراث: كلَّا، وأنه يجب ألَّا تمرر على العقل المسلم، وألَّا تشدنا إلى الوراء وتلوي أعناقنا إلى خلف، في رومانسية تترنم بالأمجاد. نحن مطلوب منَّا أن نمضي إلى الأمام، والقرآن الكريم يحذرنا من الالتفات إلى الوراء لمجرد أن نلتفت إلى الوراء لاستعباد زمني بصيغة أو أخرى:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١)،

﴿ .. إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٣٤، ١٤١.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

والقرآن الكريم في مواضع شتى يدين هذا النزوع الرجعي إلى الوراء، يستبدله بدعوة تقدمية - إن صح التعبير - إلى الأمام، يقول رسول اللّـه ﷺ: « **إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألَّا تقوم حتى يغرسها فليغرسها، فله بذلك أجر** »[1]، واليوم تتشكل في جامعات العالم - أيها الإخوة - فروعٌ وأقسام لما يُسمَّى بعلم المستقبليات. هم ينظرون إلى الأمام، يتجاوزون الزمن بدراسات تخمينية، وبعضها يقوم على مرتكَزات وثوابتَ من أجل معرفة ما سيكون في نهاية هذا القرن، وفي العقد الأول منه وربما في العقدين القادمين، ونحن لا زلنا نتشبث بطريقة خاطئة بنوع من الاستعبادية أو العبودية للتراث، هذا هو الوجه المرفوض الذي وقف عنده الدكتور محسن عبد الحميد في الجانب التراثي، أنه ليس منزهًا على الإطلاق، وأنه قابل للفحص والاختبار وإعادة القراءة مرة ومرتين وعشرين مرة، لكن غير المقبول أن ننتزع هذا التراث من رحم أمه التي ولدته، من هذه العقيدة التي أثّرت فيه بالتأكيد، فسار ينمو بطيئًا يتعثر، يقع، يقوم، يأخذ الخطأ والصواب، ولكنه يبقى في نهاية الأمر تراثًا إسلاميًا يمكن أن نتعلم منه، أن نأخذ منه الخبرة، أن يمنحنا القدرة على التجذُّر في هذا العالم، فإن أمةً بلا جذور أمةٌ تطفو، وتكون في نهاية الأمر على استعداد لأن تكنس تحت ضربات الآخرين أو ضغوطهم.

الأمة المتجذرة في الأرض هي الأمة المتجذرة في عقيدتها أولًا وفي تراثها المنتقى بعناية، والذي يمكن أن يقدم رصيدًا من الخبرة الإضافية لمسيرة تريد أن تنظر إلى الأمام، ولا تلتفت إلى الوراء إلّا ريثما تحاول أن تكسب خبرة ذات بعد إيجابي.

إننا نتذكر هنا التقييم الذي قدمه (توينبي) عن ابن خلدون باعتبار أن المقدمة واحدة، ربما من أعظم عشر مؤلفات في تاريخ البشرية، بحيث لا نستطيع أن نتنازل بسهولة عن المقدمة، لا نستطيع أن نفصلها بسهولة كما يريد (شمت) و (بوير) و(فسندنك) عن رحمها الإسلامي، ولا نستطيع أيضًا أن نقول بأن صاحبها رجل قد مضى، وأن علينا ألَّا نلتفت إلى الوراء أبدًا، فإنها مرة أخرى، كرة تدور وهي

---

(١) البزار، البحر الزخار (مسند البزار)، تحقيق عادل بن سعد، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى (٧٤٠٨).

تنطوي في اللحظة الواحدة على النور والظلام معًا، على الليل والنهار، إن للحقيقة الواحدة أوجهًا عديدة، وعلينا دائمًا أن ننظر إلى الأوجه العديدة، وما صيغة الندوات في الواقع إلَّا فرصة منهجية ملائمة تمامًا لمعالجة مسألة ما من أكثر من زاوية، فلا يظن أحدٌ أن في هذه الطروح المقدَّمة على المنصات والندوات ارتطامًا أو تناقضًا، إنما هو المنظور الذي يدور لتلمُّس ما يحيط هذا العالم من ضوء ومن ظلام.

ردود على الملاحظات:

لا يتسع الوقت لملاحقة الملاحظات الخصبة التي قُدمت من قبل الإخوة والأخوات الكريمات والتي هي بالتأكيد إغناء للكلمتين التي قيلتا في هذا اللقاء؛ حيث لم يكن الوقت يسمح بطرح مشاريع عمل بصدد التراث، ولا حتى بتقديم ملاحظات أولية، إنما هي مجرد إشارات أو مفاتيح تسمح بها نصف ساعة فقط، وبالتالي فإن ما قيل قد يفتح الباب لجدل أو حوار آخر حول الموضوع.

إن تحديد معنى التراث تبعًا لأصوله العقيدية، كما طالب الأخ الدكتور غازي عناية، كان منطلق الحديث، فلو أننا استعدنا ما قيل كرةً أخرى لرأينا أن كلمة الأخ الدكتور محسن وكلمتي حاولتا التركيز على هذه النقطة؛ أي البحث في عوامل أو نقاط الاتصال والانفصال بين التراث والعقيدة.

حضاريًّا وبعيدًا عن التعلق بالأحلام نحن مهزومون، بخلاف ما ألمح عليه الدكتور غازي، والقرآن الكريم يقولها بصراحة: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[1]، ولقد فعلنا سوءًا كبيرًا عبر تاريخنا الطويل، عبر كل استبداداتنا، عبر كل مظالمنا الاجتماعية، عبر كل شقاقاتنا مع المطالب الإسلامية، بدءًا من دعوة القرآن الكريم والسنة النبوية لإعمال العقل من أجل كسر قشرة العالم والإيغال للكشف عن السنن والنواميس.. للبحث عن الخامات المسخرة للإنسان.. عن الحديد الذي نادت به سورة كاملة سُميت باسمه، من أجل أن نمسك بتلابيب القوة والتصنيع في هذا العالم.. وحتى لحظاتنا الراهنة التي نمارس فيها استجداء للأفكار والأشياء من

---

(١) سورة النساء: الآية ١٢٣.

الغرب المتفوق، نحن سبب هزيمتنا، ونحن الذين يتحتم أن نتحمل مسؤولية هذه الهزيمة في أبعادها الحضارية كافة.

قال أحد الإخوة: إننا مهزومون عقيديًّا.. أبدًا.. فثمة فارق ملحوظ بين العقدي والحضاري.. إن العقيدة الإسلامية تبقى هي العليا.. السقف العالي الذي نطمح للصعود إليه أو مقاربته: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].. إن الشرطية هذه هي التي تمنحنا المفتاح!

أيها الإخوة.. أجدني مضطرًّا بسبب من ضيق الوقت إلى تجاوز أسئلة وتعقيبات عديدة وصولًا إلى الأخ أيمن حمودة الذي تحدث عن « إسلامات »!! يطرحها المفكر المعروف (محمد أركون) ذو الأصل الجزائري والمتأثر بالعلمانيات الفرنسية التي ينشق عليها أصحابها اليوم. وقد تحدثنا قبل يومين عن (ليجيه) و (سيشير) وآخرين ممَّنْ يعودون اليوم إلى حظيرة الدين وينادون بتجاوز أحادية المنظور المادي للحياة، الذي وصل بالحضارة الغربية إلى الطرق المسدودة.. (أركون) المتأثر بثنائيته الجزائرية - الفرنسية، وغيره من مفكري المغرب الذين قد نقف عندهم - إن شاء اللّـه - في لقاءات أخرى.

(كرونباوم) المستشرق المعروف كان أكثر إخلاصًا للحقيقة التاريخية والعقيدية من (أركون) المحسوب على الجغرافيا الإسلامية، فهو قد حرَّر كتابًا لعدد من المستشرقين سماه (الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية).. هذه الحضارة انطوت على بيئات جغرافية أو أقاليم، فنسج كل واحد منها ثقافته ذات الخصوصية المستمدة من الجماعة البشرية المتواجدة في ذلك الإقليم ومن معطياتها التراثية.. فهناك العربي والتركي والفارسي والكردي والبربري والمغولي والأندلسي والهندي والإفريقي.. وغيرهم ممَّنْ انتموا إلى هذه العقيدة.. كلٌّ عبّر عن نفسه وثقافته الخاصة في نطاق الإسلام وليس ضده أو على النقيض منه.

لقد شهدت تجربتنا التاريخية أممية ذات مفاصل متحركة.. أممية مرنة ليست كالأممية الماركسية القسرية التي حاولت أن توحد أو تصهر كل النماذج والبيئات،

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٩.

ولذلك خسرت المعركة.. صار هناك ماركسيات عديدة انتهت إلى السقوط واحدة بعد الأخرى.. أما في تاريخنا فهناك تنوع معترف به في بيئاتنا الثقافية.. في المعطيات التراثية للشعوب والجماعات التي انتمت إلى هذا الدين وتوحدت معه في الثوابت الأساسية والأهداف، ولكنها اختلفت في المذاقات وطعوم الحياة الخاصة وصيغ التعبير عن الذات.. فكان هناك بيئة إسلامية أندلسية وأخرى مصرية وثالثة شامية ورابعة عراقية.. وهكذا.. بل إننا نجد تنوعًا داخل الإقليم الواحد أحيانًا كالذي حدث في البيئتين البصرية والكوفية داخل الدائرة العراقية.. هذا كله يدل على الخصب.. على التنوع المبدع تحت المظلة الواحدة.. إن عبارة (الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية) قد تنسحب حتى على لحظاتنا الراهنة بعيدًا عن كل ردود الأفعال التي يعبر عنها كتّاب لا يعرفون خرائط انتمائهم جيدًا.. ومن يدري، فلعل بعضَهم يثوب في نهاية الأمر إلى ذاته.. وحينذاك سيعرف أنه ليس ثمة غير إسلام واحد، وليس (إسلامات) شتى!

* * *
* *
*

في فكر ابن خلدون

- في الفكر الخلدوني والتصوّر الإسلامي.
- ابن خلدون وإشكالية الفلسفة.

في الفكر الخلدوني والتصوّر الإسلامي

تمهيد:

يتابع البحث - بالإيجاز المطلوب - عمق الارتباط بين التصوّر الإسلامي عبر خصائصه وثوابته الأساسية في كتاب اللّـه وسنة رسوله ﷺ والتفسيرات الفقهية والكلامية المستمدة منهما، وبين معطيات مقدمة ابن خلدون في ثلاثة من سياقاتها الأساسية: **المعرفة، والتربية، والتاريخ**. وكيف أنه في هذه السياقات عكس تصورًا ينطوي على عمقه الإسلامـي وهو يتحدث ويـحلل قوانين الحركة التاريخية وسننها، والمكونات الأساسية للمعرفة الإنسانية، وطبيعة وأبعاد العملية التربوية في مفرداتها العديدة.

إنه في الحقول الثلاثة ينطلق من زاوية تصوّر إسلامي، ويؤكد وعيه بدور الدين في قيام الدول وسقوطها، وفي تشكل المعرفة الإنسانية، وفي إرفاد النشاط التربوي بما يمكنه من الأداء في مستوياته المتقدمة.

بما أن منهج ابن خلدون في المقدمة، ومعطياته في حقول المعرفة عامة، والتاريخ على وجه الخصوص، قد قيل فيها وكُتب الكثير، فإن البحث سيتجاوز هاتين المسألتين قدر الإمكان، صوب محاولة للكشف، أو التأكيد بعبارة أدقّ، على طبيعة الارتباط بين الفكر الخلدوني والتصور الإسلامي في خصائصه ومقوماته، وصولًا إلى أن هذا النتاج لم يكن هبة قادمة من الفراغ، وأنه لم يتشكل في عقل ابن خلدون ابتداءً، ولكنـه وليد البيئـة الحضارية الإسلامية التي قُدّر له أن يكون ابنها البار.

قد يكون غريبًا التأكيد على هذه المسألة التي قد تبدو للبعض أمرًا بديهيًا، ولكننا إذا تذكرنا عددًا من استنتاجات الباحثين والمفكرين المحدثين والمعاصرين بصدد المقدمة، عرفنا أن تأكيدًا كهذا ضروري كنوع من إعادة الأمر إلى نصابه بعد أن جنحت به التحليلات الخاطئة، التي لم تقف عند حد إقامة جدار عازل، أو حفر خندق عميق بين الإسلامية و (المقدمة) في المنهج والمعطيات، وإنما مضت

خطوات أكثر تطرفًا بجعلها (المقدمة) بشكل من الأشكال، نقيضة للإسلامية.

إننا نجد - مثلًا - أن أحد الباحثين الغربيين وهو دي بوير T. J. de Boer (الهولندي) يذكر أن: « الدين لم يؤثر في آراء ابن خلدون العلمية بقدر ما أثرت الأرسطوطاليسية الأفلاطونية »[١]، ويشير باحث آخر هو ناثانيل شميت N. Schmidt الأستاذ بجامعة كورنل بأمريكا إلى أن ابن خلدون « إذا كان يذكر خلال بحثه كثيرًا من آيات القرآن، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن »[٢]. وثمة مستشرق ألماني هو فون فيسندُنك Von Wesendonk يقول: إن ابن خلدون « تحرر من أصفاد التقاليد الإسلامية في درس شؤون الدولة والإدارة وغيرهما، وأنه حرر ذهنه - كذلك - من القيود الفكرية التي ارتبطت في عصره بالعقائد العربية الصحيحة »[٣].

وبهذا سيكون نتاج ابن خلدون متشكلًا في الفراغ، وستكون معطياته في حالة انشقاق عن مطالب الرؤية العقيدية للإسلام الذي ينتمي إليه، وستكون النتيجة النهائية أن استنتاجاته لا صلة لها (بالإسلامية)، بل قد تكون في حالة اصطراع معها، وقد يقود هذا إلى تكرار الصورة المحزنة للصراع بين العلم والدين، وإلى أن يوضع ابن خلدون في قائمة واحدة مع برونو ونيكوس وغاليليه، وإلى جعل الحضارة الإسلامية وجهًا آخر للحضارة النصرانية بقدر ما يتعلق الأمر بطبيعة الارتباط بين العلم والإيمان.

بل إن التحليل المادي للتاريخ يمضي خطوة أبعد، فيحاول أن يصور منهج ابن خلدون كما لو كان منهجًا جدليًّا، ومعطياته كما لو أنها وليدة رؤية للعالم

---

(١) محمد عبد اللّـه عنان: ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري (ص١٧٧ - ١٧٨)، الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (١٩٩٥ م) عن كتاب Geschichte der philosophic in Islam للباحث المذكور.

(٢) عنان: المرجع السابق (ص١٩٠) عن:

Ibn Khaldun historian, Sociologist and philosopher.

(٣) عنان: المرجع السابق (ص٢٨١) عن:

Ibn Khaldon: Ein arabischer Kulturhistor ker des 14 jahrhunderts.

(ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربية في القرن الرابع عشر) للمستشرق المذكور.

والظواهر والأشياء لا علاقة لها بالإسلامية من قريب أو بعيد، بل هي نقيضة لها من أول الرحلة حتى منتهاها.

إننا نقرأ - على سبيل المثال - واحدة من المحاولات الأكثر حداثة في هذا السياق (في علمية الفكر الخلدوني)[١]، ونجد الناشر يلخص المحاولة بالاستنتاج التالي: إن « ثورة ابن خلدون الفكرية تكمن في أنه حرر الفكر التاريخي من هيمنة الفكر الديني، بأن اكتشف في واقعات التاريخ عقلها المادي فأحل ضرورة العمران محل اللّـه - أو ما يشبهه - في تفسير الظاهرات جميعًا، فاستبدل التأويل بالتفسير، فكان التفسير بالضرورة ماديًّا، وكان علميًّا من حيث هو مادي، دون أن يعني هذا رفضًا للدين أو الشرع ومبادئه، فالشرع شيء والتاريخ أو العمران شيء آخر، وليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، ولئن دخل الشرع أو الدين في حقل العمران أو التاريخ كما هو واقع الأمر في المقدمة، فكأمر عمراني أو تاريخي مادي لا كأمر غيبي أو إلهي. وينظر فيه حينئذ بعين العمران وقوانينه، لا بعين الدين ومبادئه، أو بعين الشرع وأحكامه، فلمسائل الشرع منطقها، ولمسائل العمران والتاريخ منطقها، ولا يصح، في المعرفة، الخلط بين المنطقين »[٢].

والمسألة في أساسها ليست لعبة لجرّ الحبل بين الإسلاميين والطرف الآخر نصرانيًّا كان أم علمانيًّا أم ماديًّا، ولكنها محاولة للإضاءة يتبين من خلالها الموقع الذي وقف عليه ابن خلدون، والدائرة التي تحرك في إطارها.

وفي حالة كهذه، فإن تفنيد حجج الآخرين سيتضمن - ابتداءً - موافقة على الدخول في اللعبة، ومن أجل ألّا نمسك بالحبل من طرفه الآخر لكي نجر إلينا ابن خلدون بطريقة متعسفة، فإن علينا أن نتابع بعض الملامح المنهجية والموضوعية في معطياته لكي نعرف الأرضية التي ينشط عليها، دونما حاجة لإقناع الآخرين أو إرغامهم - بقوة الشد - على إعادة الفكر الخلدوني إلينا.

والمدى واسع، وما قاله ابن خلدون في هذا السياق أوسع بكثير من أن تتحمله

(١) مهدي عامل: الطبعة الثانية، دار الفارابي، بيروت (١٩٨٦م).
(٢) من تعليق الناشر على غلاف المرجع السابق.

صفحات بحث كهذا. ولذا سيكون الإيجاز أمرًا لا مفر منه، وستتحرك المقاطع التالية على محاور أساسية ثلاثة فحسب في الفكر الخلدوني من بين محاور عديدة أخرى، مؤشرة على ارتباط هذه المحاور بمنظوره الإسلامي الأصيل: **النشاط المعرفي، الرؤية التربوية، وحركة التاريخ.**

أولًا: النشاط المعرفي:

في حديث ابن خلدون عن طبيعة النشاط المعرفي وضوابطه، لا يكفي أن نقول بأنه كان يملك رؤية متميزة، ولكن أن نضيف إلى هذا صفة (الإسلامية) التي كانت تشكّل هذه الرؤية وترسم ملامحها.

يتحدث في مقدمة له بعنوان (الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب) عن الفكر بما أنه الخصيصة التي تميز الإنسان عن سائر الحيوانات، وتمكّنه من أداء دوره العمراني في العالم كمستخلَف فيه. وهو هنا يشير إلى ثلاثة أنماط من النشاط العقلي الذي يمارسه الإنسان ويطرح في هذا المجال - كما فعل في مجالات أخرى من الباب السادس - جوانب عديدة من تصوره لنظرية المعرفة، ولا يكاد وهو يتوغل في الموضوع أن يفارق طريقته التي اعتادها: الإحساس الدائم بالحضور الإلهي المستمر في التاريخ، والاستشهاد بآيات من كتاب اللّـه، وهما أمران لهما دلالتهما على عمق المعنى والرؤية الدينية لدى ابن خلدون، « قد بيّـنّا أن الإنسان من جنس الحيوانات، وأن اللّـه تعالى ميزه عنها بالفكر الذي جُعل له، يوقع به أفعاله على انتظام وهو العقل التمييزي، أو يقتنص به العلم بالآراء، والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه وهو العقل التجريبي، أو يحصل به في تصور الموجودات غائبًا وشاهدًا على ما هي عليه وهو العقل النظري. وهذا الفكر إنما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه، ويبدأ من التمييز، فهو قبل التمييز من النطفة والعلقة والمضغة، وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل له اللّـه في مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر، قال تعالى في الامتنان علينا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[1]، فهو في الحالة الأولى قبل التمييز فقط لجهله بجميع المعارف، ثم تُستكمل صورته بالعلم الذي

(١) سورة النحل: الآية ٧٨.

يُكتسب بآلاته فتكمل ذاته الإنسانية في وجودها.

وانظر إلى قوله تعالى مبدأ الوحي إلى نبيه: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[(١)]؛ أي: أكسبه من العلم ما لم يكن حاصلًا له، بعد أن كان علقة ومضغة، فقد كشفت لنا طبيعتَه وذاته ما هو عليه من الجهل الذاتي والعلم الكسبي، وأشارت إليه الآية الكريمة تقرر فيه الامتنان عليه بأول مراتب وجوده وهي الإنسانية، وحالتاها الفطرية والكسبية، في أول التنزيل ومبدأ الوحي، وكان اللّـه عليمًا حكيمًا ».

بصدد الفلسفة كطريقة للمعرفة يتحدد موقف ابن خلدون المرتبط برؤيته الدينية الواضحة تحت هذا العنوان (فصل في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها)، وهو يرد في الباب السادس من مقدمته والذي يتناول فيه (العلوم وأصنافها)[(٢)]، حيث يقوده تحليله العميق إلى القول بتعارض الفلسفة والدين.

وهو موقف إسلامي ذكي مقنع يصدر عن فهم دقيق للعلاقات المتبادلة بين العقل والشرع، وبين العقل والعالم، لـولا أن ابن خلدون أخطأ العنـوان، أو أن العنوان أخطأ الرجل، فجاء بهذه الصيغة التعميمية، و (التعميم) هو إحدى ثغرات (المقدمة).

(**إبطال الفلسفة**)، وللوهلة الأولى يبدو أنه يرفض الفلسفةَ بأنماطها وحقولَها واختصاصاتِها جميعًا، ولما كانت هناك أنماطٌ شتى من الفلسفة، كفلسفة الأخلاق، وفلسفة الجمال، وفلسفة الفن، وفلسفة التاريخ، إلى آخره.. وكان هو نفسه فيلسوفًا على هذا المستوى الأخير، وإن لم يكن مصطلح (فلسفة التاريخ) قد برز بعد وتبلور، تبدَّى لنا كيف أن الرجل يناقض نفسه، وكيف يعلن عن إبطاله للفلسفة وفيها من الفروع ما هو ضروري جدًّا للتقدم الجاد في حقول المعرفة، ولفهم الارتباطات الشاملة بين الحقائق والظواهر التي تتضمنها هذه الحقول.

---

(١) سورة العلق: الآيات ١ – ٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون (٦/ ٩٨٣ – ٩٨٤)، الطبعة الثانية، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي. لجنة البيان العربي، القاهرة (١٩٦٥م).

لكننا بتجاوُز العنوان يتبين لنا، بمجرد اجتياز الأسطر الأولى، أن الرجل لا يقول بإبطال عموم الفلسفة، وإنما نوع واحد منها فقط هو المسمى بفلسفة الإلهيات أو ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا)، بما أن العقل البشري والأدوات الحسية التي يعتمدها غير قادرتين على سبر أغوار هذا العالم الذي يتحتم - على ذلك - أن يبقى في دائرة اختصاص الشرائع الدينية الموحَى بها من اللّـه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي أحاط - سبحانه - بكل شيء علمًا.

وطالما تجاوز العقل وأدواته الحسية حدود اختصاصاتهما المعقولة حيثما انتهى المطاف إلى الضياع، وحيثما مُورس نوع من التبذير في الطاقات البشرية التي كان أحرى بها أن تتجه للعمل في ما هو أقرب إليها وأجدى عليها، وأن تترك ما وراء العيان لأصحابه الحقيقيين، فتسلم وتعرف كيف تضع خطاها مستمِدةً الضوء في تلك الدائرة اللامتناهية من مصادر أخرى تفوق العقل والحواس قدرة على رؤية ما يجري هنالك.

إن ابن خلدون يذكرنا، بموقفه الملتزم هذا، بالغزالي، الذي كان فيلسوفًا هو الآخر، ولكنه سدد ضربات قاسية للفلسفة بمعناها الميتافيزيقي هذا في كتابه (تهافت الفلاسفة) على وجه الخصوص، ويذكرنا - في الجهة الأخرى - بجهود حشد كبير من الفلاسفة المسلمين: الكندي، الفارابي، ابن سينا.. إلى آخره، كانوا أشبه بظلال لفلاسفة اليونان، أفنَوا أعمارهم في هذا الحقل وكتبوا كثيرًا في الإلهيات، وأجهدوا عقولهم في تحليل معطيات ما وراء الطبيعة بحثًا عن العلة والمعلول وواجب الوجود ومتناهي الأول، ولم يصلوا - في نهاية الأمر - إلّا إلى تعميمات وإشارات معقدة غامضة.

صحيح أنها في معظمها أكدت التوجه صوب اللّـه الواحد سبحانه، إلّا أنها استنزفت من قدرات العقل البشري جهدًا أكبر بكثير من النتائج التي بلغتها؛ لأنه ضرب في يمٍّ ليس من السهولة بمكان الوصول إلى مرافئه وشواطئه، في وقت كانت الشرائع الموحى بها من اللّـه ﷻ قد حسمته بوضوح وإعجاز بالغين، ولأن جهدًا كهذا أحرى أن يبذل فيما هو أجدى على الإنسان والعمران البشري في تقدمه ورقيه.

وما لنا ألَّا نرجع إلى ابن خلدون نفسه لكي نرى ما الذي يريد أن يقوله: « هذا الفصل وما بعده مهم؛ لأن هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن، وضررها في الدين كثير، فوجب أن يصرح بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها، وذلك أن نوعًا من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كله، الحسي منه وما وراء الحسي، تدرك ذواته وأحواله بأسبابه وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية، وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر (أي العقل) لا من جهة السمع (أي النقل عن الشرائع المُوحَى بها من اللّـه سبحانه) فإنها بعض من مدارك العقل.

وهؤلاء يسمَّون فلاسفة، جمع فيلسوف، وهو باللسان اليوناني محب الحكمة. فبحثوا عن ذلك وشمروا له ووضعوا قانونًا يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل، وسموه بالمنطق »، وبعد أن يعرّف بالمنطق يقول: « .. ثم يزعمون أن السعادة في إدراك الموجودات كلها، ما في الحس وما وراء الحس، بهذا النظر وتلك البراهين ».

فهو إذن يرفض ما يريده هؤلاء الفلاسفة من تحكيم للعقل في مسائل الحس وما وراء الحس، ومن إخضاعه - حتى - للعقائد الإيمانية التي تند عن دائرة المعقول والمحسوس، ويرى في ذلك ضررًا كبيرًا يلحق بالدين؛ لأن هذا الموقف هو في نهاية التحليل تجاوز للاختصاص الذي اختصت به طاقات الإنسان وقدراته، وهذا التجاوز سيكون على حساب المعطيات الدينية التي وإن جاءت في كثير من جوانبها مساوقة لبداهات العقل والحس السليمين، إلَّا أنها بصدورها عن مصدرٍ هو أكبر بكثير في رؤيته من العقل والحس، وأكثر شمولية وموضوعية واستشرافًا، بما لا يقبل القياس، يجعلها لا تخضع للحصر الحسي أو العقلي، وإلَّا كانت النتائج التي ستصل إليها إما خاطئة من الأساس، أو أنها - على أقل تقدير - ستجعل العقل فوق الدين، وستفقد الأخير بالتالي إلزاماته الفوقية وأبعاده الغيبية، وتجعله في نهاية الأمر لعبة يتلهى بها الفلاسفة في ضوء معطيات عقولهم النسبية دون أن يحاول أحدهم يومًا التزام مقولاتها.. وحاشا للدين من هذا المصير.

بل يحدث ما هو أبعد من ذلك: رفض لشريعة اللّـه المُوحى بها إلى أنبيائه عليهم السلام،

واتباع للشرائع التي يسنها العقل البشري، وابتكار طريف لمعنى النعيم والعذاب لم يقل به دين من الأديان. وهذا ما يصل إليه ابن خلدون من خلال تحليله لطرائق هؤلاء الفلاسفة في التدرج من الحسي إلى ما وراء الحسي، وفي الحكم على مجريات السماء البعيدة استنادًا إلى ما يلحظونه في الأرض القريبة.. يقول: « وحاصل مداركِهم في الوجود على الجملة، وما آلت إليه، وهو الذي فرعوا عليه قضايا أنظارهم، أنهم عثروا أولًا على الجسم السفلي بحكم الشهود والحس، ثم ترقى إدراكهم قليلًا فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس بالحيوانات، ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل ووقف إدراكهم فقضوا على الجسم العالي السماوي بنحو من القضاء على الذات الإنسانية، ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان. ثم أنهوا ذلك نهاية عدد الأحاد وهي العشر، تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أول مفرد وهو العاشر. ويزعمون أن السعادة في إدراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخلقها بالفضائل، وأن ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع لتميزه بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال بمقتضى عقله ونظره وميله إلى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته، وأن ذلك إذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة، وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمدي. وهذا عندهم هو النعيم والعذاب في الآخرة.. إلى خبط لهم في تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم ».

فلا معنًى لنزول الأديان إذن، ولا حاجة لاتصال الوحي ببني آدم عن طريق رسل اللّـه سبحانه، ما دام أن مجموعة الفلاسفة قادرة بمنهجها الذي يبدأ من الأسفل ويصعد إلى الأعلى، على منح الإنسان الدين الذي يسعده ويبهجه! وهكذا يتبدى لنا الضرر الذي حذر منه ابن خلدون في بداية فصله هذا.

إننا هنا قبالة منهج مقلوب: أن نصل إلى الدين السماوي من خلال الأرض السفلية، وأن نحظى بالنعيم الكلي الخالد من خلال رؤية المحدود الفاني، وفضلًا عن ذلك، فإن هذا الجهد المقلوب يستنزف من العقول البشرية طاقات كبيرة وهي تعمل في غير حقلها، كان أحرى أن تُبذل في مجال تنمية العمران في العالم، من

خلال فهم هذا العالم القريب ومحاولة كشف سننه والسيطرة عليها وتسخيرها لصالح الإنسان فيما هو من اختصاص العقل والحس البشريين.

أما المنهج الديني فهو على العكس من ذلك، يجعلنا نعتمد منهجًا يقف دائمًا في وضعه الصحيح: إن السماء هي التي تمنح الأرض الهدى الذي تسير فيه إلى غايتها، واللّـه سبحانه، الذي هو أدرى بخلقه هو الذي يبعث بوحيه الأمين، بين الحين والحين، ينقله الأنبياء الكرام إلى أجيال البشرية حقبة في إثر حقبة حتى خاتم الأنبياء عليه السلام. وهكذا فإن الكلي هو الذي يقود المحدود، وإن الخالد هو الذي يحدد الفاني، ما دام عالم السماء عالم ما وراء الحس والإدراكات العقلية النسبية يند عن طاقة الإنسان، وسعيه فيه لا يعدو أن يكون سعيًا ظنيًّا، فأحرى بالعقل والحس البشريين أن يتجها للعمل في قلب العالم، في دراسة مادته وفهم علاقاته وإدراك سننه.. وحينذاك سيعرف الإنسان، ليس فقط الطرائق التي تمكنه من إعمار العالم كخليفة فيه، وإنما سيزداد إيمانًا باللّـه والتزامًا بوحيه الأمين من خلال إدراكه للحكمة المقصودة في خلق هذا العالم، والتناسق المعجز في وظائفه وتركيبه، وهكذا.. فبينما ينتهي الأمر بالفلسفة إلى أن تقف نقيضًا للعلم المجدي الفعال، وأدواته عقلًا وحواسًّا، ينتهي الدين إلى تأكيد لهذا العلم وتنشيط لأدواته.

وبعد أن يشير ابن خلدون إلى أن إمام هذه الفلسفة الذي استوفى مسائلها هو أرسطو المسمى بالمعلم الأول، يلتفت التفاتة ذكية بقوله: « .. ثم كان من بعده في الإسلام مَنْ أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل؛ وذلك لأن كتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي، تصفحها كثير من أهل الملة من منتحلي العلوم (الفلسفية) وجادلوا عنها، واختلفوا في مسائل تفاريقها، وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي وأبو علي بن سينا.. وغيرهما ».

ولكن مهما يكن من أمر هذه الاختلافات، فإن فلاسفة المسلمين الأول ما كانوا بأكثر من ظلال لأسلافهم اليونان، اتبعوا رؤيتهم في الفلسفة « حذو النعل بالنعل ».

يأخذ ابن خلدون بعد ذلك بمناقشة وجهات هؤلاء الفلاسفة وتفنيد ما يستحق

التفنيد، فيما لا مجال لاستعراض تفاصيله، ويختم مناقشاته هذه بقوله: « فهذا العلم كما رأيته غير وافٍ بمقاصدهم التي حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها »، ثم يشير إلى الثمرة الوحيدة التي نحظى بها من شجرة الفلسفة هذه تلك هي شحذ الذهن البشري وتمكينه من ترتيب الأدلة المنطقية وسوق البراهين على ما يسعى إلى إثباته. وهذا يدل على انفساح صدر ابن خلدون لكل علم بشري وملاحظة سلبياته وإيجابياته على السواء، في محاولة منه أن يأخذ الحكمة من أي وعاء خرجت كما علمه الرسول ﷺ أن يكون، « وأما مضارها – أي الفلسفة – فهي ما علمت. فليكن الناظر فيها متحرزًا جهده من معاطبها، وليكن نظر مَنْ ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه، ولا يكبن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة، فقلَّ أن يسلم لذلك من معاطبها ». وأما الذين يختارون أن يتحصنوا – أولًا – بكتاب اللّـه وسنة رسوله ﷺ، فلهم أن يسيروا حيث يشاؤون، وأن يسبروا غور الفلسفة أيًا كانت، فإنهم سوف يصلون شاطئ الأمان وقد ازدادوا إيمانًا ويقينًا.

إلا أن ابن خلدون يحبذ « الإعراض عن النظر فيها؛ إذ هو من ترك المسلم ما لا يعنيه »، فإن هذه المسائل « لا تهمنا في ديننا ولا في معاشنا، فوجب علينا تركها ». فكأنه – انطلاقًا من موقف الإسلام نفسه – يريد أن يحفظ على العقل البشري طاقته الفعالة فلا تستنزف فيما هو غير مجد، ولا تعمل إلَّا فيما يعود على الإنسان المسلم بالخير في دينه ومعاشه؛ أي أن ينصب جهدها في صميم العالم، لا فيما وراء العالم حيث اختصاص الأديان.

ومن زاوية الرؤية الدينية المتسلحة بالعقل نفسها، يدعو ابن خلدون إلى إبطال خرافة التنجيم، تمامًا كما دعا إلى إبطال خرافة فلسفة الإلهيات وما وراء الطبيعة.. كلتاهما خرافة، بما أنهما تقودان العقل البشري إلى ساحة الكون غير المنظور، بما لم يتهيأ له أساسًا. والخرافة بمعنى ما، هي أن نتحرك إلى أهدافنا بدون الوسائل المنطقية التي تبلغنا تلك الأهداف. وإذا كانت الممارسة الفلسفية لما وراء الطبيعة تغطي على عبثها وعقلانيتها بنوع من المنهجية المدعاة وبحشد من المصطلحات

المعماة، فإن التنجيم يضرب بهذا كله عرض الحائط، ويعتمد أسلوبًا في العلم ما أنزلت معطيات العقل والمنطق وبداهاتهما به من سلطان، « فهذه الصناعة - يقول ابن خلدون - يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة، فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية.. » إلى آخر هذا الغثاء.

وهو ينفي أن يكون الأنبياء عليهم السلام قد مارسوا هذا المنهج وحاشاهم، « .. ذهب ضعفاء - من أصحاب التنجيم - إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي، وهو رأي فائل » خاطئ وضعيف، « وقد كفونا مؤونة إبطاله.. ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أبعد الناس عن الصنائع، وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلَّا أن يكون عن اللّـه، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق؟ ».

وبعد أن يستعرض ابن خلدون مقولات بطليموس وتلامذته في هذا الميدان، يتقدم لتفنيدها بحجج عقلية بينة، ويصل إلى القول بأن « تأثير الكواكب فيما تحتها باطل؛ إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل إلا اللّـه، بطريق استدلالي كما رأيته، واحتج له أهل علم الكلام بما هو غني عن البيان من أن إسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادئ الرأي من التأثير، فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف والقدرة الإلهية رابطة بينها كما ربطت جميع الكائنات علوًّا وسفلًا، سيما والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة اللّـه تعالى ويبدأ مما سوى ذلك.

والنبوات أيضًا منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها، واستقراء الشرعيات شاهد بذلك؛ مثل قوله ﷺ: « **إن الشمس والقمر لا ينخسفانِ لموت أحد ولا لحياته** »[1]، فقد بان لك بطلان هذه الصناعة عن طريق الشرع، وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل، كما لها من المضار في العمران الإنساني لما تبعث في عقائد العوام

(١) سبق تخريجه.

من الفساد إذا اتفق الصدق في إخفائها في بعض الأحايين اتفاقًا لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق. فليلهج بذلك مَنْ لا معرفة له ويظن إطراد الصدق في سائر أحكامها، وليس كذلك، فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها ». ثم ما ينشأ عنها كثيرًا في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليها ذلك التوقع من تطاول عداء المتربّصين بالدولة إلى الفتك والثورة، وقد شاهدنا من ذلك كثيرًا. فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول ».

ثم يبين كيف أن حظر الشريعة لهذا العبث المدعو علمًا، دفع أصحابه إلى ممارسته بمعزل عن الجمهور، وتسترهم عن الناس كي لا ينكشف أمرهم، وهذا مما زاده إلغازًا وتعقيدًا.. « فأين التحصيل والخدمة مع هذا كلها؟ ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك، لغرابة الفن بين أهل الملّة وقلة حَمَلَتِه.. واللّـه أعلم بالغيب ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[١].. »[٢].

ومن المنطلق نفسه يرفض ابن خلدون الكيمياء، لا بمفهومها التجريبي المختبري الذي عرفته بمرور الوقت، ولكن بمفهومها السحري القديم القائم على الدجل والخرافة والذي كان يطمح بتحويل المعادن الرخيصة إلى ثمينة بأساليب سحرية ملغزة لا تقل سخفًا في تعاملها مع حقائق الطبيعة والكون عن الميتافيزيقا أو التنجيم.

إن ابن خلدون في دعوته الجادة إلى إبطال تلك الفنون الثلاثة - ولا أقول علومًا - الميتافيزيقا والكيمياء السحرية والتنجيم، بقدر ما ينطلق من رؤية دينية واضحة وعميقة، تُستمد من كتاب اللّـه وسنة رسوله ﷺ، بقدر ما يؤكد مدى احترامه للعقل البشري، وأنه برفضه هذه الفنون لا يقف بمواجهة العقل والروح العلمية وإنما معها، وتلك هي طبيعة الرؤية الدينية كما يمنحنا إياها كتاب اللّـه وسنة رسوله عليه السلام[٣].

---

(١) سورة الجن: الآية ٢٦. (٢) المقدمة (٦/ ١٢٠٨ - ١٢١٣).

(٣) عن النصوص السابقة المقتبسة من: المقدمة، تُنظر الصفحات (٦/ ١١٩٩ - ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٧ - ١٢١٥)، وعماد الدين خليل: ابن خلدون إسلاميًّا، المكتب الإسلامي، بيروت (١٩٨٣م)، (ص١٣٥ - ١٣٦).

ثانيًا: الرؤية التربوية:

التربية بإيجاز شديد، عمل دينامي يستهدف صقل وتنمية قدرات الإنسان العقلية والروحية والجسدية والوجدانية، وبما أن الإنسان - بإيجاز أيضًا - هو صانع الحضارة، فإن التربية - بالضرورة - تغدو صيغة عمل حضاري يحمل قدرًا كبيرًا من الأهمية.

وابن خلدون هو واحد من المفكرين الرواد الذي أولَوا المسألة الحضارية أهمية بالغة، وتجاوزوا المنظور التسطيحي لقراءة التاريخ البشري صوب التوغل عمقًا لفهم أبعاد معطياته الحضارية، والقوانين التي تحكمها، بدءًا وصيرورة ونموًّا وفناءً.. وليس من قبيل الصدفة - إذن - ولا لمجرد استكمال الحديث عن كل موضوع وفق نزعة موضوعية فضفاضة، كما كان يفعل الكثير من الكُتَّاب قَبْلَهُ أو بعده، ليس من هذا القبيل تلك المساحات الواسعة التي يمنحها الرجل للمسألة التربوية في العديد من شعبها واهتماماتها وأنشطتها، ما دام أن العمل التربوي سعي متواصل في صميم النشاط الحضاري للجماعة البشرية.

وهو يمنحنا تحليلاتٍ طيبة، وعلى قدر كبير من النضج، بالمقارنة مع المعطيات التربوية الحديثة: عن القيم والأهداف ومحتوى التعليم وطرائقه وأساليبه، والمعلم والمتعلم، كما أنه يقف طويلًا عند (نظرية المعرفة) ذات الارتباط الوثيق بالتربية، ويقدم - في الوقت نفسه - رؤية للإنسان من خلال نظرة التربية الإسلامية إليه.

وبما أن الرجل هو ابن البيئة الإسلامية لحمًا ودمًا وفكرًا، فإن معطياته التربوية كانت تتشكل بالضرورة من مادة هذه البيئة وتتداخل مع نسيجها.

بعبارة أخرى، إنه يتحدث عن التربية الإسلامية على وجه الخصوص لا عن أية تربية أخرى، وضعية أو غير وضعية، كما حاول ويحاول بعض الباحثين، منذ القرن الماضي وعبر بدايات القرن الأخير، أن يذهبوا - كما رأينا - ليس على مستوى التربية فحسب، بل على كافة المستويات المعرفية التي تتضمنها المقدمة.

وتتوزع المادة التربوية على مدى المقدمة، وتنتشر في أبوابها الستة، لكنها تتكاثف هنا وتقل هناك، وفقًا لطبيعة الباب، أو الفصل الذي يتحدث عن

(موضوعة) ما قد ترتبط بالمنظور التربوي بشكل مباشر أو غير مباشر، وقد لا ترتبط به أساسًا.

يصدر ابن خلدون في نظرته للإنسان، والتعامل التربوي معه بالتالي، عن رؤية إسلامية واضحة تضع هذا الكائن المتفرد في مكانه الحق من العالم.

وهو يؤكد ويعيد تأكيده المرة تلو المرة، على تميز الإنسان بالفكر الذي وهبه اللّٰه إياه، متجاوزًا النظرة التجزيئية للإنسان، متعاملًا معه بمكوناته كافة: العقل والروح والوجدان والحس والغرائز والجسم، دونما عَزْلٍ أو نفيٍ أو فصل أو تقطيع، الإنسان كما خلقه اللّٰه سبحانه وكما أراد له أن يكون.. كما يؤكد حتمية النبوات التي أعان اللّٰه الإنسان بها على اكتشاف الطريق، وعلى استخلافه العمراني في العالم، وتسخير العالم بطاقاته وسننه لهذا المخلوق المستخلَف في الأرض؛ لكي يقدر على مواصلة مهمته في التقدم والتحضر والإعمار[1].

هذه هي الخطوط الأساسية، أو مراكز الثقل الخمسة التي تميز التصور الإسلامي للإنسان عن سائر المذاهب والتصورات، والتي تنبثق عنها بالضرورة طبيعة التربية التي يتحتم اعتمادها لتنمية قدرات هذا الكائن وتمكينه من أداء مهمته في الأرض، كما تنبثق عنها ملامح وأسس نظرية للمعرفة تتميز هي الأخرى عن سائر النظريات الوضعية، باتساع مداها وتجاوزه لظواهر الأشياء صوب عالم الباطن والغيب.

ويحمل التعليم قيمته الأساسية في مقدمة ابن خلدون من حيث إنه ضرورة من ضرورات الاجتماع البشري، وأداة لا بد منها لتمكين الجماعة من التحقق بالعيش والرفاهية من خلال الخبرات والصنائع التي تنالها بالتعليم. بل إن الأمر ليتجاوز هذا كله فيغدو التعليم ضرورة لقبول ما جاء به الأنبياء عليهم السلام والانتماء لدعواتهم. من خلال نظرة إسلامية شمولية يطل بها ابن خلدون على قيمة التعليم فيجدها تمتد لكي تشمل الأرض والسماء، الدنيا والآخرة على السواء، وتلك هي بحق واحدة

---

(١) عماد الدين خليل: الرؤية التربوية في مقدمة ابن خلدون، كتاب (من أعلام التربية العربية الإسلامية)، (٤/ ١٢٨)، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض (١٩٨٩م).

من أهم ملامح التربية الإسلامية، بل أهمها على الإطلاق[١].

ويقف ابن خلدون طويلًا عند قيمة العمل - الذي تبرمج له وتؤكده الممارسة التربوية التعليمية - ويراه ضرورة من ضرورات العمران، ثم هو كعادته يعالجه من زاوية رؤياه الإسلامية، ويبلغ به الأمر القول بأن قيمة الأشياء إنما تقاس بمقدار ما بذل فيها من عمل، وهو يربط - كذلك - بين العمل وبين مبدأ التسخير الذي يعرض له كتاب اللّـه للإنسان في هذا العالم، وحيثما تلفتنا وجدنا الرجل يولي العمل قيمة كبرى كواحد من الوسائل الأساسية لتحقيق مهمة الإنسان في الأرض واستخلافه العمراني في العالم على عين اللّـه وهدى أنبيائه عليهم السلام[٢].

حتى إذا ما بلغنا المسائل المباشرة الأكثر ارتباطًا بالعملية التربوية التعليمية، وجدنا ابن خلدون يقدم مادة طيبة، ويقف وقفات قد تطول وقد تقصر عند هذه المسألة أو تلك من مسائل التربية والتعليم.

إنه يـرى حتمية وجـود (المعلم) كطرف أساسي في هذه العملية، سـواء استهدفت تخريج العلماء أم الصناع[٣]. ليس المعلم فحسب، ولكنه المعلم الجيد هو المطلوب لتحقيق النتيجة الأفضل.

ونجد ابن خلدون يركز المسألة بمبدأ واضح بسيط ولكنه ضروري، إنه « على قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون المتعلم »، وهكذا يحتل المعلم مكانه المناسب.

والمهمة التي يمارسها المعلم ليست مجالًا « كيفيًّا » ولا عملًا مستقلًّا بذاته لا يحتاج إلى عوامل مساعدة، إنها برنامج مرسوم يتدرج من البسيط إلى المركب، ومن الضروري إلى الكمالي، وهذا يحتاج إلى زمن، ولا يستكمل أسبابه إلَّا بعد تقدم الجماعة خطوات واسعة في تحضرها[٤]، ثم إن مهمة المعلم لا تنحصر في

(١) عماد الدين خليل: الرؤية التربويـة في مقدمـة ابن خلدون، كتـاب (من أعـلام التربية العربية الإسلامية)، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض (١٩٨٩م) (٤/ ١٣١ - ١٣٢).

(٢) المرجع السابق (٤/ ١٣٣).

(٣) المقدمة (٣/ ٩٢٣).

(٤) المرجع السابق (٣/ ٩٢٣ - ٩٢٤).

تعليم هذا الجانب أو ذاك فحسب من أمور المعرفة، بل تمتد لكي تشمل الجوانب كافة؛ أي ما هو علمي وما هو عملي في الوقت نفسه[١].

وهو يعتبر التعليم من (جملة الصنائع) باعتباره فنًّا لا بد من الإلمام بأصوله وقواعده لكي يتمكن المعلم الذي يمارسه من تأدية مهمته على الوجه المطلوب[٢]. إنه يؤكد (مهنية) المعلم، وأن ما يمارسه ليس مجرد علم فحسب، وإنما هو (منهج) للتوصيل يختلف فيه هذا المعلم عن ذاك، ويتباين هذا الجيل عن ذاك[٣].

وابن خلدون يعرف كيف يربط بين ما يبلغه فن التعليم من مستوى وبين البيئة الحضارية التي ينشط فيها. فالعلاقة بينهما طردية، وحيثما بلغت جماعة ما شأوًا متقدمًا في المضمار الحضاري، تقدم معها فن التعليم ونفق سوقه[٤]. إنه يجد فرصته للحذق والاكتمال في البيئة المتحضرة بسبب ما تتيحه من مجالات أوسع للمناظرة والجدل والحوار في مناحي العلوم، وتسمح به من الاحتكاك والاتصال والأخذ والعطاء بين الطرائق والمناهج، هنالك حيث يتألق المعلم الممتاز وحيث يجد طلبة المعلم مبتغاهم فيمن يعرف كيف يوصل إليهم المعرفة التي يطلبونها[٥].

والتعليم ليس تحفيظًا، كما أن التعلم ليس حفظًا، وإنما هو على جانبيه إعمال للقدرات العقليـة وكسب للزمن من أجل التمكـن من المعرفة في هذا الحقـل أو ذاك[٦]. إن غياب المعلم الجيد يحرم الطلبة من الفرص المواتية للتعلم، كما يحرم الجماعات من كسب عامل الزمن في الصراع من أجل المعرفة[٧].

وإذا كان ابن خلدون - فيما سبق - يقف عند حدود العلاقة بين درجة التحضر عمومًا ومستوى التعليم والتعلم، فإنه لا ينسى أن يشير إلى بعض المفردات (المساعدة) التي تعين على تحسين العملية التعليمية والتربوية عمومًا، منها - بطبيعة الحال - الإكثار من بناء المؤسسات التعليمية من مدرسة وزاوية ومسجد

---

(١) المقدمة (٣/ ٩٢٤).
(٢) المرجع السابق (٣/ ٩٨٥).
(٣) المرجع السابق (٣/ ٩٨٥ - ٩٨٦).
(٤) المرجع السابق (٣/ ٩٨٦ - ٩٨٧).
(٥) المرجع السابق (٣/ ٩٨٧).
(٦) المرجع السابق (٣/ ٩٨٧).
(٧) المرجع السابق (٣/ ٩٨٧ - ٩٨٨).

ورباط، ومنها وقف الأوقاف على هذه المؤسسات من أجل أن تسير العملية بنجاح، ويجد المعلم والمتعلم فرصته لتجاوز الانهماك بالضرورات فيتحرر منها، بالضمان المعاشي الأكيد؛ لكي يتفرغ لما هو بصدده: ذاك لمهنته وهذا لمهمته. فحيثما كثرت الأوقاف والضمانات وعظمت الغلات والفوائد، كثر طالب العلم ومعلمه وأحسنوا مهمتهم، « ونفقت أسواق العلوم وزخرت بحارها »[١].

وبما أن التعليم يعني توصيل الحقائق المعرفية بين طرفين، فإن ابن خلدون يقف بعض الوقت عند نوعين من صيغ التوصيل: الصيغة الشفاهية التي تتم مباشرة بين العالم والمتعلم، والصيغة الكتابية التي تتم بشكل غير مباشر بينهما من خلال الكتب والمؤلفات[٢]، وهي الصيغة الأكثر ذيوعًا وانتشارًا بسبب من أن المؤلف كخزين للمعرفة أكثر دوامًا من صاحبه، وأكثر قدرة على الانتشار في المكان. وهكذا يكون دور المعلم ضروريًّا على هذا المستوى كذلك، بما أن التآليف تحتاج إلى مَنْ يتقن توصيلها بمهنته المتخصصة في فنه إلى عقول المتعلمين[٣].

وابن خلدون يتخذ إزاء (الكتاب) كواحد من أهم الوسائل التعليمية، طريقًا وسطًا يتميز بالمرونة، ويلاحظ جيدًا سيكولوجية التعلم، والقدرات النفسية للمتعلم، فهو من جهة يرفض فكرة الإكثار من التأليف وتحميل المناهج التعليمية بالمزيد من الكتب التي تعالج موضوعًا واحدًا؛ لأن ذلك يعوق الطالبَ عن التحصيل ويحدث لديه نوعًا من الإرباك الذهني[٤]، فضلًا عن أنه يستغرق وقته فيما لا مبرر له. ثم إن اختلاف الكتب في المادة الواحدة يعني عند ابن خلدون اختلاف الطرائق المنهجية في العرض والشرح والتعليل، الأمر الذي يقود إلى السلبيات آنفة الذكر، ويرى بدلًا من الدخول إلى التفاصيل والجزئيات التي تكرر نفسها بصيغ مختلفة، أن يقدَّم للطالب جوهر المادة العلمية وخطوطها العريضة - دون إلحاح في الإيجاز - في كتاب واحد لكي يعينه ذلك على كسب الوقت والتمكن

---

(١) المقدمة (٣/ ٩٩١).

(٢) انظر بالتفصيل: المرجع السابق (٤/ ١٢٢٥ - ١٢٢٧).

(٣) المرجع السابق (٤/ ١٢٢٥ - ١٢٢٧). (٤) المرجع السابق (٤/ ١٢٣٠).

من الإلمام بالملامح الأساسية للمادة[١].

وهو - بالمقابل - يندد بالتلخيصات والاختصارات في المؤلفات المنهجية، ويرى أن ذلك بدوره يخل بالتعليم بسبب من إلحاحه في الإيجاز، الأمر الذي يجعل المادة عسرة على الفهم بتركيزه المعاني الكثيرة في ألفاظ محدودة[٢].

ولا ينسى ابن خلدون أن يقدم تصوره لعقلانية التعلم، وصيغ توصل العقل لحقائق الأشياء، داعيًا المتعلم إلى إدراك كنه هذا النشاط لكي يتمكن من تجاوز صعابه وعقابيله، ولكي ينفذ إلى المعاني من وراء حجب الألفاظ والاستدلالات المنطقية الصناعية، بإعمال الفكر (الطبيعي) مباشرة في الحقائق المستغلقة وصولًا إلى الجوهر والمعنى[٣].

كما أنه لا ينسى أن يُفرِدَ فصلًا لمسألة التخصص العلمي، أو المهني، أو سيكولوجيته بعبارة أدق، ويرى أن المرء إذا أجاد مهنة ما ورسخت في نفسه فإنه قد لا يجيد بعدها مهنة أخرى[٤].

وبصدد المراحل المبكرة للتعليم، فيما يسمى بتعليم الولدان، يمنحنا ابن خلدون مادة مقارنة يستمدها من طرائق التعليم الإسلامية واختلافها، ويكاد يكون تعلم القرآن الكريم القاسم المشترك، والأساس في هذه الطرائق جميعًا عبر مراحل التعليم المبكرة. فالقرآن الكريم كتاب هذه الأمة، وهاديها ودليلها، وهو دستور عقيدتها، ومنهاج حركتها في العالم.. وتعليمه للأجيال الناشئة ضرورة محتومة إذا ما أريد لهذه الأجيال أن تكون مسلمة حقًّا[٥].

لكن الذي يختلف فيه بين مصرٍ ومصرٍ ومدرسةٍ وأخرى، هو منهج التعليم، وهاهنا يقدم ابن خلدون عرضًا مقارنًا لهذا المنهج في تعليم كتاب اللَّه في كل من المغرب والأندلس، والمشرق، والنتائج التي ترتبت عليه في كلٍّ

(١) المقدمة (٤/ ١٢٣٠ - ١٢٣١).
(٢) المرجع السابق (٤/ ١٢٣٣).
(٣) المرجع السابق (٤/ ١٢٢٣ - ١٢٣٨).
(٤) المرجع السابق (٣/ ٩٣٠ - ٩٣١).
(٥) المرجع السابق (٤/ ١٢٤٩ - ١٢٤٠).

من هذه الأقاليم[١].

وابن خلدون وهو يتحدث عن محتوى التعليم، يشير إلى صنفين من العلوم: عقلي ونقلي، دون أن يغفل عن أن هذا الأخير يتحتم أن يتم التعامل معه عقليًا بالقياس والتفريع والاجتهاد. كما أن الرجل لا يفوته كذلك أن يؤكد هاهنا رؤيته الإسلامية وخصوصيته العقيدية أسوة بما كان يفعل في جل مساحات مقدمته الخصبة، بصيغ مباشرة حينًا وغير مباشرة أحيانًا أخرى، فكأنه يرد بذلك على الذين جاؤوا في قرون تالية لكي يخرجوه عن الرحم الذي تخلّق فيه، ويضعوه على غير إرادة منه في دائرة (الوضعية) هجينًا غريبًا[٢].

ثالثًا: الحركة التاريخية:

وضع ابن خلدون (مقدمته) في الأساس، وكما يؤكد في تمهيده لها أكثر من مرة [٣] لكي تكون أداةً أو معيارًا في التعامل مع الواقعة التاريخية. فهناك، في نسيج هذه الواقعة، ما يمكن قبوله والتسليم به، وما يستعصي على القبول والتسليم.. ما يمكن أن يُصدق، وما يخرج إلى دائرة الكذب والتلفيق.

وإذا كان المؤرخون قبله، في معظمهم، قد اكتفوا بأن يكونوا جمّاعين للرواية، أو المادة التاريخية، دونما أخذها بما يتطلبه من منهج يمحص ويعزل.. يقبل ويرفض.. يثبت وينفي.. كي لا يمر إلا ما هو متحقق في حركة التاريخ، أو مقارب للحقيقة في أقل تقدير، فإنه رأى أن قد آن الأوان لاعتماد منهج مرسوم لكي يصير النشاط التاريخي علمًا منضبطًا لا عواطف وتحزبات وأهواءً وميولًا.

ولقد قيل الكثير في هذه المسألة؛ ولذا سنجد أنفسنا مضطرين لتجاوزها صوب بعض التأشيرات التي تؤكد (إسلامية) هذا التوجه (العلمي) في التعامل مع

---

(١) المقدمة (٤/ ١٢٤٠ - ١٢٤٣).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٩٩١ - ٩٩٢، ٤/ ١٢٣٨ - ١٢٣٩)، ولمزيد من التفاصيل عن المعطيات التربوية لابن خلدون انظر بحث المؤلف المذكور آنفًا: الرؤية التربوية في مقدمة ابن خلدون، من كتاب (من أعلام التربية العربية الإسلامية)، (٤/ ١٢٣ - ١٤٩).

(٣) انظر: المقدمة (ص٣٤٩ - ٤٠٨).

التاريخ، واستمداده الكثير من الخصائص والمواصفات من البيئة التي انتمى إليها الرجل لا من أية بيئة أخرى. وهكذا ستكون النتائج التي توصل إليها ابن خلدون من خلال منهجه هذا متساوقة في نسيجها العام، وفي معظم مفرداتها، مع المنظور والمعطيات الإسلامية.

ابتداءً - وعلى سبيل المثال - يطرح ابن خلدون هذه المقولة الاستقرائية ذات التأثير البالغ في صميم الحركة التاريخية للجماعات والشعوب: إنه ما من دولة (كبيرة) إلَّا وأصلها الدين، « إما من نبوة أو دعوة حق »، والدول الكبيرة التي يسميها البعض بالإمبراطوريات ويسميها ابن خلدون (الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك) هي الدول الأكثر ثقلًا وتأثيرًا في حركة التاريخ، ليس فقط في مجرياته السياسية، بل في نموه الحضاري، وهذا هو الأهم.

كيف يفسر ابن خلدون ذلك؟ « أن المُلْكَ - يقول الرجل - إنما يحصل بالتغلُّب، والتغلّب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالب، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من اللّـه في إقامة دينه.

قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾[٤]، وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس ونشأ الخلاف، وإذا انصرفَتْ إلى الحق ورفضَتِ الدنيا والباطلَ وأقبلَتْ على اللّـه، اتحدتْ وجهتُها، فذهب التنافس وقلّ الخلاف وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة »[٥].

إنه يتحدث هنا عما يمكن تسميته بالمعامل العقائدي، ذلك الذي يشد طاقات الجماعة البشرية الواحدة التي تنتمي إلى عقيدة ما، ويوجهها صوب هدف واحد.. بؤرة واحدة، فتزداد قدرتها على الفعل التاريخي، تمامًا كما تزداد قدرة أشعة الشمس على الإحراق من خلال تجميعها بالعدسات اللامة. فالدولة الكبيرة - إذن - هي تعبير تاريخي عن قدرة أمة ما على الفعل الموحد الذي صاغته ووجهته صوب

---

(٤) سورة الأنفال: الآية ٦٣.
(٥) المقدمة (٣/ ٤٦٦).

هدفه الواحد، عقيدة حيوية آمن بها الجميع.

وبعكس هذا، فإن غياب الدين يعني تبعثر الفعل وتشتته صوب أهداف متغايرة متضاربة، ومن ثم تضاؤل دوره التاريخي. فليست الجماعة التي لا تربطها عقيدة بقادرة على أن تمتد في الزمان والمكان، وإذا حدث وإن امتدت فعلًا، فإن هذا يجيء استثناءً للقاعدة، ولا يحكم عليه، ومصيره أن يتلاشى لأول تحدٍّ يبرز له في الطريق، ولن يؤخذ يومًا بالاستثناء.

في الانتماء الديني ثمة حقيقة أخرى يشير إليها ابن خلدون تزيد فاعلية هذا الانتماء.. إنها رفض الانقياد للباطل والإقبال على اللّـه. وتلك هي حجر الزاوية في قدرة الإنسان الفرد والجماعة البشرية على التجرد الكامل في مواجهة التاريخ بأقصى قدر من التوتر والفاعلية والتناغم، وبأقل قدرٍ من الجذب والشد والإعاقة.. إن القرآن الكريم يصف المؤمنين مرارًا بأنهم: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾[1] فيكشف هاهنا البعد الزمني، البعد التاريخي، في حركة الإنسان المؤمن في العالم لتحقيق أكبر قدر ممكن من الإنجاز في أقل حيز ممكن.

وابن خلدون يختم مقولته تلك بهذه العبارة ذات الدلالة: « .. اتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة »، فالكلمة كما هو معروف لا تتحول إلى فعل تاريخي إلا بالإيمان الذي يحيلها إلى طاقة حركية تعبر عن نفسها من خلال الجماعة المؤمنة، وتكون نتيجة هذا التعبير: دولة عظيمة. وكذلك كانت دولة الإسلام الأولى في أعقاب الفتوحات التي اختزلت الزمن والمكان، وكذلك كانت الدول الكبرى في التاريخ.

وإذا كان ابن خلدون قد أكد مرارًا على مفهوم العصبية باعتباره أساسًا لقيام الدول، فإنه لم يغفل عن أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها، كما يقول في إحدى فصول الباب الثالث من مقدمته.. لماذا؟ وكيف؟ لأن السبب في ذلك: « إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساوٍ

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

عندهم، وهم مستميتون عليه. وأهل الدولة التي هم طالبوها، وإن كانوا أضعافهم، فأغراضهم متباينة بالباطل، وتخاذلهم إزاء الموت حاصل، فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه.

وهذا كما وقع للعرب في صدر الفتوحات الإسلامية.. واعتبر ذلك في دولتي المرابطين والموحدين، فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف عليهم، إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة، كما قلناه، فلم يقف لهم شيء ».

ويواصل ابن خلدون تحليله قائلًا: « واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت، كيف ينتقص الأمر، ويصير الغالب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين، فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم، بمضاعفةِ الدِّينِ لقوتها ولو كانوا أكثر عصبيةً منها وأشد بداوةً.. »[1].

إن ابن خلدون هنا (يحيِّد) العصبية في حالة دخول الدين في الصراع، فإذا ما غاب الدين كان للعصبية، كقوة عددية واجتماعية، أن تلعب دورها، إما مع الدين فتكون أشبه بأداة، أو عامل مساعد، وهذا الموقف خطير؛ لأنه رغم تأكيدات ابن خلدون المتكررة على العصبية، وإقامة أقسام واسعة من نظريته على قواعدها، فإنه هنا يفوّق الدين عليها ويجعله صاحب الفاعلية الأولى في الغلبة السياسية، والفعل التاريخي عمومًا.

فإذا ما استرجعنا الآن عبارته الدقيقة ذات الدلالة، والتي وردت في ثنايا مقولته، لم ندهش لتأكيد ابن خلدون على دور الدين، فهو الذي أدرك بعمق أبعاد هذا الدور: « إذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساوٍ عندهم، وهم مستميتون عليه ».

ومن ثم ينهار منطق الإعداد في الصراع التاريخي، ينهار حتى منطق الارتباط النسبي بالعصبية والقوة البدائية المجردة التي تنبثق عنه، لكي يحل محلها جميعًا

---

(١) المقدمة (٣/ ٤٦٧ - ٤٦٨).

(استبصار) ديني لموقف الإنسان في العالم وعلاقته باللّـه خالق الكون والحياة والإنسان. وعند ذاك يتحول الإنسان المؤمن إلى طاقة حركية متقدة لا يقف لها شيء، وهو مع الجماعة المؤمنة التي ينتمي إليها والتي وجهها الإيمان الديني والاستبصار صوب الهدف الواحد، تقلب المقاييس الظاهرية للصراع وتفعل المعجزات.

وبرجوع متبصر إلى واقعة الفتوحات الإسلامية، وإلى العديد من التجارب التي شهدها التاريخ الإسلامـي، يمكن أن نعثر على النمـوذج التطبيقي الذي أكد عليه ابن خلدون واستشهد به.

وبالمقابل « فإن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم » كما يؤكد الرجل في فصل آخر من الباب الثالث، ويسعى للتدليل عليه بحشد من الأدلة المنطقية والأحاديث الصحيحة والوقائع التاريخية: « إن كل أمر تَحْمِلُ عليه الكافة لا بد له من العصبية ».

وفي الحديث الصحيح: « **قال لوط:** ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ »، قال: « **قد كان يأوي إلى ركن شديد، ولكنه عنى عشيرته، فما بعث اللّـه نبيًّا إلَّا في مَنَعَـةٍ من قومه** »[1]، وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أوْلى الناس بخرق العوائد، فما ظنك بغيرهم؟ أَلَا تُخرق العادة في الغالب بغير العصبية؟ ».

إنه يشير إلى قدرة الأنبياء عليهم السلام على تجاوز التحديات التاريخية فوق العادة، كما حدث لكثير منهم، لكنهم مع ذلك يعملون في التاريخ في صياغة أبعاد جديدة مستمدة من معطيات الزمن والمكان، فلا بد لهم إذن من الإفادة من أسبابه الذاتية للانقلاب عليه. وحديث الرسول ﷺ هنا يبدو متساوقًا مع معطيات الحركة الإسلامية كلها، تلك التي جاءت لكي تنقلب على التاريخ من خلال التاريخ نفسه، على ضوء برنامج إلهي فوقي هو بمثابة دليل عمل أو (استبصار)، إذا اعتمدنا ابن خلدون، في هذا الانقلاب. ومن أجل مزيد من القناعة يقودنا الرجل إلى عديد من الشواهد التاريخية.

ولا ينسى ابن خلدون أن يطرح تحفُّظَـهُ الذكي وهو يتحـدث عن دعـوات

(١) مسند أحمد (١٠٩٠٣).

الأنبياء عليهم السلام.. أنـهم مؤيـدون من اللّـه سبحانه بالكون كله لو شاء، لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة(١). إن اللّـه سبحانه قادر؛ حيث لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، على حمل رسله بكلمته التي لا راد لها إلى آفاق الانتصار النهائي، لكن حكمته سبحانه، وعلمه المسبق بمصائر الدعوات، في الوقت نفسه، شاءت أن يتحرك رسله في قلب العالم، في صميم التاريخ، أن يعانوا من أثقاله وعوائقه، وأن يتجشموا وأتباعهم عناء أوهاقه، وألّا يبلغوا النصر النهائي إلّا باتخاذ الأسباب التي تمكّنهم من هذا الصراع القاسي الذي لا يرحم أحدًا ولا ينحني لأحد. وذلك هو ما يعنيه ابن خلدون « بمجرى الأمور على مستقر العادة »؛ أي سنن التاريخ ونواميس الكون.

ذلك إذن هو التقابـل الفعال في نظريـة ابن خلـدون: الدين والعصبية.. الرؤية أو الاستبصار الإيماني، والأداة التاريخية. إن العصبية بدون دين لا تحقق شيئًا كبيرًا، والدين بدون عصبية لا يتحرك وقتًا طويلًا.. لا بد من اقتران الجانبين. وإذا كانت رؤية ابن خلدون للعصبية محدودة في نطاق الروابط القبلية يومذاك، فإنها قد تنسحب في الفترات اللاحقة وفي العصر الحاضر على التنظيمات البشرية التي تعتمد القوة والعصبية الحزبية، وتحل فيها رابطة الولاء بدلًا من رابطة النسب.. والأمر سواء.

ولا يقف ابن خلدون عند هذا الحد، بل إن رؤيتَه الدينية لا تفارق منهجه في الاستقراء والتحليل، وهو يطرح مقولاته ويبرهن عليها في أبواب مقدمته الستة عن مسائل مختلفة تتعلق بصيرورة الواقعة التاريخية، ونشاط الجماعات البشرية وعوامل تكوينها ومؤثرات سلوكها التاريخي، مما لا يتسع المجال لاستعراضه وربما تكفي الإحالة عليه(٢).

بل إننا نلتقي في تمهيده للمقدمة بهذا المقطع: « اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة

(١،٢) المقدمة (٣/ ٤٦٨ - ٤٧٢).

الاقتداء في ذلك لِمَنْ يرومه في أحوال الدين والدنيا »[(١)]. فمنذ اللحظات الأولى يبرز جدوى علم التاريخ كأداة تستهدف خدمة الجماعات البشرية وترقية أحوالها دينًا ودنيا، بجعلها تتحرك على هذين المستويين معًا، وهي أكثر إدراكًا وأعمق تجربة بما يمنحه التاريخ إياها من قيم وتعاليم.

ومما يؤكد الرؤية الدينية الأصيلة عند ابن خلدون، وكونها مسألة أساسية في منهجه، ذلك الحشد من الاستشهادات المستمدة من كتاب اللّـه حينًا، وسنة رسوله ﷺ حينًا آخر، وأقوال ومعطيات صحابته الكرام ﷺ حينًا ثالثًا، والتي طالما اعتمدها لتعزيز وجهات نظره وجعل استدلالاته أكثر حجية وإقناعًا.

وللوهلة الأولى يبدو أن طريقة ابن خلدون هذه لا تعدو أن تكون مسألة تقليدية قد لا تعني شيئًا، لكن المتمعن في هذا التكرار المقصود، وفي النماذج التعبيرية التي ينتقيها الرجل، يتضح له أن الأمر أبعد من هذا.. وأبعد حتى من مجرد دلالته على عمق الإحساس الديني لدى ابن خلدون، فالرجل - فضلًا عن ذلك - يرى في حركة التاريخ، وقائع وسننًا، انعكاسًا لمشيئة اللّـه سبحانه وقدره في العالم.

وثمة أخيرًا مسألتان أساسيتان في نظرية ابن خلدون طالما أكد عليهما وعلى ارتباطهما الوثيق بصلب النظرية، وهما الترف وحتمية السقوط؛ إذ إننا لا نعتقد أنه كان بمعزل عن معطيات القرآن والسنة وهو يتحدث عن هاتين المسألتين اللتين كان لهما في المصدرين المذكورين مكان كبير[(٢)].

هذا على المستوى العام للحركة التاريخية، أما على مستوى التاريخ الإسلامي، على وجه الخصوص، فإن ابن خلدون يمضي بالمنهج نفسه، بالروح العلمية المنضبطة برؤيته الإسلامية والمستمدة من حقائقها ومفرداتها، لكي يناقش ويحلل مسائل شتى تتميز بأهميتها وحساسيتها. وهو هاهنا يؤكد موقفه الديني من خلال تفسيراته الملتزمة لعديد من وقائع تاريخنا الإسلامي، وهو الساحة التي انصبت

---

(١) انظر: المقدمة (١/ ٤٨٦، ٢/ ٤١٤ - ٤١٨، ٤١٩ - ٤٢١، ٤٣١، ٤/ ٨٤٠ - ٨٥٥، ٥/ ٨٩٣ - ٨٩٦).

(٢) المقدمة (ص١٦٢).

جل اختباراته عليها، والتي مارس فيها معظم جوانب استقرائه الذي قاده إلى صياغة قوانينه العديدة التي ضمنها مقدمته.

وابن خلدون في هذا الاتجاه يمارس تحليلًا للتاريخ الإسلامي، أو بالأحرى لجوانب من التاريخ الإسلامي، يلقي المزيد من الأضواء على خصائصه وصيرورته وفق معايير منهجية تنحت مفرداتها وأدواتها من معطيات هذا التاريخ وليس من أية بيئة أخرى، كما توهم بعض المفكرين والباحثين ممن ألمحنا إلى بعضهم في بداية هذه الصفحات[1].

الخاتمة:

إنه لأمر طبيعي لا يحتاج إلى برهان، أن تنطوي (مقدمة) ابن خلدون في سياقاتها الأساسية على جملة من المفاهيم الإسلامية تنضفر لكي تعكس، في بدء التحليل ونهايته، رؤية إسلامية. ذلك أن ابن خلدون هو ابن البيئة الإسلامية، تَشَكَّلَ في رحمها، وخَبرَ - وهو رجل الفقه والقضاء - مرتكزاتِها في كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، وما انبثق عنهما من موروث فقهي وكلامي. ويكفي أن نرجع إلى المقدمة بأبوابها الستة لكي يتبين لنا هذا بوضوح.

وللوهلة الأولى يبدو للذين يمرون على مقدمة ابن خلدون مسرعين، أو وهم يحملون تصميمًا ذهنيًّا مسبقًا على إخضاعها لتصوّرهم، أن حديث ابن خلدون عن دور الدين في المسائل التي عالجها، إنما هي مسألة عرضية تأتي متقطعة مقحمة هنا وهناك، إلَّا أن النظرة المتجردة، المتمعنة في معطيات ابن خلدون ومنهجه تقودنا لشيء نقيض لهذا تمامًا: إن أطروحاته عن الدين إنما هي جزء أساسي من رؤيته الشاملة للحركة التاريخية والعملية التربوية والنشاط المعرفي، وأنه يعود إليه من الزوايا كافة، وعبر مختلف الاتجاهات، من أجل أن يستكمل بنية تفسيره للظواهر كافة، والتي إن كان قد حدثنا عن أبعادها العقلية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والسياسية والإدارية، فإنه ولا ريب أفسَحَ مجالًا واسعًا للبعد الديني.

ويجب أن نلاحظ أن معطيات ابن خلدون ليست أفكارًا مسطحة ذات وجه

(١) انظر بالتفصيل: عماد الدين خليل: ابن خلدون إسلاميًّا (ص٥٨ - ٧٢).

واحد، إنما هي تمتاز بطبيعتها التركيبية، فما يقدر أحد - مثلًا - على تبين دور العصبية في بناء الدول دون تبيّن دور الدين، وبالعكس.. إن الرجل يرفض التفسير (الواحدي) للتاريخ، التفسير الذي يتشنج على عامل واحد فحسب، يسعى من خلاله لاحتواء الوقائع التاريخية كافة، وينفي سائر العوامل الأخرى، كما فعلت وتفعل اليوم الكثير من المذاهب الوضعية في تفسير التاريخ.

إن ابن خلدون يختار الطريق الآخر: الرؤية الشمولية للتاريخ.. وتلك - بحق - ميزة من أهم ميزات مقدمته، إنه يسلط الأضواء على الأسباب والدوافع كافة، تلك التي تلعب دورها بشكل أو آخر في بنية وصيرورة الواقعة التاريخية.. إنه يقلب هذه الواقعة ليشاهدها عن كثب من مختلف الزوايا؛ ولهذا نجده يعالج الموضوع الواحد - أحيانًا - أكثر من مرة، ويعود إليه في أكثر من فصل أو باب. وهذا أمر طبيعي يتساوق مع ضرورات منهجه الشمولي المركب الذي يرفض الرؤية الواحدية والتسطيح.. والحالة نفسها تتكرر عبر تعامله مع « المعرفة » والنشاط « التربوي ».

ولقد تبيّن - من خلال هذا البحث الموجز - أن المقدمة تعكس - بالفعل - وعبر الكثير من أطروحاتها تصوّرًا إسلاميًّا أصيلًا، سواء في التعامل مع الواقعة التاريخية على إطلاقها، أو مع صيرورة التاريخ الإسلامي نفسه، فضلًا عن استنتاجاته الخصبة وهو يتعامل مع النشاط المعرفي، أو العملية التربوية.

وتظل مسألة الارتباط هذه بين التصوّر ومعطيات المقدمة مشروعًا مفتوحًا لتقديم المزيد من التأكيدات على أيدي المؤرخين والفلاسفة وعلماء التربية.. فالحق أن ابن خلدون قَدَرَ على أن يؤسس لمدرسةٍ فكريةٍ دَخَلَهَا الكثير من الباحثين وهي لا تزال تنتظر المزيد.

* * *
* *
*

ابن خلدون وإشكالية الفلسفة

تمهيد:

لا يزال الخطاب الفلسفي الإسلامي في معطياته التراثية، بحاجة إلى المزيد من القراءات لتحديد مساحات الإيجاب والسلب فيه، ولتبيّن أبعاد دوره في النهوض أو التراجع الحضاري للأمة، ولتفحص عناصر الإبداع والاتباع في حلقاته كافة.

ومعروف أن المعطى الفلسفي اليوناني مارس ضغطًا متواصلًا على العقل المسلم، لم يقدّر لكثيرين من المشتغلين بالفلسفة الإسلامية، في مرحلتي النقل (الترجمة) والإنشاء، الفكاك من إساره. ولكن هذا لم يمنع من وقفة هنا أو نقد هناك، وربما رفض أو إضافة في مكان آخر، عبر التعامل مع هذا الموروث الذي وجد الأبواب أمامه مشرعةً على مصراعيها لدخول الساحة الإسلامية، بتوجيه وإسناد السلطة حينًا، وبجهد مستقل للمشتغلين بالفلسفة من المسلمين أنفسهم تارةً أخرى.

إن الكندي والفارابي وابن سينا، وغيرهم ممن كان تأثرهم واضحًا بالفلسفة اليونانية إلى الحدّ الذي يصير فيه بعضهم مجرد (ناقل) أمين لمقولات هذه الفلسفة، ويصير أحدهم - وهو الفارابي - معلمًا ثانيًا لأساطينها، وتصير فئة ثالثة (شارحةً) لهذه الفلسفة.. هؤلاء يقابلهم مَنْ رَفَضَ الاستسلام لضغوط الفلسفة اليونانية ومعطياتها، وأدانها، ووجه نقده الحادّ للمشتغلين بها، وربما دفعه ردّ الفعل إلى إنكارها وإعلان الحرب عليها.

وثمة فئة ثالثة وقفت موقفًا وسطًا فأخذت من الفلسفة اليونانية وأعطتها، قبلت جوانب منها، ونقدت وفنّدت ورفضت جوانب أخرى.. لم تكتف بالنقل عن الآخر، وإنما أضافت عليه وأغنته بالمزيد من الكشوف والمفردات.

وإذا كان الغزالي، بسببٍ من نزوعه الصوفي وكتابه (تهافت الفلاسفة) قد أخذ مكانةً واسعةً على خارطة الصراع بين الطرفين، واعتبره بعض غلاة المعاصرين نقيضًا لعقلانية ابن رشد، فإن ابن خلدون الذي يتفق (الغلاة) وغير الغلاة على

(عقلانيته) المعروفة في (المقدمة)، وقف الموقف نفسه، وأدان المشتغلين بالفلسفة وأعلن عن بطلان منتحليها.

وقد يبدو هذا الموقف في ظاهره متناقضًا بإحالته على الخط العقلاني لابن خلدون، كما أنه يبدو متناقضًا من ناحية كون ابن خلدون من المشتغلين بالفلسفة، أو بشكل أدق بفرع من الفلسفة، بل إنه المؤسس له باتفاق دارسي ابن خلدون كافة، أَلَا هو فلسفة العمران، أو الاجتماع البشري، أو - بالتعبير الحديث - فلسفة التاريخ.

سيتضح عبر هذا البحث أن الأمر في الحالتين لا ينطوي على أي تناقض.. فالهجوم على صنف من الفلسفة، وليس مطلق الفلسفة كأداة عمل عقلي في الظواهر والموجودات والأشياء، لا يرتطم بالعقلانية، بل على العكس، قد يكون تأكيدًا لدور العقل فيما هو من دائرة اختصاصه، وتجنيبًا له عن الهدر والابتزاز فيما هو خارج دائرة قدراته الذاتية على الكشف والإدراك.

كما أن الهجوم على صنف من الفلسفة لا يعفي القائلين به من اشتغالهم بفروع الفلسفة الأخرى التي هيّأت عقولهم للاشتغال بها، والوصول - بالتالي - إلى نتائجَ أكثرَ دقةً ومصداقيةً.

إضاءات ضرورية:

لعل من بين العوامل العديدة التي ساقت حضارتنا الإسلامية إلى الانكماش والشلل أن أصحابها أهدروا الكثير من طاقاتهم في البحث عما وراء المنظور: عالم الغيب الذي هو من اختصاص الوحي الذي يتنزل بالنبوات لكي يمنح الإنسان الإضاءات الضرورية عن عوالم لم يهيّأ للعقل البشري إدراك ماهياتها والعبور إلى شطآنها.. قفزةً غير مبرّرة من الفيزيقا إلى الميتافيزيقا التي بذل معظم الفلاسفة جهودهم للإلمام بأبعادها.. وفوق أن هذا الجهد لم يأت بطائل، بنتائج محددة تحديدًا علميًّا برهانيًّا قاطعًا، **فإنه قاد إلى خطيئتين كانتا من بين أسباب نكوصنا الحضاري:**

فأما **أولاهما**: فهي هدر الطاقات العقلية فيما هو ليس من اختصاصها والانسحاب

شيئًا فشيئًا من توظيف هذه الطاقات في الكشف عن فيزياء العالم والكون القريب، والتنقيب عن طاقاتهما المذخورة، ووضع اليد على السنن والنواميس التي تسير بها السماوات والأرض، وتوظيف ذلك كله للتحقق بالقوة، وتيسير شؤون الحياة في مناحيها كافة تنفيذًا لمنطوق الآية الكريمة: ﴿ .. وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[(١)].

وأما **ثانيتهما**: فهي أن الإلحاح الميتافيزيقي هذا قاد بالضرورة إلى عرض وتبني منظومات من الأفكار والعقائد الظنية التي كانت وراء السبب في ظهور (الفِرقية) في تاريخ المسلمين، وتشظية الأمة إلى ما سبق وأن حذّر منه رسول اللّه ﷺ من أنها ستفترق إلى بضع وسبعين فرقة، وهو تحذير ينطوي على بعده الحضاري الإيجابي لمَنْ كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

هذا العبور غير المبرر من الفيزيقا إلى الميتافيزيقا، هو نوع من الإغواء الذي مارسته الفلسفة اليونانية إزاء العقل المسلم، وهو في جوهره إبحار ضد مقولات القرآن والسنة، من حيث إنهما يحملان خطابًا واضحًا منبثًا في شرايين كتاب اللّه وأحاديث رسوله ﷺ حول أن على المسلمين في هذا العالم أن يُعمِلوا عقولهم وحواسهم في (الكتلة) التي سُخرت لهم ابتداءً والتي استُخلِفوا عليها من أجل إعمارها، وذلك من خلال الإمساك جيدًا بفيزياء العالم وامتلاك شروط السيادة الحضارية على الأرض.

ولا يخفى على أحد حقيقة أن تأكيد القرآن في عشرات المواضع ومئاتها، على ضرورة إعمال العقل والحواس في الكتلة، من أجل توظيف الطاقات، والمنافع التي سُخرت للإنسان ابتداءً.. يقابل ذلك إشارة واحدة.. واحدة فقط عن (الروح) التي هي من أمر اللّه، والتي لا يكاد الإنسان يفقه كنهَها، أو يعلم عنها شيئًا: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[(٢)].

إن هذا التوزيع المقصود، بعدم تكافؤه، لهو دليل عمل أريد للمسلم في هذا

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٥. (٢) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

العالم أن يتبناه إذا أراد فعلًا أن يكون سيدًا على العالمين، وأن تكون أمته هي الأمة الوسط التي تشهد على البشرية وتقودها، ويكون الرسول شاهدًا عليها، تنفيذًا لمنطوق الآية الكريمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴾[1].

ولقد سبق لرسول اللّـه ﷺ أن قال محذرًا المسلمين من الانزلاق بعيدًا عن المعادلة الحضارية المحسوبة: « **تفكروا في آلاء اللّـه، ولا تفكروا في اللّـه** »[2]؛ إنه - هاهنا - يدعونا للتفكير في الخلق الذي يقود إلى العلم والتكنولوجيا، بموازاة تأكيد إبداعية اللّـه في العالم، والإيمان بوحدانيته ﷻ. ويحذرنا من التفكير في الذات الإلهية التي تعلو على الأفهام، وتستعصي على القدرات البشرية، وهو التفكير الذي يقود إلى الماورائيات والتعامل التجريدي مع « واجب الوجود » و « متناهي الأول » والميتافيزيقا، وما يتمخض عن هذا كله من هَدْرٍ للطاقة العقلية.

إنه يريدنا أن نتعامل مع الكتلة الكونية، وأن نكشف عن قوانينها لتنمية الحياة التي سُخرت إمكاناتها للإنسان من أجل التحقق باستخلافه العمراني في العالم، بدلًا من هدر الطاقة فيما هو خارج عن حدودها وإمكاناتها وضرورات صيرورتها الحضارية في الأرض.

إذن فإن ابن خلدون لا يناقض نفسه عندما يخصص مساحات واسعة من (مقدمته) لفلسفة التاريخ، وعندما يهاجم في الوقت نفسه (الفلسفة) ويعلن عن فساد منتحليها. ولنتابع - بالإيجاز المطلوب - المسألة في وجهيها معًا، وبما أن الوجه الأول قد كُتب فيه الكثير، فلنا أن نكتفي بمتابعة معطياته الأساسية في المقدمة لكي ننتقل بعد ذلك إلى الوجه الآخر: موقف ابن خلدون من (الفلسفة).

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٢) رواه ابن عمر مرفوعًا، كما رواه بلفظ آخر كل من أبي نعيم الأصفهاني في الحلية، وإسماعيل ابن محمد بن الفضل الأصبهاني في الترغيب والترهيب، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان، والديلمي في الفردوس. ورغم ضعف الأسانيد فإن اجتماعها يُكْسِبُ الحديثَ قوةً، ومعناه صحيح.

مع الفلسفة:

لم يكن قد عُرف لعلم العمران، وسنن التحضر، وقوانين الحركة التاريخية حتى عصر ابن خلدون « فلسفة » ترتبط بها، فيقال - مثلًا -: فلسفة التاريخ، أو فلسفة الحضارة، أو فلسفة العمران البشري، إنما هو فرع جديد مستحدث من نتاج القرنين التاسع عشر والعشرين؛ حيث ظهر كبار فلاسفة التاريخ والاجتماع، بدءًا من أوغست كونت وانتهاءً بأرنولد توينبي، مرورًا بهيغل وماركس وإنغلز وفيكو وكروتشه واشبنغلر وشفيتزر.. وغيرهم.

ونحن لا نستطيع أن نحكم البعديات بالمعطيات القبلية فنرغم ابن خلدون على أن يُسمي نفسه فيلسوفًا للتاريخ أو الحضارة، رغم أنه في الواقع كان كذلك.. وعلى ذلك فإن مهاجمته للفلسفة، وبعبارة أدق لفرعها المعني بالميتافيزيقا، لا تمثل أي تناقض مع اشتغاله بالفلسفة في سياق التاريخ والحضارة (العمران) والاجتماع، فالتسميات قد لا تعني شيئًا إزاء المعطى المعرفي الذي تنطوي عليه.

هناك أكثر من إشكالية بخصوص اعتبار ابن خلدون أول مكتشف لقوانين الحركة التاريخية، وأول مشتغل - بالتالي - بما يسمى اليوم فلسفة التاريخ. وتتمثل هذه الإشكالية في سياقين، يقوم **أولهما** على أن القرآن الكريم، وبقوة العلم الإلهي وإحاطته ونفاذه، سبق ابن خلدون بثمانية قرون.

ولا يخفى على أحد أن النصّ القرآني أولى الظاهرة التاريخية اهتمامًا بالغًا، وخصّص لها مساحة كبيرة وفق أبعاد تتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصي (الواقعي) لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات والدول والحضارات عبر الزمان والمكان، مرورًا بمواقف الإنسان المتغيرة من الطبيعة والعالم، وبالصيغ الحضارية التي لا حصر لها والتي تتأرجح بين البساطة والنضج والتركيب.

وتبلغ هذه المسألة حدًّا من الثقل والاتساع في القرآن الكريم بحيث إن جلّ سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية، أو إشارة سريعة لحدث ما، أو تأكيد

على قانون أو سنة تتشكل بموجبهما حركة التاريخ[١].

والقرآن الكريم يقدم أصول (منهج) متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية - التاريخية، كما فعل ابن خلدون - فيما بعد - فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ الذين ما تلقوا إشارته تلك وبنوا عليها إلّا بعد انقضاء قرون عديدة. وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم السابقة، وعلى وجود (سنن) و (نواميس) تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وانتقالها من حال إلى حال[٢].

وعلى التأثير المؤكد لأصول المعطيات الإسلامية، قرآنًا وسنة، في فكر ابن خلدون (فيما سبق وأن ناقشناه في كتاب: ابن خلدون إسلاميًّا)[٣]، وفي المحاضرة التي يتضمنها هذا الكتاب بعنوان (في الفكر الخلدوني والتصوّر الإسلامي)، فإننا لا نكاد نعثر على إشارة مباشرة (وأشدّد على الكلمة) يُعلن فيها ابن خلدون (السبق) القرآني في مسألة الكشف عن قوانين الحركة التاريخية، ويجب أن نتذكر - إنصافًا للرجل - أنه لم تكن قد تشكلت حتى عصره تفاسير شمولية للقرآن الكريم تتيح للباحثين الاستمداد الأكثر موضوعية وامتدادًا من كتاب اللّـه. وما من شك في أن المعطيات العلمية والمنهجية للقرنين الأخيرين، أطلعتنا - كأدوات - على أبعاد في القرآن ما كانت الأجيال السابقة قد اطلعت عليها، وذلك مصداق الآيتين الكريمتين: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٤]، ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ.. ﴾[٥].

(١) للمزيد من التفصيل يُنظر: عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ط ٤، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٨٣م)، (ص٥ - ١٧).
(٢) المرجع السابق.
(٣) الطبعة الثانية، دار ابن كثير، دمشق (٢٠٠٥م).
(٤) سورة فصلت: الآية ٥٣.
(٥) سورة يونس: الآية ٣٩.

أما السياق الآخر للإشكالية فهو أن فكر ابن خلدون في المقدمة لم يتخلّق فجأة من الفراغ، وأنه قد سُبق، بكل تأكيد، ببعض الكشوف التي جاء هو - فيما بعد - فعمّقها ووسع نطاقها، وأضاف إليها الكثير.. وإنه لمن المستحيل أن نتصوّر ابن خلدون وكأنه حالة استثنائية في حضارة قدّمت الكثير، وأنه لم يتأثر مطلقًا بمن سبقوه، خاصةً إذا تذكرنا البيئة الزمنية والمكانية التي اشتغل فيها؛ حيث كان الجهد الحضاري الذي انطفأ في بغداد بسبب الغزو المغولي، قد انسحب غربًا باتجاه الشام والجزيرة الفراتية وفلسطين ومصر والشمال الإفريقي والأندلس، لكي ما يلبث أن يزدهر هناك ويؤتي ثماره، ويخرج على الناس بأساطين البحث والفكر والثقافة الإسلامية في مجالات معرفية شتى قدمت للمكتبة الإسلامية عطاءً في غاية الخصب والابتكار، ولا ننسى هنا رجالًا كالمقريزي وابن تغري بردي والسيوطي والسخاوي وابن تيمية وابن القيم والنويري والقلقشندي والعمري والمقدسي وابن الرزاز الجزري، وغيرهم كثيرون.

فابن خلدون - في ضوء هذه الحقائق - لم يكن حالة شاذة أو استثنائية، اللّهم إلّا بقدر إضافاته النوعية المتميزة والمبتكرة لجلّ الفروع المعرفية التي اشتغل بها وبخاصة قوانين العمران؛ أي فلسفة التاريخ.

وعلى مدى التصنيف في حقل التاريخ، ومنذ بدايات مبكرة، نلتقي بإيماضات هنا وهناك، قدمت - بالتأكيد - بعض الإضاءات الكاشفة في سياق قوانين الحركة التاريخية، والتي يمكن أن يكون ابن خلدون قد أفاد منها وبنى عليها، ومضى بها خطوات واسعة جدًّا إلى الأمام، ويمكن أن نشير هنا إلى المسعودي وابن مسكويه والماوردي والطرطوشي وابن حزم ونظام الملك وابن الجوزي وابن الأثير وابن تيمية وابن الطقطقي، والمؤلفين الموسوعيين كالنويري والعمري، والرحالة، والجغرافيين كابن جبير وابن بطوطة والإصطخري والمقدسي والتطيلي وابن حوقل وابن خرداذبة والظاهري وأبي الفدا وابن الفقيه والقزويني والمرُّوزي وياقوت الحموي.. وكتب تاريخ الأدب وبخاصة الجاحظ والأبشيهي وابن عبد ربه.. وغيرهم.

والآن.. فإننا لو جئنا إلى المقدمة باعتبارها عملًا في فلسفة التاريخ، لإعطاء

صورة شاملة عن تركيب هذه المقدمة وارتباطاتها المنهجية، فإننا سنرى كيف أن ابن خلدون، بعد تقديم يستعرض فيه أسباب كتابته للمقدمة بقدر تعلّق الأمر بإعادة قراءة التاريخ في ضوء قوانين العمران أو الحضارة، لتخليصه من المزيّف والكاذب والدخيل، يفرش رؤيته للتاريخ البشري وقوانينه التي استخلصها عبر استقراء مساحات واسعة منه، ينصبّ معظمها على التاريخ الإسلامي، في ستة أبواب، يتضمن كل واحد منها عددًا يزيد أو ينقص من النظريات التي يسعى للبرهان عليها لكي تغدو قوانين مسلّمة، وهو يسمي كل واحدة من هذه النظريات بالمقدمة أو الفصل، والبرهان الذي يعتمده هنا يستمدّ وقائعه وقرائنه من تاريخ المجتمعات البشرية نفسها حينًا، ومن معطيات وكشوف العلوم المختلفة حينًا آخر، ومن بداهات المنطق ومواضعاته حينًا ثالثًا.

يتحدث في **الباب الأول** الذي يسميه (في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض) عن حتمية الاجتماع البشري، وجغرافية العالم، وتأثيرات التغاير الجغرافي على سيكولوجية المجتمعات البشرية وتكوينها الجسدي ونشاطها الحضاري. فكأنه هاهنا يمهد الأرضية التي تتحرك عليها الجماعات البشرية من طور بداوتها الأولى حتى تألّقها الحضاري ثم أفولها لكي يرصد هذه الحركة التاريخية عبر الأبواب الخمسة التالية.

لكن ما يؤخذ على الرجل في هذا الباب أنه يُسرف في وصف جغرافية العالم مستمدًّا إياه من عدد من المصادر المتوفرة، دون أن يكون له فيه دور شخصي يذكر، اللّهم إلّا دور التجميع والتنسيق والإضافات والتعليقات البسيطة هنا وهناك. وهذا العمل الوصفي الذي يتكئ على المصادر المتوفرة فيما يسميه المؤرخون المعاصرون عملًا استعراضيًّا أو استطراديًّا، لا يكاد يقارن بالجوانب الأصيلة في مقدمة ابن خلدون، تلك التي طرح فيها قوانينه العميقة وسعى للتدليل عليها، فعبّر عن قدرة فذّة على المقارنة والتحليل والاستنتاج، فضلًا عن الابتكار الذي يكاد يكون سمة الرجل الأولى.. ولسوف نلتقي بمساحات واسعة أخرى من عروضه الاستطرادية (التجميعية) منبثة في حنايا أبوابه الأخرى، وبخاصة البابان الثالث

والسادس، والباب الخامس إلى حدٍّ ما.

وثمة نقطة أخرى تؤخذ على الرجل في بابه الأول هذا، إنه يخرج عن سياق الموضوع الذي يعالجه هذا الباب، لكي يتحدث في عشرات الصفحات عن قضايا ومسائل تتعلق بالغيب والوحي والرؤيا.. إلخ مما هو أجدر بأن يوضع في الباب السادس لدى حديثه عن مسائل تتعلق بالتصوف والجوانب الإلهية وما وراء الطبيعة.. إلخ.

وفي **الباب الثاني** الذي يرد تحت عنوان (في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال)، نلتقي بالبداية الحقيقية لمنهجه في تصور الحركة التاريخية للمجتمعات البشرية، فهو هنا يبدأ مع هذه المجتمعات في مراحلها البدائية الأولى قبل أن تنتقل - في حالة توفر الشروط الأساسية - إلى الطور الحضاري، ويطرح مجموعة قيمة من الآراء والقوانين المستَمَدة من استقرائه العميق لتاريخ المجتمعات البدوية من مثل: (أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها)، و (أن البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر)، و (أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر)، و (أنّ سكنى البدو لا يكون إلّا للقبائل أهل العصبية)، و (أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه)، و (أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومَنْ في معناهم)، و (أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية)، و (أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم)، و (أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم)، و (أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء)، و (أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها)، و (أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك)، و (أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم)، أو (حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم)، و (أنه إذا كانت الأمم وحشية كان ملكها أوسع)، و (أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد له من عودته إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية)، و (أن المغلوب مولع أبدًا

باقتداء الغالب)، و (أن الأمة إذا غُلِبت فصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء).

ويتحدث في فصول أخرى عن العرب، مما كان ولا يزال مثار مناقشات عديدة عرضنا لها في كتاب (ابن خلدون إسلاميًّا)، ط٢، ص ٧٩-٨٥. فهو يقول - مثلًا -: (إن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط)، وأنهم (إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب)، وأنهم (أبعد الأمم عن سياسة الملك). ولا ينسى أن يشير إلى دور الدين في حياة العرب، فيرى أنهم (لا يحصل لهم الملك إلَّا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة).

ينتقل ابن خلدون في **الباب الثالث** خطوةً أخرى، وهو يعاين صيرورة المجتمعات البشرية، فيصل بنا إلى مرحلة (الدولة)، فيحدثنا في بابه هذا الذي يرد تحت عنوان (في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال)، كيف تسعى المجتمعات البشرية، إذا ما استكملت الشروط والمستلزمات، إلى أن تنشئ دولًا خاصةً بها، والظروف التاريخية التي تجتازها تلك الدول، والقوانين التي تتحكم بها وتسوقها في نهاية الأمر صوب الانحلال والفناء، فيما يذكرنا بنظرية التفسير الدوري للتاريخ التي طرحها الفيلسوف الألماني (أُزوالد شبينغلر) في كتابه (تدهور الحضارة الغربية) وبنى عليها (أرنولد توينبي) بعض جوانب دراسته الشهيرة للتاريخ، وتأثر الأخير وإعجابه بمقدرة ابن خلدون مسألة معروفة.

يحدثنا ابن خلدون في هذا الباب كيف (أن الملك والدول العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية)، و (أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)، و (أن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين؛ إما من نبوة أو دعوة حق)، و (أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوةً على قوة العصبية التي كانت لها من عددها)، و (أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم)، و (أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها)، و (أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة)، و (أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلَّ أن تستحكم فيها دولة)، وأن (من طبيعة الملك الترف)

والميل إلى (الدعة والسكون)، و (أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهِرم)، و (أن الدولة لها أعمار طبيعية كالأشخاص)، وهو يذكرنا هنا بدورية شبينغلر مرة أخرى، و (أن الترف يزيد الدولة في أولها قوةً إلى قوتها)، و (أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها)، و (أن إرهاف الحدّ مضرّ بالملك ومفسد له في الأكثر)، و (أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية)، و (أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة)، و (أن الظلم مؤذن بخراب العمران)، و (أن الهِرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع)، وكيف يتسع نطاق الدولة أولًا ويمضي إلى غايته ثم يتضايق طورًا بعد طور إلى (فناء الدولة واضمحلالها)، و (أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة).. وغير ذلك من المسائل.

وابن خلدون يفرد في هذا الباب مساحات واسعة جدًّا، تزيد على المائة والخمسين صفحة، لطرح مسائل استطرادية وصفية، كما سبق وأن أشرنا، ترتبط ولا ريب بمسألة الدولة التي هي موضوع هذا الباب، وهي مؤسسة الخلافة والمؤسسات والنظم التي ترتبط بها وتليها في السلم الإداري، وغيرها من المسائل المرتبطة بها من قريب أو بعيد.

ويكاد يكون **الباب الرابع** الذي يرد تحت عنوان (في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال)، استمرارًا طبيعيًّا للباب الثالث؛ لأنه يتحدث هنا عن (المدينة) كمركز حضاري تعتمده الجماعة البشرية في أعقاب مغادرتها البداوة وتحولها إلى الحضارة وإنشائها دولًا خاصة بها، وعن طبيعة العلاقة بين المدينة والدولة، وعن الظروف التاريخية والقوانين التي تتحكم في نشأة المدن ونموها ثم تدهورها وانحلالها.

ويتألق ابن خلدون في هذا الباب، كما تألق في غيره من الأبواب، بكثرة تحليلاته وعمق استنتاجاته وغزارتها، فهو يحدثنا - على سبيل المثال - كيف (أن الدول أقدم من المدن والأمصار، وأنها إنما توجد ثانية عن الملك)، وكيف (أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار)، و (أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يشيدها

المُلك الكثير)، و (أن الهياكل - أو المؤسسات - العظيمة جدًّا لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة)، و (فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة).. ويحدثنا في فصلين متعاقبين عن جوانب السلب في نشاط العرب المسلمين الحضاري، مما ناقشناه في مجال آخر[1]، فيرى (أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول)، و (أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب، إلَّا في الأقل).

ويعود لكي يواصل حديثه عن جغرافية الأمصار فيحدثنا عن (مبادئ الخراب في الأمصار)، و (أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه لأهلها، ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة)، و (أن الأقطار في اختلاف أحوالها في الرفه والفقر مثل الأمصار)، و (أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها)، و (أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده)، و (أن الأمصار التي تكون كراسي - أي قواعد - للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها)، وكيف أن بعض الأمصار تختص (ببعض الصنائع دون بعض).. وغير ذلك من المسائل.

أما **الباب الخامس** الذي يرد بعنوان (في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال)، فيتحدث فيه - كما هو واضح - عن النشاط الاقتصادي للجماعات البشرية، ويطرح من القوانين والآراء بصدد القيمة والمنفعة والعرض والطلب والعلاقة المتبادلة بين السلطة والكسب، ما أثار دهشة وإعجاب الكثير من الدارسين المعاصرين والغزير من دراساتهم. فهو يتحدث - مثلًا - عن (حقيقة الرزق والكسب وشرحهما، وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية)، وعن (وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه)، و (أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي)، وكذلك (ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز)، و (أن الجاه مفيد للمال)، و (أن السعادة والكسب إنما يحصل غالبًا لأهل الخضوع والتملق)، و (أن هذا الخلق من أسباب السعادة)، و (أن القائمين

(١) يُنظر: عماد الدين خليل: ابن خلدون إسلاميًّا (٢/ ٧٩- ٨٥).

بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس.. لا تعظم ثروتهم في الغالب)، و (أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو)، كما تحدث عن (التجارة ومذاهبها وأصنافها)، و (أي أصناف الناس يحترف التجارة وأيهم ينبغي له اجتناب حرفها)، و (أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك).

ويتحدث - كذلك - عن (نقل السلع) و (الاحتكار)، و (أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخيص)، و (أن الصنائع لا بد لها من المعلم)، وأنها (إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته)، و (أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها)، و (أن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبها)، و (أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع). ولا ينسى أن يشير إلى موقف العرب من الصنائع فيرى أنهم أبعد الناس عنها، مما ناقشناه في مكان آخر[1]. ثم ما يلبث أن يختم هذا الباب باستعراض عدد من الصنائع والمهن المعروفة في عصره.

فإذا ما انتهى بنا المطاف إلى **الباب السادس**، الذي يرد تحت عنوان (في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال)، تبين لنا أن الرجل يريد أن يخصص لقضية المعرفة والتعلم لدى الجماعات البشرية بابًا، كما خصص لأنشطتها الاقتصادية بابًا. وهو يطرح - هاهنا - عددًا من المسائل المهمة المتعلقة بنظرية المعرفة وطرائق التربية والتعليم، أثارت هي الأخرى إعجاب الباحثين المعاصرين ودفعت الكثيرين منهم لدراستها وتحليلها.. من مثل: (في الفكر الإنساني)، و (أن عالم الحوادث الفعلية إنما يتم بالفكر)، و (في العقل التجريبي وكيفية حدوثه)، (في علوم البشر وعلوم الملائكة)، (في علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)، (في أن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب)، (في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري)، (في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع)، (في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة)، (في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل)، (في أن كثرة الاختصارات

---

(١) عماد الدين خليل: ابن خلدون إسلاميًا (٢/ ٧٩ - ٨٥).

المؤلَّفة في العلوم مخلةٌ بالتعليم)، (في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريقة إفادته)، (في أن العلوم الآلية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع المسائل)، (في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه) (في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم)، (في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم)، (في أن العلماء من بني البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها)، (في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم)..

وعبر هذه الآراء والقوانين يستعرض ابن خلدون، في مساحات واسعة من هذا الباب، معظم العلوم السائدة في عصره، نقلية وعقلية كما يحب أن يصنفها.

ضد الفلسفة:

وإذا كان ابن خلدون في الصفحات السابقة يقف في صف الفلسفة، بِغَضِّ النظر عن التسمية المعلنة أو المباشرة لموقفه، فإنه في أماكن أخرى من (المقدمة) يقف ضد الفلسفة!! فلنرجع إلى معطياته بهذا الخصوص للتأكيد - مرةً أخرى - على أنه ليس ثمة من تناقض في موقفه هذا.

إن الرجل يطرح موقفه تحت عنوان (**فصل في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها**)، وهو يرد في الباب السادس من مقدمته الذي يتناول فيه (العلوم وأصنافها)[(١)]؛ حيث يقوده تحليله العميق إلى القول بتعارض الفلسفة والدين، وهو موقف إسلامي ذكي مقنع يصدر عن فهم دقيق للعلاقات المتبادلة بين العقل والشرع، وبين العقل والعالم.. لولا أن ابن خلدون أخطأ العنوان، أو أن العنوان أخطأ الرجلَ، فجاء بهذه الصيغة التعميمية، و (التعميم) هو إحدى ثغرات المقدمة ولا ريب.

وقد أوردنا مسبقًا رأينا في مسألة إبطال ابن خلدون للفلسفة ما بالعنوان الذي ذكره من تعميمية، واتهامه لبعضهم بأنهم ظلال لأسلافهم اليونان[(٢)].

يبدأ ابن خلدون بعد ذلك بمناقشة وجهات هؤلاء الفلاسفة وتفنيد ما يستحق

---

(١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة (١٩٦٢م)، (٦/ ١١٩٩ - ١٢٠٧).

(٢) انظر: (ص ٢٢٥ - ٢٢٩).

منها التّفنيد: « فأما إسنادهم الموجودات كلها إلى العقل الأول، واكتفاؤهم به في الترقي إلى الواجب، فهو قصور عما وراء ذلك من رُتَبِ خَلْقِ اللّـه، فالوجود أوسع نطاقًا من ذلك: ﴿ .. وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]، وكأنهم في اقتصارهم على إثبات العقل فقط والغفلةِ عما وراءه، بمثابة الطبيعيين المقتصرين على إثبات الأجسام خاصة، المُعرضين عن النقل والعقل، المعتقِدين أنه ليس وراء الجسم في حكمة اللّـه شيء. وأما البراهين التي يزعمونها على مدَّعَيَاتهم في الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهي قاصرة وغير وافية بالغرض. أما ما كان منها في الموجودات الجسمانية، ويسمونه العلم الطبيعي، فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تُسْتَخْرَجُ بالحدود والأقيسة، كما في زعمهم، وبين ما في الخارج غير يقيني؛ لأن تلك أحكامٌ ذهنية كلية عامة، والموجودات الخارجية متشخَّصة بمولدها، ولعلَّ في المواد ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي، اللّـهم إلّا ما يشهد له الحسّ من ذلك، فدليله شهوده لا تلك البراهين، فأين اليقين الذي يجدونه فيها؟ ».

« وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحسّ وهي الروحانيات، ويسمونه العلم الإلهي، وعلم ما بعد الطبيعة، فإن ذواتِها مجهولةٌ رأسًا، ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها؛ لأن تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية إنما هو ممكن فيما هو مدرَكٌ لنا، ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى، بحجاب الحسّ بيننا وبينها، فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرِكٌ لنا في إثبات وجودها على الجملة إلا ما نجده بين جنبينا من أمر النفس الإنسانية وأحوالِ مدركاتها وخصوصًا في الرؤيا التي هي وجدانية لكل أحد، وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأمر غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه، وقد صرح بذلك محققوهم؛ حيث ذهبوا إلى أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه؛ لأن مقدمات البرهان من شرطها أن تكون ذاتية. وقال كبيرهم أفلاطون: إن الإلهيات لا يوصل فيها إلى يقين، وإنما يقال فيها بالأحق والأولى، يعني الظن، وإذا كنا

---

(١) سورة النحل: الآية ٨.

إنما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط، فيكفينا الظن الذي كان أوَّلًا. فأي فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها؟ ونحن إنما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحسّ من الموجودات، وهذه هي غاية الأفكار الإنسانية عندهم..».

« .. وأما قولهم: إن البهجة الناشئة عن هذا الإدراك هي عين السعادة الموعود بها فباطل أيضًا؛ لأنا إنما تبين لنا - بما قرروه - أن وراء الحسّ مدرَكًا آخرَ للنفس من غير واسطة، وأنها تبتهج بإدراك ذلك ابتهاجًا شديدًا، وذلك لا يعيَّن لنا أنه عين السعادة الأخروية ولا بد، بل هي من جملة الملاذِّ التي لتلك السعادة. وأما قولهم: إن السعادة في إدراك هذه الموجودات على ما هي عليه، فقولٌ باطل مبنيٌّ على ما كنا قدمناه في أصل التوحيد من الأوهام والأغلاط في أن الوجود عند كل مدرِكٍ منحصر في مداركه، وبيّنّا فساد ذلك، وأن الوجود أوسع من أن يُحاط به أو يُستوفَى إدراكه بجملته روحانيًّا أو جسمانيًّا.

والذي يحصل من جميع ما قررناه من مذاهبهم: أن الجزء الرُّوحانيَّ إذا فارق القوى الجسمانية أدرك إدراكًا ذاتيًّا له مختصًّا بصِنف من المدارك وهي الموجودات التي أحاط بها علمُنا، وليس بعامٍّ الإدراك في الموجودات كلها إذا لم تنحصر، وأنه يبتهج بذلك النحو من الإدراك ابتهاجًا شديدًا، كما يبتهج الصبي بمداركه الحسيّة في أول نشوئه. ومَنْ لنا بعد ذلك بإدراك جميع الموجودات، أو بحصول السعادة التي وعدنا بها الشارعُ إن لم نعمل لها؟ ﴿ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[1].

وأما قولهم: إن الإنسان مستقل بتهذيب نفسه وإصلاحها بمُلَابَسَةِ المحمودِ من الخلق ومُجَانَبَةِ المذمومِ، فأمرٌ مبني على أن ابتهاجَ النفس بإدراكها الذي لها من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها؛ لأن الرذائل عائقةٌ للنفس عن تمام إدراكها ذلك، بما يحصل لها من الملَكَات الجسمانية وألوانها، وقد بينَّا أثر السعادة والشقاوة من وراء الإدراكات الجسمانية والروحانية. فهذا التهذيب الذي توصلوا إلى معرفته إنما نفعُهُ في البهجة الناشئة عن الإدراك الروحاني فقط، الذي هو على مقاييس وقوانين. وأما ما وراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع

(١) سورة المؤمنون: الآية ٣٦.

على امتثال ما أمر به من الأعمال والأخلاق، فأمر لا يحيط به مداركُ المُدرِكين. وقد تنبه لذلك زعيمهم ابن سينا فقال في كتاب (المبدأ والمعاد) ما معناه: إن المَعَاد الروحانيَّ وأحوالَهُ هو مما يُتَوَصَّلُ إليه بالبراهين العقلية والمقاييس؛ لأنه على نسبةٍ طبيعية محفوظةٍ ووتيرةٍ واحدة، فلنا في البراهين عليه سَعَة. وأما المَعَاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان؛ لأنه ليس على نسبة واحدة، وقد بسطَتْهُ لنا الشريعةُ الحقة المحمدية، فليُنظر فيها، وليُرجَعْ في أحواله إليها ».

ويختتم ابن خلدون مناقشته بقوله: « فهذا العلم كما رأيته غير وافٍ بمقاصدِهِم التي حَوَّموا عليها، مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرِها »، ثم يشير إلى الثمرة الوحيدة التي نحظى بها من شجرة الفلسفة هذه؛ تلك هي شحذُ الذهن البشري وتمكينه من ترتيب الأدلة المنطقية وسوق البراهين على ما يسعى إلى إثباته. وهذا يدل على انفساح صدر ابن خلدون لكل علم بشري وملاحظة سلبياته وإيجابياته على السواء، في محاولة منه أن يأخذ الحكمة من أي وعاء خرجت كما علمه الرسول ﷺ أن يكون، « وأما مضارها - أي الفلسفة - فهي ما عَلِمْتَ، فليكن الناظر فيها متحرِّزًا جهدَه من مَعَاطِبِها، وليكنْ نَظَرُ مَنْ يَنْظُرُ فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه، ولا يُكِبَّنَّ أحد عليها وهو خُلْوٌ من علوم الملّة، فقلّ أن يَسْلَمَ لذلك من معاطبها »[١]. وأما الذين يختارون أن يتحصنوا - أولًا - بكتاب اللّـه وسنة رسوله ﷺ، فلهم أن يبحروا حيث يشاؤون، وأن يسبروا غور الفلسفة أيًّا كانت، فإنهم سوف يصلون شاطئ الأمان وقد ازدادوا إيمانًا ويقينًا.

وقد سبق أن أوردنا في البحث السابق رأينا حول رؤية ابن خلدون في النظر إلى الفلسفة، وقوله في التنجيم والكواكب، ورأيه في الميتافيزيقا[٢].

الخاتمة:

استهدف البحث حلّ إشكالية التناقض الظاهري في موقف ابن خلدون من

---

(١) المقدمة (٦/ ١٢٠٢ - ١٢٠٧).

(٢) يرجع إلى البحث السابق (ص ٢٢٩ - ٢٣٢) وكانت في أصل هذا البحث، وحذفتها لعدم تكرار الوارد هناك.

الفلسفة منهجًا، أو أداة عمل، لسبر غور الظواهر والموجودات والأشياء، وقد تمثل هذا التناقض الظاهري في هجومه المعروف في (المقدمة) على الفلسفة، وإعلانه عن بطلان منتحليها، في الوقت الذي كانت فيه المقدمة نفسها نتاجًا فلسفيًا بمعنًى من المعاني، باعتبار أن البحث في قوانين الظواهر العمرانية هو بالتعبير الحديث فلسفة في التاريخ.

بدأ البحث بالتأشير على مواقف ثلاثة من الفلسفة اليونانية على إطلاقها: التقبل، الرفض، النقد والإضافة والإغناء، وذلك للعثور على الموقع الذي اختاره ابن خلدون من بين هذه السياقات الثلاثة.. إذ إنه رفض الفلسفة وأدان المشتغلين بها، ولكن ليست الفلسفة على إطلاقها، وإنما تلك التي تعنى بالإلهيات أو ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) بما أن العقل البشري والأدوات الحسيّة التي يعتمدها غير قادرتين على سبر أغوار هذا العالم الذي يتحتم - على ذلك - أن يبقى في دائرة اختصاص الشرائع الفوقية والأديان المنزلة الموحى بها من اللّه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي أحاط ﷻ بكل شيء علمًا.

وطالما تجاوز العقل وأدواته الحسيّة حدود اختصاصاتهما المعقولة انتهى بهما المطاف إلى الضياع، ومورس نوع من التبذير في الطاقات البشرية التي كان أحرى بها أن تتجه للعمل فيما هو أقرب إليها وأجدى عليها، وأن تترك ما وراء العيان لأصحابه الحقيقيين، فتسلم وتعرف أين تضع خطاها، مستمدة الضوء في تلك الدائرة اللامتناهية من مصادر أخرى تفوق العقل والحواس قدرة على رؤية ما يجري هناك.

ولكن، إذا كان البحث في قوانين العمران والحركة التاريخية يعد اليوم فلسفة تدعى (فلسفة التاريخ)؛ حيث لم يكن مصطلحٌ كهذا قد اعتمد حتى ما بعد عصر ابن خلدون بعدة قرون، فإن الرجل قد رمى بثقله - بعيدًا عن مسميات الأشياء - في دائرة الاشتغال بالفلسفة، أو بعبارة أدق، بفرع منها يُعنى بالكشف عن قوانين العمران، أو الحضارة، أو الاجتماع. وهو في هذا الجانب - إذا استثنينا المعطيات القرآنية - يعد المؤسس الأول لهذا العلم أو لهذه الفلسفة.

وابن خلدون في موقفه المزدوج هذا من الفلسفة يحقق مقاربة مدهشة للمنطوق الإسلامي في كتاب اللّـه وسنة رسوله ﷺ من حيث تأكيدهما الملحوظ على الالتحام بفيزياء العالم (الفيزيقا) وتوظيف ما تنطوي عليه من إمكانات التنمية والعمران والتحضّر تنفيذًا لمبادئ (التسخير) و (الاستخلاف) و (الاستعمار)، بدلالته اللغوية وليست الاصطلاحية، والمنبثة في شرايين النصّ القرآني والأحاديث النبوية، وتحذيرهما - في الوقت نفسه - من هدر الطاقات في البحث فيما هو خارج عن نطاق قدرة الحسّ والعقل البشريين على الوصول إلى كنهه أو تحديد ماهيته. فمن بين مئات الآيات والمقاطع القرآنية في السياق الأول، لا نجد سوى آية واحدة حول (الروح)، وكيف أن العلم البشري القليل المحدود يعجز عن الإجابة على سرّها المخفي في طيّات الغيب، بموازاة حديث نبوي يقول: « **تفكروا في آلاء اللّـه، ولا تفكروا في اللّـه** »[1].

إن رحلتنا هذه مع موقف ابن خلدون من الفلسفة تقودنا إلى الإشارة بإيجاز إلى المشروع الإسلامي باعتباره مشروعًا حضاريًا ينطلق من مثلث التسخير والاستخلاف والاستعمار، لإعادة بناء العالم على هدي كلمات اللّـه؛ أي شريعته القادمة بقوة الوحي وواسطة النبوة من السماء، وهو في جوهره مشروع واقعي يستهدف توجيه الطاقات البشرية الحسية والعقلية، في مساحاتها الممكنة، وينأى بها عن الهدر والابتزاز فيما هو خارج عن قدراتها المحدودة.

ويوم أن أخذ الأجداد بهذا المبدأ، وتعاملوا بفقه عميق مع مطالب الخطاب القرآني والنبوي بخصوص الظاهرة الحضارية، ومهمة المسلم في هذا العالم، ملكوا رقبة العالم، وأصبحوا سادة الأرض لأكثر من قرنين من الزمن. ثم كان أن هبّت أعاصير البحث في المجهول، والجدل في متناهي الأول وواجب الوجود، ومحاولة جعل العقل ندًّا للدين في رسم خرائط الغيب.. وهدرت طاقات كان أولى أن تمارس الكشف والتنقيب، والبناء والإعمار، بالتحامها بالكتلة وإدراك أسرارها، بدلًا من تضييع قواها فيما هو خارج عن دائرة القدرة.. ليس هذا فحسب، بل إن

---

(١) سبق تخريجه.

الأمر تعدّى ذلك إلى فتح بوابة السوء التي قادت إلى ظهور وتمركز الظاهرة الفرقية في الجسد الإسلامي المعافى، فحقنتْهُ بجملة من الأمراض كانت من بين أسباب الضمور والشلل الحضاري الذي لحق بالأمة عبر قرون تخلفها.

وخلاصة الأمر: أن ابن خلدون، في موقفه الذي عالجه البحث، كان أكثر مقاربة للمنطوق الإسلامي، من عشرات غيره من الفلاسفة والفرقيين، فوضع يده - بذلك - على عوامل نهوض الأمة، وعوامل شللها وانحسارها.

* * *
* *
*

متفرقات

- لحظات مع الصدّيقين والشهداء.
- ١٠ تذكرات في ذكرى المولد.
- خبرتي مع الاستشراق.

لحظات مع الصدّيقين والشهداء

كان الإسلام، وسيظل، مدرسة كبيرة لتخريج النماذج البشرية المتألقة.. مهرجانًا من الفدائيين، والصدّيقين، والشهداء، والعلماء الكبار، والمبدعين، والمتصوّفة، والدعاة، والمجاهدين.. أناس نذروا أنفسهم وكل ما عندهم للّه.. فربحوا البيع.. وضعوا الحياة الدنيا تحت نعالهم ورفعوا رؤوسهم إلى السماء.. أدركوا بحدسهم العميق أن هذه الحياة إنما هي لعب ولهو وزينة وتفاخر بالأموال والأولاد.. وأن هذا كلّه لا يعدو أن يكون وهمًا من الأوهام.. فبضربة سريعة.. بغمضة عين، تصبح خبرًا من الأخبار، ويقف الإنسان عاريًا أمام اللّـه لكي يحاسبه على ما قدّمت يداه..

عرفوا أن الدنيا ليست هي الحياة الحقيقية التي نعيشها بالطول والعرض والعمق، ولكنها مسرحية نؤدي فيها دورًا تمثيليًا لا يملك عمقه الحقيقي، وسرعان ما يُسدل على شاشته الستار.. وضعوا الآخرة نصب أعينهم، واستعلوا على كل صنوف الإغراء، والشهرة، والسلطة، والمال.. ومضوا محلّقين في السماوات العليا.. فقدموا بذلك نماذج منظورة عن الإنسان الذي يصنعه هذا الدين، فيفعل الأفاعيل..

نقارنه (بالسوبرمان) و (الجنتلمان) الغربيين، فيتضاءلان أمام قامته العملاقة، وتصبح كل ممارساتهم عبث صبيان إزاء رجال عرفوا كيف يتصرفون، وكيف يتكلمون.. وكيف يكتبون.. وكيف يبدعون.. وكيف يعرضون عن سفاسف الحياة الدنيا.. وكيف يتجهون بعقولهم وقلوبهم ووجدانهم ووجوههم وجوارحهم إلى اللّـه وحده..

كتب التراجم تحدّثنا عن مئات وآلاف من هؤلاء: الوجوه الوضيئة.. واللحى البيضاء.. والروح الشابة.. والمشية المطمئنة.. والبسمة الحانية.. والكلمة العذبة.. والتفوّق على المخاوف والأحزان.. والتواضع والحياء والعطاء..

يا اللّـه.. كم أن تاريخ هذه الأمة يعجّ بالشواهد البشرية على أولئك الكبار الذين تخرّجوا من مدرسة الإسلام العظيم التي عرفت كيف تربّي فيهم – وفق مفهوم

التربية الثلاثية المتكاملة - العقل والروح والجسد.. العلم والعبادة والرياضة.. حيث كان كل واحد منهم عالمًا متفوقًا، وعابدًا متميزًا، ومجاهدًا قديرًا..

ما الذي يريده الإنسان أكثر من هذا؟!

سنقف لحظات، عبر محاضرة كهذه، عند نماذج من هؤلاء الخرّيجين، ونترك للمتابعين والقرّاء أن يرجعوا إلى كتب التراجم والسير والطبقات لكي يعايشوا المئات والآلاف منهم..

مصعب بن عمير الداعية الشاب الذي لم يكن قد بلغ العشرين من عمره، والذي اختاره رسول اللّـه ﷺ لكي يتوجه إلى يثرب مع وفد الأوس والخزرج، بعد بيعة العقبة الأولى، مبشرًا بالدين الجديد هناك.. ومضت الأشهر ومصعب يعمل في يثرب بهمة لا تعرف كللًا ولا فتورًا.. يتحرك بالقرآن، ويحرّك أفئدة الناس هناك وعقولهم بالقرآن.. كانت آيات اللّـه تملك في بنيتها المعجزة سحرَ الإقناع.. وكان مصعب يزيدها سحرًا في تلاوته إياها وسط حشود الناس التي كانت تجتمع، مبهورةَ الأنفاس، من حوالي مصعب في أزقة المدينة وطرقاتها، وهو يتلو آيات من القرآن الكريم.. وعندما اقترب موسم الحج من السنة الثانية عشرة للبعثة، غادر مصعب يثرب، يطير به الشوق للقاء رسوله وقائده.. وفي مكة اجتمع به سرًّا وعرض عليه نتائج مساعيه في يثرب وأنه عما قريب سيلتقي الرسول بوفد كبير منهم تقرّ له عينه، ويطمئن به باله.. وما لبث الوفد الموسّع الجديد أن جاء يضمّ هذه المرة ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين.. حيث التقى الرسول وتمّت بيعة العقبة الثانية على السلم والحرب..

في معركة أُحد قاتل مصعب بن عمير الذي كان يحمل لواء المسلمين دون الرسول ﷺ حتى استشهد على يد ابن قميئة الليثي الذي ظنه رسول اللّـه، فتسلّم اللواء علي بن أبي طالب بأمر من رسول اللّـه ﷺ.. وبعد انتهاء المعركة التي خسر فيها المسلمون سبعين من رجالهم.. أمر الرسول بحمزة فسُجي ببردة وصلى عليه، ثم أمر بالشهداء يوضعون إلى جانب حمزة واحدًا واحدًا، حتى إنه صلى عليهم اثنتين وسبعين صلاة هي عدد القتلى من المسلمين، وآثر مصعبَ بن عمير ببردة

له لم تكن تغطي رأسه حتى تنكشف قدماه، ولم تكن تغطي قدميه حتى ينكشف رأسه.. فقال الرسول: « **رحمك اللّـه، لقد رأيتك بمكة وما بها أرق خلّة ولا أحسن حلة منك، ثم أنت في أشعث بردة** »(١). ثم وقف عليهم وقال: « **أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يُجرح في اللّـه إلا ويبعثه اللّـه يوم القيامة يُدمى جرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك** »(٢).

لقد عاش مصعب في مكة في بيئة مترفة، وكان يعرف كيف يتأنق في ملبسه.. ثم ها هو ذا يستشهد فلا يجد الرسول الرداء الذي يغطيه ﷺ.

* * *

وجدت الوثنية العربية فرصتها للانتقام من المسلمين في أعقاب هزيمتهم في أحد، وراحت توجه إليهم الضربات الغادرة كلما تمكنت منها، متجاوزةً في ذلك أعرافها وقيمها الجاهلية التي درجت عليها مئات السنين.

فبعد وقت قصير من عودة الرسول ﷺ إلى المدينة، بعد أُحد، وفد عليه وفد من قبيلتي عضل والقارة، وقالوا: يا رسول اللّـه، إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث الرسول ﷺ معهم سبعة من أصحابه: مرثد بن أبي مرثد، خالد بن أبي البكير، معتب ابن عبيد، عاصم بن ثابت، خبيب بن عديّ، زيد بن الدثنة، وعبد اللّـه بن طارق. وأمّر عليهم مرثد بن أبي مرثد.

فانطلق الدعاة يجتازون الصحراء، حتى إذا بلغوا ماء الرجيع بين عسفان ومكة، حيث تقطن بنو هذيل، غدر بهم أعراب عضل والقارة، فاستصرخوا عليهم هذيلًا التي كان زعيمها سفيان بن خالد قد قُتل على أيدي المسلمين في أعقـاب أُحد عندما حشد أتباعه للهجوم على المدينة، فلم يرع الدعاة إلا والرجال بأيديهم السيوف يحيطون بهم، فشهروا أسيافهم ليقاتلوهم، فقال لهم رجال بني هذيل: إنا واللّـه ما نريد قتلكم، ولكن نريد أن نصيب بكم مالًا من أهل مكة، ولكم عهد اللّـه وميثاقه أن

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، رقم (٧١٩).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٨).

لا نقتلكم. فأما خالد ومرثد وعاصم ومعتب فقالوا: واللّـه لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا، وانطلقوا يقاتلون وعاصم ينشد:

المـوت حـــق والحيـــاة بـــاطـــل
وكـــل مــــا صـــمّ الإلـــه نـــازل
بـــالمـــرء والمـــرء إليـــه آئـــلُ

حتى قُتلوا جميعًا. وأما إخوانهم الثلاثة فقد أسَرَتْهُمْ هذيل وحملتْهم إلى مكة لتبيعهم فيها، ومعنى هذا أنها تسلمهم لمصارعهم، حتى إذا بلغوا الظهران تمكن عبد اللّـه بن طارق من انتزاع يده من الحبل الذي شُدّت به، وإشهار سيفه، فانهال عليه آسروه ضربًا بالحجارة حتى قُتل رَحِمَهُ اللهُ..

واقتيد خبيب وزيد إلى مكة حيث استُبدلا هناك بأسيرين كانا في مكة، فأما زيد فقد ابتاعه صفوان بن أمية ليقتله ثأرًا لأبيه أمية بن خلف، وبعث به إلى مكان خارج مكة ليلاقي مصيره، واجتمع حوله رهط من قريش، وسأله أبو سفيان حين قُدِّم ليقتل: أنشدك اللّـه يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: واللّـه ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه، وإني جالس في أهلي! فقال أبو سفيان للملأ من حوله: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحُبِّ أصحابِ محمدٍ محمدًا.. ثم قُتِلَ زيد رَحِمَهُ اللهُ..

وخرجوا بخبيب إلى نفس المكان ليصلبوه، فسألهم أن يمنحوه فرصةً يركع فيها ركعتين، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما واللّـه لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة. فكان خبيب أوّل من سنّ ركعتي القتل عند المسلمين. وعندما رفعوه على الخشبة وأوثقوه، رفع وجهه إلى السماء فقال: اللّـهم إنا قد بلّغنا رسالةَ رسولك، فبلِّغه الغداة ما يصنع بنا.. اللّـهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا.. وصلبوه وهو ينشد:

إلى اللّـه أشكو غربتي ثم كربتي ... وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
وذلــك في ذات الإلــه وإن يشــأ ... يبــارك علــى أوصــال شلـو ممـزّع

وقد خيّروني الكفر والموت دونه وقـد هملـت عيناي من غير مجزع
فواللَّـه مـا أرجـو إذا مـت مسلمًا على أي جنبٍ كان في اللَّـه مصرعي

قبيل الالتحام مع المشركين في معركة بدر، رأى الرسول ﷺ وجوب أخذ رأي الأنصار في القتال، سيَّما وأنهم في بيعتهم له في العقبة لم يلتزموا بقتال خارج مدينتهم، فسألهم الرسول ﷺ: « **أشيروا عليَّ أيها الناس** »، فقام سعد بن معاذ فقال: قد آمنَّا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، فامضِ يا رسول اللَّـه لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف عنك رجل واحد، فسِرْ على بركة اللَّـه. فسُرّ رسول اللَّـه ﷺ وقال لأصحابه: « **سيروا وأبشروا؛ فإن اللَّـه قد وعدني إحدى الطائفتين، واللَّـه لكأني أنظر إلى مصارع القوم** »[١].

* * *

في معركة الخندق، وبعد أن اشتد الكرب والحصـار على المسلميـن، رأى الرسول ﷺ أن يسعـى إلى تفتيت جبهة الأحـزاب، فبدون ذلك لا يتحقق النصر ولا يزول الخطر. فبعث إلى قائدي غطفان وبني مرّة يغريهما بثلث ثمار المدينة عن أن يرجعا بمَنْ معهما ويتخليا عن الحصار. وانتهت اتصالاته بهما إلى كتابة وثيقة صلح بين الطرفين، تعمد الرسول ﷺ أن يؤجل توقيعها ريثما يستشير قادة الأنصار أصحاب المدينة. فبعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعرض عليهما الأمر، فقالا له: يا رسول اللَّـه، أمرًا تحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك اللَّـه به لا بدّ لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟ قال: « **بل شيء أصنعه لكم.. واللَّـه ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر** ». فأجاب سعد بن معاذ: يا رسول اللَّـه، قد كنا وهؤلاء القوم على الشرك باللَّـه وعبادة الأوثان، لا نعبد اللَّـه ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلَّا قرًى أو بيعًا، أفحين أكرمنا اللَّـه بالإسلام، وهدانا، وأعزّنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ واللَّـه ما لنا بهذا من حاجة، واللَّـه لا نعطيهم إلا السيف

(١) سبق تخريجه

حتى يحكم اللّـه بيننا وبينهم! فقال الرسول ﷺ: « **فأنت وذاك** ». فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحى ما فيها وقال: ليجهدوا علينا! ومن ثم اطمأن الرسول ﷺ إلى رغبة أصحابه عامة والأنصار خاصة في الصمود حتى النهاية بوجه الأحزاب[(١)].

في **معركة بني قريظة** وبعد خمس وعشرين ليلة من الحصار اضطر اليهود إلى نزولهم على حكم الرسول ﷺ. فعهد إلى سعد بن معاذ، زعيم الأوس، وقد كان بنو قريظة مواليهم، بإصدار الحكم، وكان سعد آنذاك يمرَّض من جراحه التي أصابته في معركة الخندق، تشرف على تمريضه في المسجد امرأةٌ تُدعى رفيدة كانت تداوي الجرحى، وتتولى رعاية من لا أهل له من المقاتلين. فجاء به قومه يحملونه وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول اللّـه ﷺ إنما ولّاك ذلك لتحسن فيهم. فلما ألحّوا عليه قال: لقد آن لسعد ألّا تأخذه في اللّـه لومةُ لائم، ثم أصدر حكمه بقتل الرجال المحاربين، وتقسيم الأموال. فما كان من الرسول ﷺ إلّا أن قال له: « **لقد حكمْتَ فيهم بحكم اللّـه من فوق سبع سماوات، وحكم رسوله** »[(٢)].

وما أن تم تنفيذ الحكم برجال بني قريظة حتى انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات شهيدًا، بعد أن استجاب ربه لدعائه يوم جُرح في معارك الخندق: « اللّـهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليّ من أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. اللّـهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تُمِتْنِي حتى تُقِرّ عيني من بني قريظة »!!

* * *

كان من بين **شروط صلح الحديبية** أن من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه فعليه أن يرده، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد ﷺ لا تجد نفسها ملزمةً بردّه.. وقبل أن يتم إملاء الشروط وصل معسكر المسلمين أبو جندل، ابن المفاوض القرشي

---

(١) انظر: البيهقي، دلائل النبوة، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية ودار الريان للتراث، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٨م) (٣/ ٤٣٠).

(٢) محمد الغزالي: فقه السيرة، تحقيق: محمد ناصر الألباني، دار القلم، دمشق، الطبعة السابعة (١٩٩٨م) (ص ٣١٥) بنحوه.

سهيل بن عمرو، وهو يرسف بالحديد، فانقضّ عليه أبوه يضرب وجهه ويأخذ بتلابيبه قائلًا للرسول: إن شروط الصلح قد أُبرمت قبل وصول أبي جندل، فأجابه الرسول: صدقت. وراح أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! فما كان جواب الرسول ﷺ إلا أن قال: « **يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فلعل اللّـه جاعل لك ولمَنْ معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا. إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد اللّـه، وإنّا لا نغدر بهم..** »، فرده، وظل الحال كذلك حتى جاء أبو بصير فردَّه النبي ﷺ فاستطاع الخلاص مرةً أخرى، فجاء إلى النبي ﷺ وقال له: يا نبي اللّـه، قد أوفى اللّـه ذمتك؛ قد رددتني إليهم ثم أنجاني اللّـه منهم، فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه وقال: « **ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد** »[(١)].

وقد صدق رسول اللّـه ﷺ؛ فالمضطهدون الهاربون من قبضة قريش كانوا يجدون أنفسهم ملزمين بعدم الالتحاق بإخوانهم ودولتهم الجديدة في المدينة، وإلّا رُدّوا إلى مضطهديهم تنفيذًا للعهد، فكانوا يلجأون إلى جبال تهامة المطلة على طريق القوافل المكية إلى الشام، ويقومون من هناك بحروب عصابات ضد القوافل القرشية الذاهبة والآتية من الشام، فيقتلون حراسها وأصحابها ويغنمون أموالها. وكان يقودهم في نشاطهم هذا فدائي مسلم يدعى (أبا بصير)، كان قد فرّ من مضطهديه في مكة إلى المدينة إلّا أن الرسول ردّه بصحبة اثنين من حراس مكة جاءا لكي يعيداه إلى سادته، فقتل أحدهما واضطر الآخر إلى الفرار، ثم انطلق صوب جبال تهامة مع رفيقه أبي جندل ليقودا من هناك حربهم ضد قريش، وأخذ يلتحق بهما كل هارب من جحيم الوثنية. وما لبثت قريش أن وجدت نفسها مسوقة إلى أن تطلب من الرسول ﷺ إلغاء هذا الشرط، فأجابها إلى ما أرادت!!

* * *

عبد اللّـه بن رواحة الشاعر، هو القائد الاحتياط الثالث في غزوة مؤتة التي بعث بها رسول اللّـه ﷺ إلى الشمال لتأديب القبائل العربية الموالية للروم، خاصةً بعد

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

مقتل مبعوثه إلى ملك بصرى: الحارث بن عمير الأزدي.

خرج المسلمون رجالًا ونساءً وأطفالًا لتوديع الجيش، وتعالت أصواتهم وهم ينادون: « صحبكم اللّه ودفع عنكم وردّكم إلينا صالحين »، فراح عبد اللّه ابن رواحة ينشد:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حرّان مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مرّوا على جدثي يا أرشد اللّه من غاز وقد رشدا

وعندما ودّعهم الرسول ﷺ وانصرف راجعًا أنشد ابن رواحة:

خلف السلام على امرئ ودعته في النخل خير مشيّع وخليل

بدأ القتال المرير بين قوتين غير متكافئتين، وانطلق **زيد بن حارثة** براية رسول اللّه ﷺ يقاتل حتى شاط في رماح القوم وغرق بدمائه، فتسلم الراية **جعفر ابن أبي طالب**، وانطلق يقاتل.. حتى إذا أحاط به العدو من كل مكان وسددوا إليه ضرباتهم، اقتحم عن فرسه الشقراء وضرب قوائمها بالسيف وراح يجالد القوم وهو ينشد:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وباردًا شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إذ لاقيتها ضرابها

كان جعفر يحمل الراية بيمينه، فلما قطعوها أخذها بشماله، فلما قطعوها، احتضنها بعضديه، حتى قتلته ضربة جندي رومي قطعته نصفين.. فانقضّ **عبد اللّه ابن رواحة** وحمل الراية وتقدم بها على فرسه.. وفي موجة من الرعب الذي لا يرحم، منبثقًا هذه المرة عن حساسية الشاعر وتأرجحه العاطفي، تردد عبد اللّه بعض التردّد، إلا أنه ما لبث أن تفوّق على خوفه وتردده، ونزل عن فرسه لكي يشتبك بأعداء اللّه وهو ينشد:

أقسمت يا نفس لتنزلنَّهْ لتنزلنَّهْ أو لتكرهنَّهْ
إن أجلب الناس وشدُّوا الرنَّهْ ما لي أراك تكرهين الجنهْ؟

يا نفس إلّا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلي فعلهما هديت

وأتاه ابن عم بقطعة لحم وقال: شدّ بها صلبك، فإنك قد لقيت في يومك هذا ما لقيت!! فأخذها منه واقتطع منها مضغة، لكنه ما لبث أن سمع احتدام القتال قريبًا منه.. فراح يخاطب نفسه: وأنت بعد في الدنيا؟ وألقى قطعة اللحم من يده ثم استل سيفه وتقدّم فقاتل حتى قُتل!! رَحِمَهُ اللَّهُ.

* * *

هذه نماذج من عشرات غيرها شهدها عصر الرسالة.. ولقد عرف تاريخنا الإسلامي عشرات ومئات وألوف النماذج عبر عصوره كافة.. **فلنقف لحظات عند مرحلة أخرى لمعاينة بعض شهدائها وصدّيقيها.. عصر المقاومة الإسلامية للغزاة الصليبيين**، والذي شهد أبطالًا مجاهدين صدقوا ما عاهدوا اللّـه عليه، وسلّم الواحد منهم الراية للذي يليه، فمضى بها قدمًا، فاتحًا محررًا موحدًا.. وموجهًا للصليبيين ضرباته الموجعة بأذرع حشود المقاتلين معه من العرب والترك والكرد والمماليك والجراكسة، وسائر الجماعات المنتمية لهذا الدين..

بعد سنوات قلائل من بداية الغزو الصليبي لديار الإسلام، قُدّر **لسقمان بن أرتق، مؤسس الإمارة الأرتقية التركمانية في ديار بكر**، أن يشكل حلفًا مع **والي الموصل السلجوقي جكرمش** يتصدى لمحاولة الصليبيين احتلال حرّان والإيغال شرقًا باتجاه قلب الجزيرة الفراتية، مستغلين فرصة الصراع بين قيادات المسلمين، فضلًا عما يعنيه الاستيلاء على حرّان من قطع الصلة بين بلاد فارس والعراق والشام وإعطاء الغزاة فرصة مهاجمة الموصل وتأمين إمارتهم الصليبية في الرها والسيطرة على إقليم الجزيرة.

وقد عمل هذا التحدي على تعاقد سقمان وجكرمش للعمل سوية لإيقاف تقدم العدو؛ حيث أرسل كل منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع لتلافي أمر حرّان ويعلمه أنه قد بذل نفسه للّـه تعالى وثوابه. فأجاب كل منهما صاحبه واجتمعا على الخابور، وتمكّنا بعد قتال مرير من سحق الهجوم الصليبي وإنقاذ حرّان من السقوط الوشيك.

وهكذا قدّر لسقمان بتحالفه مع جكرمش أن يلعب دورًا خطيرًا في تاريخ الحروب الصليبية، وأن يقدّم وحليفه للمسلمين أوّل نصر حاسم على الغزاة فتح به الطريق لظهور قيادات وجبهات إسلامية وجهت الضربات المتتالية للقوى الصليبية، تلك القيادات التي بدأت بمودود حاكم الموصل السلجوقي، وانتهت بالناصر صلاح الدين، والمماليك من بعده، عبر إيلغازي وبلك الأرتقيين في ديار بكر، ثم آق سنقر البرسقي وعماد الدين زنكي في الموصل ونور الدين محمود في حلب ودمشق..

وأخذ سقمان ما استولى عليه من سلاح الصليبيين وراياتهم وملابسهم فألبسها أصحابه، وأركبهم خيلهم، وجعل يأتي حصون ديار بكر فيخرج الصليبيون منها ظنًّا منهم أن أصحابهم قد انتصروا فيقضي عليهم سقمان، ويحرّر حصونهم، وتمكن بذلك من وضع يده على عدد من حصون المنطقة.

استمر سقمان على سياسة الأحلاف الإسلامية التي حقق بواسطتها انتصارات حاسمة ضد الغزاة، ولذا فما أن تلقّى دعوة من فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس في لبنان لنجدته ضد الصليبيين الذين قاموا بهجوم ضد طرابلس، حتى خف سقمان لمعونته.. ولكن المرض دهمه وهو في الطريق، فأشار عليه أصحابه بالعودة إلى ديار بكر فامتنع وقال: « بل أسير.. فإن عوفيت تممت ما عزمت عليه، ولا يراني اللّـه تثاقلت عن قتال الكفار خوفًا من الموت، وإن أدركني أجلي كنت شهيدًا سائرًا في جهاد ».. وما لبث أن توفي (في صفر من عام ٤٩٨هـ)، فحمله ابنه إبراهيم عائدًا بصحبة القوات الأرتقية إلى ديار بكر.

* * *

تسلّم الراية من بعده أخوه إيلغازي بن أرتق، في وقت كانت حلب فيه قد أوشكت على السقوط بيد الصليبيين، ولكنه شمّر عن ساعد الجّد، وتقدّم على جناح السرعة، وأحاط بالصليبيين من ثلاث جهات. وأقبل القاضي أبو الفضل ابن الخشاب يحرّض الناس على القتال، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم واسترهف هممَهم وأبكاهم، وما لبث هجوم المسلمين الخاطف أن بدأ ظهرًا بأن دار أحد قوادهم من وراء الصليبيين وهاجم خيامهم وقتل مَنْ فيها، بينما

أطبقت بقية القوات على الصليبيين من الجهات الأخرى، فاضطرب العدو لشدة وطأة الهجوم وقُتل كل مَنْ تراجع منهم باتجاه الخيام، وحمل المسلمون بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات صدّوا فيها العدو، وكانت السهام كالجراد، فتراجع الصليبيون وطحنوا في تراجعهم الرّجّالة والأتباع، وأُسر معظم مقاتليهم، وقُتل روجر أمير أنطاكية، أما المسلمون فلم يفقدوا سوى القليل.

من أجل ذلك اشتهرت هذه المعركة - التي وقعت عام (٥١٣هـ) - لدى مؤرخي الصليبيين باسم معركة (ساحة الدم)، وفضلًا عن القتلى فقد وقع في أيدي المسلمين من السبي والغنائم والدواب ما يربو عن العد. ويشير المؤرخ اللاتيني وليم الصوري إلى أنه لم يفلت من الألوف الكثيرة التي تبعت سيدها من يروي سيرة القتال، وذلك بسبب ما ارتكبناه من الذنوب، على حين لم يلق مصرعه من العدوّ إلا عدد قليل.

* * *

حاول الصليبيون استغلال فرصة وفاة إيلغازي عام (٥١٦هـ)، وانقسام إمارته بين أبنائه وانعزال حلب عن القوى التركمانية في ديار بكر، لتحقيق انتصارات سريعة على المسلمين في شمالي الشام، فشددوا الحصار على حلب وألحقوا بالمناطق المحيطة بها أذًى كبيرًا، لكن **بلك بن بهرام** - ابن أخ إيلغازي - استطاع بما يملكه من قدرات عسكرية، وروح فدائية، وسرعة مدهشة في التحرك، أن يشل محاولات العدو، وأن يلحق بهم جملة من الهزائم الحاسمة، ويفك الحصار عن حلب، ويأسر معظم ملوكهم وأمرائهم، وأن يُسقط محاولة الأرمن تخليص أسرى الصليبيين.

وفي صفر من عام (٥١٨هـ) بلغت بلك مواقف سيئة عن حسّان ابن كمشتكين صاحب منبج دفعته إلى إرسال قوة تمكنت من إلقاء القبض عليه والاستيلاء على البلد، إلا أن الحصن عصي عليها حيث تمكن عيسى أخو حسان من دخوله وتنظيم أموره الدفاعية، ورأى أن خير وسيلة للتخلص من حصار قوات بلك هي التحالف مع الصليبيين واستدعائهم إليه، فكتب إلى جوسلين أمير الرها يقول: « إن وصلتني وكشفت عني عسكر بلك سلَّمت إليك مَنْبِج »،

وقيل بأنه نادى بشعار جوسلين هناك، فمضى هذا إلى بيت المقدس وطرابلس وبقية المواقع الصليبية وحشد ما يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل، وتقدم إلى مَنْبِج ليجلي قوات بلك عنها.

كان بلك قد التحق للإشراف بنفسه على الحصار، وما أن اقترب جوسلين من مَنْبج حتى توجه بلك إليه، تاركًا بعض قواته على الحصار، والتقيا في معركة فاصلة أسفرت عن هزيمة الصليبيين، فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى آخر النهار. وحمل فيهم بلك ذلك اليوم خمسين حملة، يقتل فيهم ويخرج سالمًا، يضرب بالسيوف، ويطعن بالرماح ولا يكلم، وعاد إلى منبج فبات مصليًا مبتهلًا إلى اللّـه تعالى لما جدده على يده من الظفر بالعدو.

في صباح اليوم التالي زحف بلك نحو حصن منبج ليختار موضعًا لنصب المنجنيق، وكان قد عزم على استخلاف ابن عمه حسام الدين تمرتاش على حصار مَنْبج، والتقدم لإنجاد أهل صور على الساحل الشامي بسبب مضايقة الصليبيين له واستنجاد أمرائه به. وبينما كان بلك قائمًا يأمر وينهى ويهيئ العدة للتوجه إلى صور إذ جاءه سهم من الحصن، وقيل إنه كان من يد عيسى نفسه، فوقع في ترقوته اليسرى، فانتزعه وبصق عليه وقال: « هذا قتل المسلمين كلهم »، وما لبث أن توفي إثر ذلك، فتفرق عسكره، وحُمل جثمانه إلى حلب حيث دفن هناك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

* * *

تسلّم الراية من بعده والي الموصل السلجوقي: **آق سنقر البرسقي**.. عام (٥١٨هـ).. وكان الصليبيون قد شددوا هجماتهم على حلب والمناطق الزراعية المحيطة بها، إثر سماعهم بوفاة بلك، وأنزلوا بها خسائر فادحة، وتولى الهجوم أميرا أنطاكية والرها، ثم ما لبثوا أن فرضوا الحصار عليها من شتى جهاتها، ووطنوا أنفسهم على المقام الطويل، وعدم مغادرتها حتى يملكوها، وبنوا حولها البيوت لأجل البرد والحرّ. وتعدّى الأمر ذلك إلى نبش قبور المسلمين وتخريب مشاهدهم. ويحدثنا المؤرخ الحلبي ابن العديم كيف أنهم أخرجوا جثث الموتى، وعمدوا إلى مَنْ لم تتقطع أوصاله منهم فربطوا الحبال بأرجلهم وسحبوهم أمام

أنظار المسلمين المحاصرين في حلب وراحوا يقولون: « هذا نبيكم محمد ﷺ »، وأخذوا مصحفًا من أحد المشاهد ونادوا: « يا مسلمون، أبصروا كتابكم »، ثم ثقبه أحد الفرنج بيده وشده بخيطين وربطه بأسفل برذونه فراح هذا يروّث عليه، وكلما أبصر الفرنجي الروث على المصحف صفق بيديه وضحك عجبًا وزهوًا.

ولم يكتف الصليبيون بذلك، بل راحوا يمثلون بكل مَنْ يقع بأيديهم من المسلمين .. فما كان من الحلبيين إلّا أن شكلوا وفدًا بقيادة القاضي أبي الفضل بن الخشاب، انطلق سرًّا إلى الموصل للاستنجاد بالبرسقي.

كان البُرْسُقِي حينذاك مريضًا، وكان الضعف قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا، فمنع الناس من الدخول عليه، وعندما استؤذن للوفد الحلبي بالدخول أذن لهم فدخلوا عليه واستغاثوا به، وشرحوا له الأخطار التي تحيق بحلب ومدى الصعوبات التي يعانيها أهل المدينة، فأجابهم البرسقي: « إنكم ترون ما أنا الآن فيه من المرض، ولكني قد جعَلْتُ للَّـه عليَّ نذرًا لئن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في أمركم، والذب عن بلدكم، وقتال أعدائكم ».

ولم تمض ثلاثة أيام على مقابلته للوفد حتى فارقته الحمى وتماثل للشفاء، وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل ونادى قواته أن تتأهب لقتال الصليبيين واستنقاذ حلب. وفي غضون أيام معدودات غدا جيشه على أهبة الاستعداد.. فتقدم إلى حلب وتمكن من إجلاء الصليبيين عنها، ونظم أمورها الإدارية والاقتصادية، وجعلها قاعدة استراتيجية لمجابهة الغزاة في ديار الشام.

وهكذا استطاع البُرْسُقِي أن يحطم الطوق الذي أحاط به الصليبيون حلب، وأن يخلص هذا الموقع الهام من أخطر محنة جابهته طيلة الحروب الصليبية، ويوحده مع الموصل لأوّل مرة منذ بدء هذه الحروب، الأمر الذي أتاح لهذا القائد ولعماد الدين زنكي من بعده أن يفيد من هذه الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الغزاة؛ ذلك أن حلب هي القاعدة الثانية في الشمال بعد الموصل، وهي الحصن الأخير الذي صمد بوجه الزحف الصليبي في المنطقة باتجاه الشرق.

إلَّا أن البُرْسُقِي ما لبث أن اغتيل في الموصل (عام ٥٢٠ هـ) على أيدي الباطنية

الذين كانوا قد تولوا حملة اغتيالات واسعة النطاق لكبار الشخصيات السنية؛ بسبب من نزعتهم الطائفية، وقد بلغت هذه الحملة أَوْجَهَا في القرن السادس الهجري. وكانت الباطنية تشكل مصدر الخطر الوحيد ضد البرسقي، وقد عرف هو ذلك منذ البداية، فكان على غاية من التيقظ لهم والتحفظ منهم، وكان يحيط نفسه بعدد كبير من الحرس المسلمين الذين كانوا دائمًا على أهبة الاستعداد، كما كان يلبس درعًا من حديد. وقد جهد في الحدّ من خطر الباطنية عن طريق التصدّي لهم واستئصال شأفتهم وتتبعهم في كل مكان، وقد تمكن من قتل عدد منهم. ولكن رغم كل هذه الاحتياطات والإجراءات تمكن الباطنية الذين تمرّسوا على الاغتيال من بغيتهم.

ففي التاسع من ذي القعدة سنة (٥٢٠هـ)، توجّه البرسقي إلى الجامع العتيق في الموصل لأداء صلاة الجمعة وقصد المنبر، فلما دنا منه وثب عليه ثمانية أشخاص متزيّين بزي الزهاد وأثخنوه ضربًا وطعنًا، بعد أن تمكن وحراسه من قتل بعضهم، ثم حمل جريحًا ومات في نفس اليوم، وتم قتل جميع مَنْ اشترك في الاغتيال فيما عدا واحدًا منهم تمكن من الهرب إلى الشام.

وكان البرسقي قد رأى في منامه، في الليلة الفائتة، بأن مجموعة من الكلاب السوداء هاجمته، وقص رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بعدم الخروج من داره أيامًا، ولكنه رفض اقتراحهم وقال: لا أترك صلاة الجمعة لشيء أبدًا.. وكان من عادته أن يحضر صلاة الجمعة مع سائر الناس.. رَحِمَهُ اللهُ.

ومن عجب، يقول المؤرخ ابن الأثير: إن أمير أنطاكية الصليبي أرسل إلى عز الدين مسعود يخبره بقتل والده قبل أن يصل الخبر إليه شخصيًّا!! وكان قد سمعه الفرنج قبله لشدة عنايته - أي أمير أنطاكية - بمعرفة الأحوال الإسلامية!! لكن.. أَلَا يلقي هذا النبأ ظلًّا من شك حول إمكانية حدوث اتفاق مسبق بين الباطنية والصليبيين لاغتيال المجاهد المسلم، سيما وأن قتلته ربما كانوا - كما يذكر المؤرخ الحلبي ابن العديم - قومًا من أهل حماة القريبة من معاقل الصليبيين؟!

ثم نقف - أخيرًا وليس آخرًا - عند شخصيتين من قادة المقاومة الإسلامية للغزاة الصليبيين.. من الموحدين والمحررين.. **نور الدين محمود بن عماد الدين**

زنكي، **والناصر صلاح الدين**، للتأشير على جانب فحسب من مواقفهم المدهشة، في بطولتها، وفدائيتها، وتجرّدها، ورؤيتها المتمركزة في بؤرة واحدة: الآخرة!

في عام (٥٥٨هـ) قاد **نور الدين محمود**، حاكم الشام، وهو في قلّة من أصحابه، حملة لضرب تجمع صليبي قريب من حمص، لكنه بسبب عدم تكافؤ القوى اضطر إلى الانسحاب إلى حمص، وما لبث أن توجّه ثانيةً لمجابهة العدو.. حذّره قادته وأمراؤه من نتائج اللقاء، لكنه حسم الأمر بقوله: « واللّـه لا أستظل بجدارٍ حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري ».. وقاتل العدوّ حتى انتصر..

كان يتقدم جنده في الحرب، ويتعرض للشهادة، ويسأل اللّـه أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.. ومرّة جاءه أخوه: نصرة الدين أمير ميران، يشكو ذهاب عينه التي أصابها سهم، فكان جوابه: لو كشف لك الأجر لتمنيتَ ذهاب الأخرى!!

وفي معركة حارم، شمالي الشام، عام (٥٥٩هـ) رآه قاضي قضاته قطب الدين النيسابوري وهو يرمي بنفسه في قلب المعركة، فرجاه قائلًا: باللّـه، لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين، فإنك عمتدهم، وإن أُصِبْتَ - والعياذ باللّه - في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلّا وأخذه السيف وأُخِذَتِ البلاد. ويجيئه الجواب قاطعًا كالسكين: « يا قطب الدين، ومَنْ محمود حتى يقال له هذا؟ قَبْلِي مَنْ حفظ البلاد والإسلام، ذلك هو اللّـه الذي لا إله إلا هو »!!

وكان خلال المعركة القاسية يمرّغ وجهه بالتراب ويدعو اللّـه: « يا رب، هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك، ايش فضول محمود في الوسط؟ ». ويدعو: « اللّـهم انصر دينك ولا تنصر محمودًا، من هو محمود حتى يُنصر؟ ».

ذلك هو موقع التجرد الكامل، والانسلاخ عن الذات، وكسر الأنا.. والتقوى الفاعلة.. (القمّة) الذي لو أدركته قياداتنا المعاصرة لعرفت كيف تصنع هذا التاريخ لصالحِنا نحن لا لصالحِ الخصوم والأعداء.. ولتفرُّدنا على الأمم، لا لذلِّنا وتبعيتنا وضياعنا..

حكى أحد أمرائه المقرّبين: « كنت معه في الميدان، نسير والشمس في ظهورنا،

فكلما سرنا تقدّمنا ظلنا، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا، فأجرى نور الدين فرسه وهو يلتفت وقال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا. قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن طلبها وتطلب مَنْ هرب منها»!

وفي أوّل أيام عيد الفطر المبارك من عام (٥٦٩هـ) الذي توفي فيه، خرج إلى الميدان الأخضر شمالي دمشق لبدء الاحتفالات هناك، فتقدم إليه أحد كبار أمرائه وسأله: ترى.. هل نكون هنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ أجاب نور الدين: هل نكون بعد شهر، فإن السنة بعيدة!!

بلى، إن السنة بعيدة على الذين يقدرون على تصوّر الحدود الهشّة الخفية التي لا تُلمس ولا تُرى بين الحياة والموت.. السنة بعيدة.. وقبل أن يستكمل الشهر الذي خمّنه الرجل التقى موعدًا لرحيله، قبل أن يستكمل دورته، كان الرجل قد فارق الحياة بعد أن سبر غورها وهو يعمل في قمتها.. على سقفها العالي!!

* * *

أما **الناصر صلاح الدين** فكان يقاتل وهو يعاني آلام المرض ويقول: إذا ركبت للحرب يزول عني ألمها.. هجر في محبة الجهاد في سبيل اللّـه أهله وأولاده ووطنه السنين الطوال.. وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة.. وكان يقول: متى يسّر اللّـه فتح بقية الساحل، أوصيت وودعت، وركبت هذا البحر - يقصد المتوسط - إلى جزائره واتّبعت الفرنجة فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض مَنْ يكفر باللّـه.. أو أموت!!

في اجتماع مهم مع أمرائه وقادته، جاءه مَنْ أسرّ في أذنه بنبأ وفاة ابنه إسماعيل.. فتكتم على النبأ، وحبس دمعة الحزن أن تفلت من عينيه.. واستمر على الحوار..

هذا غيض من فيض أولئك الرجال الكبار الذين قُدّر لهم أن يتسلموا مواقع المسؤولية، فكانوا أحق بها وأهلها؛ لأنهم عرفوا كيف ينسلخون عن أنفسهم ويتمحضوا للّـه.

أليسوا هم من خرّيجي مدرسة الإسلام العظيم التي أرساها كتاب اللّـه ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام؟!

١٠ تذكرات في ذكرى المولد

عندما نتحدث عن ذكرى المولد **يجب أن نتذكر** الإنسان الجديد الذي كسر أصفاد العبودية والصنمية ورفع رأسه عاليًا باتجاه الإله الواحد، متحررًا حتى أعمق خلية في بنيانه النفسي والروحي من كل صيغ الابتزاز والاستلاب، متحققًا بشعار (**لا إله إلا اللّـه**) الذي إذا أحسن التعامل معه - كما يقول المفكر الفرنسي روجيه غارودي - فإنه قدير على تحويل الجبـال عن مواضعها.. ولقد تمكن صحابة رسول اللّـه ﷺ فعلًا من أن يزحزحوها، فيغيّروا خرائط العالم، وبلغوا إمبراطوريتي كسرى وقيصر وينشئوا عالمًا جديدًا..

ومن أجل أن تعرفوا البُعد الحقيقي لهذه النقلة الحضارية من الشرك إلى التوحيد، يمكنكم أن تقرأوا كتاب (الأصنام) لابن الكلبي.. لكي تروا الترهات والسخف والهبوط العقلي الذي كان يعيشه العربي قبل الإسلام بتعبّده للحجارة والأصنام، ولجملة من الأكاذيب والأساطير والخرافات التي كانت تتحكم بحياته.. تمامًا كما تتحكم اليوم برقاب الناس ربوبيات الاقتصاد والمال والشهوات والطواغيت والساسة والحكام.. فتذلّهم وتلصقهم بتراب الأرض وطينها ولزوجتها.. فلا يرفعون رؤوسهم إلى السماء..

ويجيء شعار (**لا إله إلا اللّـه**) لكي ينقلب على هذه الربوبيات الزائفة، ويكون ندًّا قديرًا على مهمة استخلاف الإنسان في هذه الدنيا سيّدًا على العالمين..

يجب أن نتذكر أيضًا كيف قدر رسول اللّـه ﷺ على أن يهزم التجزؤ السياسي ويوحّد العرب في أمة واحدة.. إننا من أجل تقييم هذه المعجزة علينا أن نتذكر وضعَنا الراهن كأمة تعاني من التمزّق والشتات السياسي منذ سبعين سنة أو ثمانين سنة.. ولم نستطع رغم المحاولات المتواصلة أن نوحّد شبرين من الأرض.. لقد بدأنا رحلتنا مع القرن العشرين ببضع دويلات ثم ما لبثت أن ازدادت عددًا لكي تتجاوز العشرين دويلة، ثم تمضي تحت مبدأ « تجزئة المجزّأ » لكي تصبح ثلاثين

وربما أربعين، وحتى التجارب الوحدوية النادرة التي أنشأناها انتهت إلى الانتكاس وعدنا إلى التجزئة مرة أخرى..

ما هي القوى الهائلة التي مكّنت رسول اللّـه ﷺ من تحقيق هذه الوحدة؟ من لمّ هذا الحشد الهائل من القبائل المتناحرة المتصارعة المتقاتلة التي أصبح الغزو خبزها اليومي.

وأحيانًا على بكرٍ أخينا إذا ما لم نجدْ إلّا أخانا

فبقوة العقيدة استطاع الرسول ﷺ أن يحقق المعجزة.. أن يلمّ شتات العرب في دولة واحدة قُدِّر لها أن تندفع بفعل حضاري متصاعد إلى الأمام.. ولهذا يقول القرآن الكريم مخاطبًا الرسول: ﴿ .. لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

يجب أن نتذكر كيف قدر رسول اللّـه ﷺ على بناء (الدولة)، فالأمة التي لا دولة لها لا حضارة لها.. ذلك أن الدولة هي التي تنظم طاقات الجماعات والشعوب وتسيّرها باتجاه البؤرة الواحدة التي تعرف كيف تحرق وتضيء، والتي يتشكل من خلالها الفعل الحضاري ويتنامى متطورًا من حال إلى حال..

لم ذهب الرسول ﷺ إلى الطائف؟ عمّ كان يبحث؟ إنه كان يبحث عن الأرض التي ينشئ عليها الدولة الموعودة، فبدونها لن يُقدّر للدعوة أن تشق طريقها إلى الأمام وأن تواصل صيرورتها وتناميها.. فلما أخفقت المحاولة ولقي الرسول ﷺ ما لقي من مطاردة وعذاب.. لم يكلّ ولم ييأس، وإنما واصل السعي من أجل الهدف نفسه.. فقام بالاتصال ببضع عشرة قبيلة عربية عارضًا على كل منها أن يمنحوه الأرض والنصرة من أجل إقامة دولته ونصر دعوته، لكنهم جميعًا رفضوا قبول العرض.. فما كان إلّا أن هيّأت أقدار اللّـه الظروف المواتية في يثرب لكي ينطلق منها زعماء الأوس والخزرج ويبايعوا الرسول ﷺ على ما كان يبتغي ويريد.. وأنتم طلبة العلوم السياسية تعرفون جيدًا الشروط الأساسية لقيام الدول:

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٣.

إنها الأرض والدستور والسيادة.. فمن خلال توفّر هذه العناصر استطاع الرسول من إقامة الدولة الإسلامية في المدينة، والتي لم تكن دولة محلية، ولا دولة حاجزة بين إمبراطوريات كبرى، وإنما هي منذ لحظاتها الأولى دولة عالمية أريد لها أن تكون النواة التي تنتشر فيما بعد، وتحمل رسالتها إلى العالم.. إلى الإنسان في كل مكان؛ من أجل تحريره من قبضة الطواغيت وتركه حرًّا يختار العقيدة التي يشاء..

يجب أن نتذكر التشريع الكبير الذي ألغى الأعراف والتقاليد الجاهلية، وأحلّ محلها منظومة من القوانين التي اعترف كبار رجالات القانون والدستور في العالم، عبر مؤتمرهم الذي عقدوه في باريس في أواخر أربعينيات القرن الماضي، بأنها واحدة من أكثر المنظومات التشريعية رقيًّا في العالم..

إن الدستور أو الصحيفة التي أعلنها الرسول ﷺ عقب دخوله المدينة تشكل حلقة واحدة فحسب في نسيج هذه المنظومة، ولكن الحلقات الأخرى الأخطر والأهم إنما جاءت عن طريق التنزيل القرآني في كل مجالات الحياة الفردية والجماعية.. فليس ثمة حلقة في حياة المجتمع المسلم إلّا وتجد جوابها في تشريع منزل في كتاب اللّـه.. وإيضاح مفصّل في سنة رسوله ﷺ.

يجب أن نتذكّر المعرفة الخصبة التي ألغت الجهل والأمية.. وهذه مسألة في غاية الأهمية، ذلك أن العرب ما كانوا يملكون قبل الإسلام معرفة متقدمة، فيما عدا الشعر والعمران.. لم تكن لديهم ثمة معرفة حقيقية متكاملة يشار إليها بالبنان.. وجاء هذا الدين، بكتاب اللّـه وسنة رسوله ﷺ لكي يقدّم للعرب، وللبشرية من بعدهم، جملةً من المعارف في مختلف جوانب الحياة.. وأنتم تقرأون القرآن برؤية علماء العلوم الصرفة ستجدون مساحات واسعة، مقاطع وسورًا وآيات في علوم الحياة.. في الطب والأجنّـة والتشريح.. في علوم الطبيعة، في الجغرافيا وطبقات الأرض.. وفي الكوزمولوجي - أي علوم الكون - مساحات واسعة جدًّا جاءت المعارف الحديثة لكي تؤكد مصداقيتها.. تأكيدًا للآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ..﴾[1]، وللآية الكريمة: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ..﴾(١).

إننا نتذكر هنا ذلك الجهد الكبير الذي بذله الباحث الفرنسي القدير (موريس بوكاي) في كتابه: (التوراة، الإنجيل، القرآن.. في ضوء المعارف الحديثة).. أراد الرجل أن يوغل في المقارنة بين ما قدمته التوراة والإنجيل والقرآن من معطيات معرفية، وبين الكشوف المعرفية الحديثة والمعاصرة، من أجل التأكد من مصداقية المعطيات الدينية.. اشتغل على الموضوع عشرين سنة، بعقل علماني لا يؤمن بدين، فتبيّن له في نهاية الأمر أن تسعة من عشرة من المعارف التوراتية والإنجيلية تسقط إذا مُـرِّرتَ عبر قنوات الكشوف المعرفية والعلمية الحديثة والمعاصرة، وأن عشرة من عشرة من المعارف القرآنية تحمل مصداقيتها المطلقة.. يقول الرجل: لا يمكن لإنسان عاش قبل أربعة عشر قرنًا أن يُسقط أخطاء التوراة والإنجيل البالغة (٩٪) ولا يتقبل سوى العُشر في ضوء معرفة ستتشكل بعده بأربعة عشر قرنًا.. ولا يمكن أن يثبت معرفة مطابقة تمامًا لما سيأتي بعد أربعة عشر قرنًا.. إلّا أن يكون قد تلقى علمه من السماء..

يجب أن نتذكر الإنسان المسلم الجديد الذي صاغه هذا الدين ونقارنه بالجاهلي المتهرّئ الذي لا يلتزم بنظام، ولا يحترم مؤسسة، ولا يحتمل الانتماء إلى دولة تحتّـم عليه الكثير من الالتزامـات.. ولا إلى منظومـة القيم الخلقية التي تقول له: لا تقتل، لا تشرب، لا تقامر، لا تزن، لا تسرق.. الجاهلي الذي يمتد تسيّبه حتى إلى مظهره الجسدي المترع بالقذارة.. والذي لا يغتسل أو يستحم في السنة إلّا مرة أو مرتين.. الجاهلي الذي لم يكن ينتعل شيئًا، والذي كانت شقوق أقدامه تفقّس فيها - كما يقول الغزالي رحمه الله - العقارب والحيّات!!

الإنسان المسلم الوضيء، النظيف، الملزم بأن يغتسل في اليوم الواحد خمس مرّات، ويستحم في الأسبوع مرة أو مرتين.. الأنيق في ملبسه ومطعمه.. في أخلاقه وسلوكه.. والذي يحترم فكرة الانضباط والخضوع لمفاهيم الدولة، والتشريع، والنظام.. إنسان « متحضّر » بكل معنى الكلمة، وهو بتكوينه المشع هذا، بسلوكه

(١) سورة يونس: الآية ٣٩.

العالي، بانضباطه، قدَرَ على أن يكسب شعوب الأرض إلى صف دينه الذي صاغه هذه الصياغة الوضيئة، السمحة، النظيفة التي تجذب ولا تنفّر.. وتيسّر ولا تعسر، وتبشّ في وجوه الآخرين، وتعلّق الكلمة الطيبة على ألسنتها وفي شفاهها..

إن الكثير من وقائع تاريخنا الطويل لا يفسّرها إلّا هذا التقابل بين البداوة والحضارة.. بين الجاهلية والإسلام.. وبين الرجعية القبلية والتقدمية الإسلامية: حركة النفاق في العصر المدني، حروب الردّة والتنبؤ في بدايات العصر الراشدي، الفتنة زمن الخليفة عثمان بن عفان، الذي تدلّ حتى صيغة مقتله البشعة على هذا التقابل المحزن.. الخوارج.. الصراع العاتي بين القيسية واليمنية.. إلخ..

يجب أن نتذكر التأكيد القرآني المتواصل على التعامل المنهجي المنضبط بالعلم مع الظواهر والأشياء.. وألّا نستسلم لكل حالة إلّا بعد إدخالها عبر ممرات الحواس والعقل: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[1].. على طرقه المتواصل على تشغيل العقل والحواس، والالتحام بكتلة العالم.. بفيزيائه.. من أجل اكتشاف طاقاته والقوانين التي تحكمه.. هذا الذي قاد حضارتنا إلى ابتكار منهج البحث الحسّي التجريبي وأن تقدّمه أثمنَ هديةٍ للحضارات البشرية والغربية على وجه الخصوص، فيما يعترف به ويؤكده الباحثون الغربيون قبل الشرقيين.. الدومييلي الفرنسي، وجورج سارتون الأمريكي.. وغيرهم كثيرون جدًّا.. مما كان له الفضل في وضع التأسيسات الضرورية للحضارة الغربية المعاصرة..

يجب أن نتذكر أننا ونحن نقرأ كتاب اللّـه يجب ألّا تكون قراءتنا مجرد ركض على السطح من أجل تحقيق (ختمة) أكثر.. وإنما الإيغال في المفاهيم التي يقدمها هذا الكتاب المعجز.. انظروا ما الذي يقوله كتاب اللّـه بخصوص فيزياء الكون.. إنـه يختصرهـا بآيـات ثلاث: البدء والصيرورة والمصير.. فيما أكّدته الكشوف الكوزمولوجية عبر العقـود الأخيـرة: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[١]، فيما أكدته نظرية الـ Big Bang حول الانفجار الكوني العظيم في بدايات الخلق.. ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[٢]، فيما أكدته كشوف آينشتاين بخصوص الكون المتسع والمنحنيات الكونية المتباعدة.. ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[٣]، فيما يؤكده مبدأ قانون الديناميكا الحرارية الذي يشير إلى تناقص الطاقة الكونية عبر مديات زمنية لا يعلمها إلّا اللّـه.. بمعنى أن للكون نهاية لا ريب فيها..

تمعَّنوا في قسم اللّـه ﷻ بالظواهر الكونية التي تتعرض للكشف يومًا بيوم بواسطة أجهزة الرصد الجبارة..؛ حيث في السنين الأخيرة تم اكتشاف نمطين من النجوم: نمط النجوم الطوارق التي تمضي في الكون فتطرق على كل جسم يمرّ بها وتثقبه.. ونمط النجوم الكوانس التي تكنس وهي تسبح في الفضاء بصمت كل ما يمرّ في طريقها: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾[٤]، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾[٥].

انظروا جيدًا فيما قاله كتاب اللّـه عن ظاهرة الإمطار الجغرافية، في أكثر من ثلاثمائة آية، ومن مختلف الزوايا.. فإنكم ستجدون أنفسكم أمام معجزة إيصال القطرة العذبة إلى الإنسان وإلى ضرعه وزرعه.. وإلّا ما استمرت الحياة على الأرض سوى أيام معدودات.. ونحن نعرف أن تشكل حالة واحدة لمرة واحدة قد يكون من قبيل الصدفة، لكن عندما تنبني عليها حالة ثانية، فإن هامش الصدفة يضيق.. فكيف إذا انبنت عليها ثمانية حالات؟ ألَا يحتّم هذا القول بوجود غائية أو قصد فوقي يرتب هذه الحالات الثمانية بعضها على بعض من أجل إيصال الماء العذب إلى أفواه العطاشى؟

إن معجزة الإمطار تبدأ بهذا الخزين الهائل من الماء والذي يغطي خمسة أسداس

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.
(٢) سورة الذاريات: الآية ٤٧.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.
(٤) سورة الطارق: الآيات ١-٣.
(٥) سورة التكوير: الآيتان ١٥، ١٦.

الكرة الأرضية ثم شكمه عن الطغيان على اليابسة.. أي تسكينه.. ونحن نعلم أن الماء الساكن سيتعرض للفساد خلال مدة زمنية قصيرة، فيقضي على الحياة، ومن ثم تنبني عليه حلقة ثالثة هي التمليح.. وضع الملح في مياه البحار والمحيطات من أجل ألّا تفسد.. تجيء بعدها حركة التبخير..؛ حيث وضعت الشمس في مكانها المناسب تمامًا من حيث درجات الحرارة التي تسلطها على البحار والمحيطات من أجل التبخير.. تعقبها حركة التوزيع.. توزيع السحب المعلقة في سماء البحار والمحيطات.. إلى سماوات الأرض.. بجملة من الرياح العكسية والموسمية والتجارية والإعصارية.. كأنها حركة (دشالي) المكائن الميكانيكية التي تتحرك بكل اتجاه من أجل توزيع عامل القوّة.. ثم تجيء حلقة التلقيح؛ أي مزاوجة السالب بالموجب من أجل تحول الماء من حالته البخارية إلى حالته السائلة.. ثم تجيء عملية التوزيع المتكافئ.. ذلك أن المطر لو نزل بصيغة واحدة لما تحققت الفائدة سوى من عشره وتذهب الأعشار الأخرى هدرًا إلى البحر.. لكن بتوزيعه العادل: إلى الجداول والأنهار.. وإلى الخزانات الجوفية التي تم الكشف أخيرًا عن وجود ثلاث جدران لا تنفذ من آخرها ذرة واحدة من الماء فتذهب هـدرًا: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾[1]، ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾[2].. ثم إرسال الثلث المتبقي من الماء النازل إلى المناطق الجبلية الباردة، لتخزينه ككتلٍ ثلجية، ثم الإفادة منه في مواسم الصيود..

هذه الحلقات الثمانية المتراتبة في تسلسها، والتي إن غابت واحدة منها انقطع وصول الماء العذب إلى الإنسان والحيوان والزرع.. من الذي رتّبها بهذا الشكل المحكم.. غير إرادة فوقية، تُسيّر الأشياء والظواهر إلى غاياتها عبر سلسلة من الحلقات التي يكمّل بعضها بعضًا وينبني بعضها على بعض؟! وإلّا فإن أي تفسير آخر لا يعدو أن يكون نوعًا من الغباء في التعامل مع الظواهر والموجودات..

في مقابل هذا كلّه يجب أن نتذكر حملة القرآن المتواصلة على الظنون والأهواء..

(١) سورة الملك: الآية ٣٠.

(٢) سورة الحجر: الآية ٢٢.

على السحر والكهانة والخرافة والأساطير.. على كل ما هو ضد المنهج في التعامل مع الظواهر والأشياء.. على صيغ التحيّز التي لا تستند إلى الحجة والبرهان.. ﴿.. قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[(١)]، هذه اللازمة التي نجدها تتكرر في كتاب اللـه؛ حيث لا يتسع المجال لإيراد شواهدها.. والآية التالية تختصر الأمر كلّه، فلا تتطلب مزيدًا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾[(٢)].

حيثما تلفتنا - أيها الإخوة - وجدنا رسولنا - عليه الصلاة والسلام - هذا المعلم الكبير، لم يصرف من سيرته التي استغرقت ثلاثة وعشرين عامًا سوى سنة وثلاثة أشهر في معمعان المعارك والحروب.. والزمن المتبقي بفضائه الواسع كان يبني فيه المشروع الحضاري الذي جاء هذا الدين لكي يبشّر به.. ونحن في احتفالياتنا وخطب جُمَعِنا لا نزال نطرق على معركة بدر دون أي التفاتٍ للقيم الحضارية التي تشكل الجملة العصبية لعصر الرسالة.. والتي يمكن أن تقدّم الجواب لمعضلات البشرية في القرن الأخير.. إن ما هو أهم من المعارك.. هذا المشروع الحضاري الذي قُدّر له أن يعيد صياغة العالم، وسيُقدّر له أن يعيدها مرةً أخرى.. وكما يقول (غارودي) في كتابه (وعود الإسلام): « إن مشكلة العالم المعاصر كونية، ولا بدّ للجواب إلّا أن يكون كونيًا، والإسلام هو هذا الجواب ».

لقد أُتيح لي وأنا اشتغل في ثمانينيات القرن الماضي على كتاب (قالوا عن الإسلام) أن أجمع مقولات المفكرين الغربيين بخصوص الإسلام عقيدةً وشريعةً وتاريخًا ونبيًا وكتابًا وحضارةً وحاضرًا ومستقبلًا.. وبما يمكن أن يقدّمه للمشاركة في إعادة صياغة مصير العالم الذي تساقطت كل مذاهبه ودعاواه الأممية والقومية والاستعمارية والرأسمالية.. على الإطلاق.. فوجدت العجب العجاب.. آلاف النصوص التي تكدّست بين يدي عما يريد هؤلاء أن يقولوه عن هذا الدين، وعن دوره المستقبلي في مصير العالم: سيغريد هونكه الألمانية، روم لاندو الإنكليزي،

(١) سورة البقرة: الآية ١١١. (٢) سورة النجم: الآية ٢٣.

غوستاف لوبون، روجيه غارودي، موريس بوكاي الفرنسيين، لورا فيشيا فاغليري الإيطالية، ليوبولد فايس المجري، مايكل هارت الأمريكي.. و.. و.. عشرات ومئات غيرهم ممن وردت شهادات بعضهم في كتابي المذكور..

إنه يتحتم علينا ونحن نـدرّس (السيرة النبوية) لطلبتنا في الإعداديات والجامعات أن نقول لهم هذا.. أن نعرضه عليهم بتفاصيله.. وأن نزرع الثقة بأنفسهم وعقيدتهم ومشروعهم الحضاري.. وأن المخلّص للعالم المعاصر الذي أوصلته نظمه الوضعية والشمولية إلى حالة الاختناق.. والالتصاق بالأرض.. هو هذا الدين الذي يلتقي فيه الوحي بالوجود.. تعاليم السماء القادمة من اللّـه ﷻ.. بالالتحام بكتلة العالم، بفيزيائه.. وطاقاته من أجل التحقّق بمطالب المشروع الحضاري.. وإحدى أهم هذه المطالب أن يكون نَفَسُنا طويلًا.. وأن تكون لدينا القدرة على الصبر والتحمل.. وأن نتعلم من الغربيين أخلاقية مواصلة الكشف والابتكار والإضافة والإغناء.. إذا أردنا فعلًا أن يكون لنا مكان في هذا العالم، وأن نعطيَهم مثلًا منظورًا على قدرة المسلم على مواصلة الطريق وحمل أمانة مشروعه الحضاري.. وتقديمه إلى البشرية التي شردت منذ زمن بعيد عن منهج اللّـه..

إننا إذا استطعنا أن نلتحم كَـرَّةً ثانية بالخطاب القرآني والمُعطى النبوي، اللذين يعلماننا الكثير الكثير بخصوص كيف ننشئ حضارة، وكيف نمضي بها إلى الأمام، وكيف ندخل بمشروعنا الحضاري إلى العالم للمشاركة في إعادة صياغة مصيره.. نكون قد بدأنا خطواتنا على الطريق الصحيح.

* * *
* *
*

خبرتي مع الاستشراق

على مدى خمسين عامًا، وعبر مراحل زمنية متقاربة حينًا متباعدة أحيانًا، تعاملت مع « الاستشراق » قراءة وتدريسًا وتأليفًا.

وقد أتيح لي منذ أخريات خمسينيات القرن الماضي، وحتى العقد الأول من القرن الحالي، أن أقرأ عشرات المصنفات التي أنجزها المستشرقون على اختلاف بلدانهم في أوربا غربًا وشرقًا، وأن أدرّس مادة « الاستشراق » لطلبة الدراسات العليا، وأناقش رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه التي تمسّ الموضوع، في العديد من الجامعات العربية والإسلامية، وأن أنجز جملة من المؤلفات، مُحّض بعضها للفكر الغربي والاستشراقي، وخصّص بعضها الآخر مقاطع وفصولًا عن هذا الفكر، بلغ عددها جميعًا ثلاثة عشر كتابًا.

وقد اتخذَتْ هذه المؤلفات اتجاهين في الكتابة، مضى أحدهما لكي ينقد ويفنّد المعطيات الاستشراقية: (دراسة في السيرة، ابن خلدون إسلاميًا، حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، دراسة مقارنة في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتكمري وات، مدخل إلى التاريخ الإسلامي). ومضى الآخر يتبنى ويحلّل الجوانب الموضوعية المضيئة من تلك المعطيات: (قالوا عن الإسلام، الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي، مدخل إلى الحضارة الإسلامية، أصول تشكيل العقل المسلم، نظرة الغرب إلى حاضر الإسلام ومستقبله، المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي، القرآن الكريم من منظور غربي، الفن والعقيدة).

في البداية كنتُ أميل - بسبب من قراءاتي الأولى - إلى اعتبار الموروث الاستشراقي بشكل عام سيئًا بما كان ينطوي عليه من تحامل على الإسلام، مكشوف حينًا، ومُغطًّى بخبث حينًا آخر، وهو الأمر الذي أعتقد أن الكثيرين يشاركونني فيه، بل إن عددًا غير قليل من الأوربيين أنفسهم أدانوا رفاقهم بسبب من إلحاحهم في التحامل على الإسلام قرآنًا ونبيًّا وعقيدة وشريعة وحضارة وتاريخًا.

ولقد ظلت تحفر في ذاكرتي تلك الملاحظات القيمة للمفكر النمساوي

(ليوبولد فايس: محمد أسد) في كتابه المعروف (الطريق إلى مكة) حيث يقول: « لقد مال المفكرون والمؤرخون الأوربيون، منذ عهد اليونان والرومان، إلى أن يتبصروا بتاريخ العالم من وجهة نظر التاريخ الأوربي والتجارب الثقافية الغربية وحدها. أما المدنيات غير الغربية فلا يعرف لها، إلّا من حيث إن لوجودها، أو لحركات خاصة فيها، تأثيرًا مباشرًا في مصائر الإنسان الغربي. وهكذا فإن تاريخ العالم وثقافاته العديدة، لا يعدو أن يكون في أعين الغربيين تاريخًا موسعًا للغرب. وطبيعي أن النظر من هذه الزاوية الضيّـقة لا بد أن يوقع العين على مشهد مشوّه غير سليم. إن الأوربي، أو الأمريكي العادي، بما اعتاد أن يطالع من الكتب التي تعالج أو تبحث مسائل مدنيته الخاصة بتبسيط وتوسّع يضفيان عليها ألوانًا حية، دون أن تلقي على سائر أجزاء العالم سوى نظرات هنا أو هناك، ليستسلم ويرضخ بسهولة ويسر إلى الوهم الخادع الذي يصور أن الخبرات الثقافية الغربية، ليست أسمى من سائر الخبرات الثقافية في العالم كله فحسب، بل لا تتناسب معها على الإطلاق. وبالتالي إن طريقة الحياة الغربية هي النموذج الصحيح الوحيد الذي يمكن أن يتخذ مقياسًا للحكم على سائر طرائق الحياة؛ لأن كل مفهوم ثقافي، أو مؤسسة اجتماعية، أو تقييم أدبي يتعارض مع النموذج الغربي، إنما ينتمي - حتمًا - إلى درجة من الوجود أدنى وأحط. ومن هنا نرى أن الغربي - تمثلًا باليونان والرومان - يجب أن يعتقد أن جميع تلك المدنيات ليست - أو لم تكن - إلّا تجارب متعثرة في طريق الرقيّ، هذا الطريق الذي تتبّعه الغرب بكثير من السداد والعصمة من الخطأ. أو أنها في أفضل الأحوال - كما هي الحال في مسألة المدنيات السالفة التي سبقت مدنية الغرب الحديث مباشرة - ليست أكثر من فصول متتابعة في كتاب وحيد فريد آخره - من غير شك - المدنية الغربية »[١].

وملاحظته الدقيقة في كتابه الآخر (الإسلام على مفترق الطرق) والتي يقول فيها:

« أما فيما يتعلق بالإسلام، فإن الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزّب

---

(١) ليوبولد فايس (محمد أسد): الطريق إلى مكة، ترجمة عفيف البعلبكي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٥٦م)، (ص١٧ - ١٨).

غير معقول إلى بحوثهم العلمية، وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوربا والعالم الإسلامي (منذ الحروب الصليبية) غير معقود فوقه بجسر، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءًا أساسيًا من التفكير الأوربي. والواقع أن المستشرقين الأُوَل في الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الأوربيين من (الوثنيين). غير أن هذا الالتواء العقلي قد استمر، مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها. أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلقتها الحروب الصليبية، بكل ما لها من ذيول، في عقول الأوربيين »[(١)].

والذي يقرأ الصفحات الخمسين الأولى من كتاب المستشرق الألماني بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية)، أو معظم أعمال المستشرق الفرنسي اليسوعي الأب لامانس، أو جوانب عديدة من مصنفات نولدكه ومارغوليوث وغيرهم، يجد نفسه مرغمًا على إدانة المعطى الاستشراقي المثقل بالتعصب والكراهية والتحامل وسوء الفهم، بل وحتى الجهل بما يعتبره المسلم من بداهات هذا الدين.

ولقد وقفت طويلًا في مقدمة كتابي (دراسة في السيرة) الذي صدر في منتصف سبعينيات القرن الماضي، عند شبكة من شواهد السوء بخصوص سيرة رسول اللّـه ﷺ وناقشتها، مفندًا إياها الواحدة تلو الأخرى. كما أني فعلت الشيء نفسه مع المستشرق البريطاني المعاصر (مونتكمري وات) في كتابه المعروف (محمد في مكة)، رغم أنه يعد من أكثر المستشرقين موضوعية وحيادية، وقبولًا - ظاهريًا - للعمق الغيبي لعصر الرسالة، بعد أن تلقيت تكليفًا من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية، بإنجاز بحث عن منهج المستشرق المذكور في تعامله مع السيرة، ضمن مجلدين شارك فيهما عدد كبير من المختصين بمناهج المستشرقين. فكان أن أنجزت بحثًا يحمل عنوان:

(١) ليوبولد فايس (محمد أسد): الإسلام على مفترق الطرق (ص٦٠ - ٦١).

(المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتكمري وات).

وأحب أن أقف قليلًا عند تجربتي مع هذا المستشرق.. فإذا كان (وات) الذي يُعد - كما ذكرت - من أكثر المستشرقين اعتدالًا، قد انزلق في العديد من استنتاجاته عن جادة الصواب، ووصل في استنتاجات أخرى إلى طرق مسدودة، وهو يتعامل مع سيرة رسول اللّٰه ﷺ، فكيف سيكون الحال بالنسبة للمستشرقين المنحازين - ابتداءً - ضد المُعطى الإسلامي في العديد من مفاصله؟

ورغم أن وات يقول في مقدمة كتابه (محمد في مكة): « فيما يتعلق بالمسائل الفقهية التي أثيرت بين المسيحية والإسلام، فقد جهدت في اتخاذ موقف محايد منها، وهكذا بصدد معرفة ما إذا كان القرآن كلام اللّٰه أو ليس كلامه امتنعت عن استعمال تعبير مثل: (قال تعالى)، أو (قال محمد) في كل مرة أستشهد فيها بالقرآن، بل أقول بكل بساطة: (يقول القرآن).. وأقول لقرّائي المسلمين شيئًا مماثلًا، فقد ألزمت نفسي.. أن لا أقول أي شيء يمكن أن يتعارض مع معتقدات الإسلام الأساسية »[1].

رغم ذلك، فقد خلصت بعد دراسة الكتاب إلى أن « المحصلة النهائية التي يمكن أن نصل إليها من خلال التعامل مع دراسات المستشرقين، أيًّا كان موقعهم، أنه لا يمكن لمعظم هذه الدراسات - وبالتأكيد العقلي غير الانفعالي على هذه العبارة الأخيرة - أن ترقى إلى مستوى السيرة فتكون قديرة على التعامل معها، والتوغل في نسيجها، وإدراك بنيتها بعمق، ورسم الصورة الموضوعية العادلة لها.

ذلك أن هناك أكثر من خلل في (منهج العمل)، ولن يتمخض هذا الخلل إلّا عن حشود من نقاط سوء الفهم والأخطاء على مستوى الموضوع، الأخطاء التي تنتشر كالبثور على جسد السيرة المترع صحة وتماسكًا وعافية، فتشوهه وتنثر على صفحاته البقع والشروخ.

---

(١) مونتكمري وات: محمد في مكة، ترجمة شعبان بركات، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ (ص٥ - ٦).

نعم، ثمة فرق بين مستشرق وآخر، ونحن إذا قارنا (وات) بـ (لامانس) مثلًا، أو حتى بـ (فلهاوزن)، وجدنا هوّة واسعة تفصل بين الرجلين.. يقترب أولهما ويقترب حتى ليبدو أشدّ إخلاصًا لمقولات السيرة من أبناء المسلمين أنفسهم، ويبعد ثانيهما ويبعد حتى ليبدو شتّامًا لعّانًا وليس باحثًا جادًّا يستحق الاحترام.

ومع ذلك فهو فرق في الدرجة وليس في النوع، فها نحن نقف بعض الوقت عند كتاب (محمد في مكة) لأكثر المستشرقين حيادية، كما أكد هو نفسه في مقدمته، وكما قيل عنه، ولنتذكر عبارات المستشرق الفرنسي (مكسيم رودنسن): « من النادر أن ترى عالمًا لا يهتم فقط بجمع مواد بحثه، بل يطرح الأسئلة على نفسه ويجيب عليها بصورة علمية، يضاف إلى ذلك أمانة علمية شديدة تصدر عن فكر لا حيلة له أمام الحقيقة. هذا الانفتاح الفكري، وتلك الأمانة العلمية، وهذه المهارة في الكشف عما هو أصيل وجوهري، جعل من كتابه عن محمد حدثًا تاريخيًا في الدراسات عن نبي الإسلام »[1].

نقف أمام هذا الكتاب، فإذا بنا نقع على بعض جوانب الخلل في منهج العمل في حقل السيرة: نزعة نقدية مبالغ فيها تصل حدّ النفي الكيفي وإثارة الشك حتى في بعض المسلّمات، تقابلها نزعة افتراضية تثبت بصيغ الجزم والتأكيد ما هو مشكوك بوقوعه أساسًا. وإسقاط للتأثيرات البيئية المعاصرة، وإعمال للمنطق الوضعي في واقعة تكاد تستعصي على مقولات البيئة وتعليلات العقل الخالص.

ونستطيع أن نخلص من هذا كله إلى أنه ليس بمقدور معظم المستشرقين، مهما كان من اتساع ثقافتهم، واعتدال مواقعهم، وحياديتهم، ونزوعهم الموضوعي، إلّا أن يطرحوا تحليلًا للسيرة لا بد أن يرتطم، هنا أو هناك، بوقائعها وبداهاتها ومسلّماتها، ويخالف بعضًا من حقائقها الأساسية، ويمارس - متعمدًا أو غير متعمد - تزييفًا لروحها، وتمزيقًا لنسيجها العام »[2].

---

(١) من تعليق رودنسن الذي اعتمده الناشر على غلاف كتاب (محمد في مكة).

(٢) عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت (٢٠٠٥م)، (ص١١٩ - ١٢٠).

إن الظاهرة آنفة الذكر تقودنا إلى التساؤل عما إذا كان هناك منهج استشراقي متوحّد أم مناهج شتى؟

ويقينًا، فإن الجواب سيختلف باختلاف المنظور، فإذا نظرنا إلى المادة الاستشراقية بوصفها تعاملًا رؤيويًا غربيًّا مع الشرق الإسلامي، قلنا بأن هناك منهجًا استشراقيًّا واحدًا، فها نحن هنا بإزاء ثنائيات أساسية تتضمن البعد الحضاري والديني، والجغرافي القاري؛ حيث يصير النشاط الاستشراقي محاولة للاكتشاف في بيئة أخرى تنطوي على تغاير عميق مع بيئة المكتشف أو الباحث. ولكننا إذا نظرنا إلى المادة الاستشراقية من زاوية رؤيتها المتميزة - داخل العقل الغربي نفسه - أمكننا القول أن هناك مناهج شتى.

وعلى سبيل المثال، فإن المنهج الذي يعتمده رجل لاهوت مثل (لامانس) يختلف عن المنهج الذي يعتمده (بلاييف)، المفسّر المادي للتاريخ، أو الذي يعتمده مستشرق ذو توجه إسرائيلي، أو الذي يعتمده (مونتكمري وات) الذي يحرص على الأكاديمية.

فهاهنا نجد تنوعًا في سياق الوحدة المنهجية، أو بعبارة أدق، نجد قاسمًا مشتركًا أعظم يتحرك بموجبه مستشرقو المذاهب المذكورة كافة، ونجد تغايرًا يجعل كل مذهب يصوغ منهجه الخاص المتميز الذي ينسجم وقناعاته الفكرية، ولكنه يلتقي في نهاية التحليل بالخطوط العريضة للمنظور الاستشراقي الشامل بوصفه تعاملًا غربيًّا مع الشرق بالمعايير التي ألمحنا إليها قبل قليل.

في الجهة الأخرى، ولما كان التاريخ والحضارة الإسلامية يختلفان في درجة حساسيتهما من تعامل الآخر معهما، فإن المنهج الاستشراقي الذي ينطوي على التغايرات المذكورة في سياق وحدته الأساسية، سيختلف هو الآخر في طبيعة الاستنتاجات التي سيتوصل إليها، ووحدتها، ودرجتها اللونية، من حيث تصادمها مع المعطيات الإسلامية في التاريخ والحضارة، أو تأكيدها لهذه المعطيات.

وثمة فارق كبير - مثلًا - بين التعامل الاستشراقي مع السيرة النبوية المتجذرة في الغيب، والممثلة لجوهر الخبرة الإسلامية كمنظور عقدي للعالم، وبين تعامله

مع هذا النظام الإداري أو ذاك، مثل الوزارة أو الديوان أو الجيش في عصر أموي أو عباسي متأخر.. وفارق كبير أيضًا بينهم وهم يتحدثون عن الفتوحات الإسلامية زمن الراشدين ﷺ والتي تجيء امتدادًا لسياسات الرسول ﷺ، وبينهم وهم يتحدثون عن صراع المغول مع المماليك في الجزيرة والشام على سبيل المثال.

وكذا الحال إزاء التعامل مع كل خبرة تاريخية إسلامية ترتبط بعمقها العقدي أو تنفصل عنه، ففي الحالة الأولى ينعكس انحياز المنهج الاستشراقي بوضوح، بهذه الدرجة أو تلك، وفي الحالة الثانية تضعف حدة التغاير في مسألة تاريخية صرفة، ويجد المستشرق نفسه يسعى إلى تحييد المنهج وتوظيف تقنياته المتفق عليها عالميًّا، والتي يعمل بها الشرقيون أنفسهم للوصول إلى الواقعة التاريخية أو مقاربتها في الأقل.

ومهما يكن من أمر، فإن مناهج البحث الاستشراقية، بخصائصها المتميزة، لا يمكنها في الغالب أن تقدم تفسيرًا موضوعيًّا للمراحل والخبرات ذات الجذور العقدية من تاريخنا الإسلامي، ذلك أنها لا تقوم على أساس متوازن ينظر إلى القيم الروحية والمادية كعواملَ فعالةٍ مشتركة في صنع الواقعة التاريخية، بل إنها تسعى إلى ترجيح الدافع المادي وتقليص مساحة الدوافع الروحية في حركة التاريخ، وربما طمسها وإنكارها أساسًا.

وهذه المناهج - من جهة أخرى - تقدم تاريخ العالم كله، وبضمنه تاريخنا، من زاوية المركزية الأوربية التي تدور حول قطبها كل المساحات الأخرى في الأرض، وما عليها من دول وشعوب وحضارات.

هذا إلى أن هذه المناهج تتحكم فيها عصبيات شتى، ورواسب نفسية، وضغوط ثقافية تاريخية، وأطماع سياسية واقتصادية، وتحزّبات دينية ومذهبية وأيديولوجية وعرقية، لكونها تبلورت في العصر الذي بلغت فيه حركة الاستعمار لعالم الإسلام ذروتها[1].

---

(١) ينظر بالتفصيل: عماد الدين خليل: مدخل إلى التاريخ الإسلامي، المركز الثقافي العربي، الرباط، الدار العربية للعلوم، بيروت (٢٠٠٥م)، (ص٣١ - ٣٦).

هذا هو أحد جانبي الصورة وهنالك الجانب الآخر، فإن ما سبقت الإشارة إليه لم يمنعني من مواصلة المشوار في الموروث الاستشراقي لمتابعة أكبر قدر ممكن من مفاصله ومعطياته، وأنا أقوم بتدريس مادة الاستشراق لطلبة الدراسات العليا في أكثر من جامعة، وأناقش العديد من رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه هنا وهناك، وأتلقى - بين الحين والحين - تكليفًا من هذه المؤسسة أو الجامعة أو تلك، للكتابة في الموضوع.

كانت إحداها حول إنجاز مشروع عمل موسّع يتضمن الشهادات الإيجابية لغير المسلمين، بما فيهم المستشرقون، بحق الإسلام قرآنًا ونبيًّا وعقيدة وشريعة وعبادة وسلوكًا وحضارة وتعاملًا مع الآخر وواقعًا ومستقبلًا، فضلًا عن الموقف من الأسرة والمرأة.

تفرّغتُ للعمل السنين الطوال، عبر منتصف ثمانينيات القرن الماضي، وشمّرت عن ساعد الجدّ، ورحتُ أتابع « الشهادات » في عشرات الكتب التي صنّفها المستشرقون. وبمرور الوقت أخذ يتبيّن لي أن هؤلاء لم يبخلوا في الإدلاء بشهاداتهم الإيجابية بحق الإسلام، بل إنهم في بعضها تفوّقوا حتى على بعض الباحثين المسلمين أنفسهم في الكشف عن منظومة القيم المتألقة في هذا الدين، ربما لأنهم يجيئون من خارج دائرة الإسلام، فيمارسون الاكتشاف الذي يثير دهشتَهم وإعجابَهم، بعد إذ لم يكن الإلف والمعايشة والاعتياد قد أطفأت الوهج.

تكدّست لديَّ مئاتُ الشهادات وألوفُها عبر السياقات المذكورة، واخترتُ - بعد لأْيٍ - المنهج الذي سأعتمده في عرضها، وفي التعريف بأصحابها ومنجزاتهم التأليفية. وبيّنتُ ذلك في مقدمة الكتاب الذي انطوى على سبعة فصول يتضمن كل منها حشدًا من الشهادات بحق جانب ما من جوانب الإسلام، ووفق التسلسل التالي:

١ - القرآن الكريم. ٢ - محمد رسول اللّه ﷺ.

٣ - الإسلام.

٤ - انتشار الإسلام ومعاملة غير المسلمين.

٥ - الحضارة الإسلامية. ٦ - المرأة والأسرة.

٧ - الحاضر والمستقبل.

كانت الشهادات الإيجابية على درجة من الوفرة بحيث إن المشرفين على المشروع عادوا فطلبوا مني الإيجاز، بانتقاء ما لا يزيد عن بضع شهادات للرجل الواحد كي لا يتضخم الكتاب ويصعب تعامل القارئ معه.

أنجزتُ المهمة الثانية بصعوبة، وصدر الكتاب عام (١٩٩٢م) يحمل عنوان: (قالوا عن الإسلام)، وهو الآن بصدد طبعه ثانية في دار ابن كثير في دمشق وبيروت.

كانت مشكلتي الأساسية في الكتاب ما يمكن تسميته (حدود النصّ) أو (الشاهد)، وضرورة عدم ممارسة الاقتطاع القسري إزاءه.. كيف تمّ ذلك؟

إن علينا أن نلاحظ كيف أن عددًا من الشهادات الإيجابية بحق الإسلام أو جانب من جوانبه، من قِبَلِ هذا المؤلف أو ذاك، يقابله في الوقت نفسه ركام من شهادات أخرى سلبية تقف موقفًا مضادًّا من الإسلام، لكن هذا لا يمنع من اعتبار الشهادات الأولى بمثابة اعتراف (حُرّ) بهذه القيمة أو تلك من قيم الإسلام، والتي تدفع الغربيين إلى إعلان رأيهم ذاك دونما أي نوع من أنواع القسر أو الاضطرار.

فكشهادات - وليس كموقف نهائي - يمكن أن تعتمد للدلالة على ما نحن بصدده، فأما (الشهادة السلبية) فقد فرضت نفسها على نطاق واسع؛ لأنها الأكثر حضورًا وانتشارًا في الفكر الغربي، ويستطيع المرء أن يجدها بسهولة في معظم الأعمال الغربية التي تمس الإسلام. وأما (الشهادة الإيجابية) فهي التي تحتاج إلى مزيد من التأكيد والتنسيق وإعادة العرض في إطار ملائم.

وهناك فرق بيّن - بطبيعة الحال - بين خطيئة الاقتطاع القسري للشاهد لتأكيد فكرة ما في سياق معين قد يصل إلى أهداف ومواقع لم يفكر فيها صاحب النصّ أساسًا، وبين استقصاء الشهادات الإيجابية التي صدرت عن حشد من المفكرين الغربيين، من بين سيل من المعطيات تتميز بموقفها السلبي من الإسلام ينبثق عن قناعة تامة للمفكر، الذي يجد نفسه بعد لحظات، أو قبل لحظات، يسدّد هجمة ضد جانب آخر، وربما للجانب نفسه من الإسلام، قد لا تبرّرها الموضوعية، ولكنها -

على أية حال - تمثل بدورها حلقة من قناعات ذلك المفكر.

وبما أن مهمة هذا الكتاب هي محاولة حصر قدر طيّب من الشهادات الإيجابية، كما يتضح من هدفه ومنهجه، فإن الأمر يتجاوز كونه اقتطاعًا قسريًا للشاهد، إلى السعي العلمي المتَبصّر لاستقصاء المعطيات الإيجابية للمفكر غير المسلم، تلك التي إذا ما عرضت عليه أكد صدقها ثانية وثالثة ورابعة؛ لأنه لم يقلها إلّا بدافع قدرة الإسلام، في جانب من جوانبه، على تأكيد تميزه وتفوقه وفاعليته.

وفي المقابل، فإن بمقدور أي قارئ أن يتابع الشهادات ذات الطابع السلبي في معظم المصادر التي اعتمدت هاهنا، وغيرها كثير، وهي مسألة ليست من مهمة هذا الكتاب، وقد تصدى لها بالعرض والنقد والدراسة، ولا يزال، عدد من المختصّين والباحثين ضمن توجهات منهجية أخرى..

إن المسألة بإيجاز محاولة لرصد جانب من الشهادات الإيجابية التي صدرت بحق هذا الدين، من بيئات طالما أساءت إليه، ومن ثم تحمل هذه المحاولة تبريرها العلمي الصريح في اطراح كل ما من شأنه أن يتناقض مع هذا الهدف الواضح المحدد سلفًا[١].

مهما يكن من أمر، فإنني لم أترك مئات الشواهد التي سهرت على انتقائها وجمعها، تفلت من بين يدي، وإنما وظفتها في إنجاز جملة من الكتب التي تقوم بتحليل (النصّ) هذه المرة، وليس مجرد عرضه، للوصول إلى شبكة من الاستنتاجات الدالّة على عظمة هذا الدين ومبرّرات مشروعه الحضاري الكبير.

ومن بين هذه الكتب التي أنجزتُها في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي:

١ - الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي.

٢ - واقع المسلمين ومستقبلهم من منظور غربي.

٣ - القرآن الكريم من منظور غربي.

---

(١) يُنظر بالتفصيل: مقدمة كتاب (قالوا عن الإسلام) للمؤلف، الطبعة الثانية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت (٢٠٠٩م).

٤ - المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي.

٥ - الفن والعقيدة.

فضلًا عن بعض فصول (مدخل إلى الحضارة الإسلامية).

على أية حال - كنت أقول في نفسي - لقد تحقق التعامل العادل مع الموروث الاستشراقي، وتمّ تناول الصورة بوجهيها: الأسود الكالح والأبيض المشعّ، فالمؤرخ ليس شاعرًا يهجو أو يمدح، ولكنه باحث عدل يتوخى الوصول إلى الحقيقة بأكبر قدر من الموضوعية، ولطالما ردّدت مع نفسي الآية الكريمة التي تنطوي على منهج عمل في الفكر والحياة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

حصيلة جهدي مع الموروث الاستشراقي - والغربي عمومًا - كانت ثلاثة عشر كتابًا، خمسة منها تنقد وتفضح وتفنّد، ملاحقة مظان السلب في هذا الموروث، وثمانية أخرى ترصد وتحلّل الشهادات والاستنتاجات والمعطيات الإيجابية في هذا الموروث.

لقد كان مبدأي الذي أكدْتُهُ على طلبتي لمدى أربعين عامًا: احذروا قاعدة « **إما هذا أو ذاك** »، والتزموا قاعدة « **هذا وذاك** »، فإنها تمنحكم مفتاحًا منهجيًا أكثر دقة في التعامل مع الظواهر والأشياء في سياقي الفكر والحياة، وتخفف عنكم عناء الجدل العقيم الذي يتشبث فيه كل طرف بوجهة نظره وقناعاته الخاصة، بينما هي - في الحقيقة - تكمّل إحداهما الأخرى.. ترى كم من الزمن والجهد استغرقه جدل كهذا، كان يمكن أن يوظفا للعمل والبناء بدلًا مما سبق وإن حذّر منه رسول اللّـه ﷺ في أكثر من حديث شريف؟

لن يتسع المجال، في بحث موجز يقدم لمؤتمر علمي كهذا، بالخوض في التفاصيل، وقد تكفي هذه الصفحات المعدودة لتقديم خلاصة خبرة لأكاديمي

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨.

واحد مع مسألة ثار حولها جدل كبير، ولا يزال، وهناك غيري الكثيرون ممن يمكن أن يقدموا خبراتهم في الموضوع نفسه. ولقد كان رأيي دائمًا أن الندوات والمؤتمرات يتحتّم ألَّا تكتفي بالبحوث والدراسات ذوات الهوامش، وأن تنضاف إليها الخبرات التي عاشها الباحث، فلعلها تنطوي على بعض التعاليم.

* * *
* *
*

السيرة الذاتية للمؤلف

أ.د. عماد الدين خليل.

- ولد في الموصل - العراق عام (١٩٤١م).

- حصل على البكالوريوس (الليسانس) في الآداب بدرجة الشرف من قسم التاريخ بكلية التربية/ جامعة بغداد عام (١٩٦٢م)، والماجستير في التاريخ الإسلامي بدرجة جيد جدًا من معهد الدراسات العليا بكلية الآداب/ جامعة بغداد عام (١٩٦٥م)، عن رسالته الموسومة بـ (عماد الدين زنكي) (٤٨٧ - ٥٤١هـ/ ١٠٩٤ - ١١٤٦م)، والدكتوراه في التاريخ الإسلامي بدرجة الشرف الأولى من كلية آداب جامعة عين شمس في القاهرة عام (١٩٦٨م)، عن أطروحته الموسومة (الإمارات الأرتقية في الجزيرة الفراتية والشام) (٤٦٥ - ٨١٣هـ/ ١٠٧٢ - ١٤١٠م).

- عمل مشرفًا على المكتبة المركزية لجامعة الموصل عام (١٩٦٨م).

- عمل معيدًا، فمدرّسًا، فأستاذًا مساعدًا، في كلية آداب جامعة الموصل للأعوام (١٩٦٧ - ١٩٧٧م).

- عمل باحثًا علميًّا، ومديرًا لقسم التراث، ومديرًا لمكتبة المتحف الحضاري في المؤسسة العامة للآثار والتراث - المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية في الموصل للأعوام (١٩٧٧ - ١٩٨٧م).

- حصل على الأستاذية عام (١٩٨٩م)، وعمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي ومناهج البحث وفلسفة التاريخ في كلية آداب جامعة صلاح الدين في أربيل للأعوام (١٩٨٧ - ١٩٩٢م)، ثم في كلية تربية جامعة الموصل (١٩٩٢ - ٢٠٠٠م)، فكلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي، بالإمارات العربية المتحدة (٢٠٠٠ - ٢٠٠٢م)، فجامعة الزرقاء الأهلية، الأردن، عام (٢٠٠٣م)، فكلية آداب جامعة الموصل (٢٠٠٣ - ٢٠٠٥م) التي أعارت خدماته لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة اليرموك - الأردن، لفصلين دراسيين عاد بعدهما للعمل في كلية آداب جامعة الموصل حتى إحالته على التقاعد عام (٢٠٠٩م) لكي يعيّن بعدها أستاذًا متمرسًا في الكلية ذاتها. هذا إلى تعيينه أستاذًا محاضرًا في قسم الدراسات العليا لكلية الإمام الأعظم في الموصل حيث لا يزال.

- حاضر في عدد من الجامعات والمؤسسات العربية والإسلامية والعالمية.

- اختير عضوًا في مجلس جامعة صلاح الدين - أربيل، العراق (١٩٨٩ - ١٩٩١م)، ومجلس جامعة الموصل - العراق (٢٠٠٣ - ٢٠٠٥م) ممثلًا عن التدريسيين.

- حصل على العديد من التقييمات من دوائر وجامعات ومؤسسات شتى، كان من بينها حصوله على جائزة الدولة التقديرية لرئاسة دولة السودان عام (٢٠٠٥م)، وجائزة جامعة الزرقاء الأهلية لأفضل كتاب عن عام (٢٠٠٣م)، واعتباره الأستاذ الأوّل في جامعة صلاح الدين - أربيل - العراق - عن عام (١٩٨٩م)، كما قُيّم كتابه (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) من قبل مؤسسة أرامكس ميديا واحدًا من أفضل عشرة كتب في العالم لعام (٢٠٠٥م).

- شارك في عدد من المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية في كثير من الدول العربية والإسلامية.

- شارك في عضوية اللجان الاستشارية لهيئات تحرير عدد من المجلات العلمية والفكرية المحكمة.
- أشرف على العديد من طلبة الماجستير والدكتوراه في التاريخ الإسلامي.
- كُتب عن أعماله عدد من رسائل الدبلوم والماجستير والدكتوراه في العديد من الجامعات العربية.
- تُرجمت بعض مؤلفاته إلى عدد من اللغات، وبخاصة الإنكليزية والفرنسية والتركية والفارسية والكردية والإندونيسية.
- نشر عشرات البحوث في العديد من المجلات العلمية والأكاديمية والمحكمة.
- نشر مئات المقالات والبحوث الثقافية والأعمال الأدبية (دراسة وتنظيرًا ونقدًا وإبداعًا) فيما يقارب السبعين مجلة وصحيفة عربية وإسلامية.

الأعمال التأليفية

ساهم الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل بنشاط وافر في الحقل التأليفي، وسوف نقتصر هنا على ذكر بعض مؤلفاته، فمن ذلك ما يلي:

أولًا: الموسوعات:

أنجز العديد من المواد العلمية في التاريخ والحضارة والفكر والأدب للموسوعات العربية والإسلامية؛ ومنها:

١ - موسوعة دار الشروق، القاهرة (٤٠ مادة).

٢ - الموسوعة العلمية المتطورة، مدريد (١٠ مواد).

٣ - موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية، القاهرة (٣٥ مادة).

٤ - موسوعة مؤسسة الوقف التركية، إسطنبول (مادة واحدة).

٥ - الموسوعة الدينية، بيروت (٦ مواد).

ثانيًا: الأعمال التاريخية:

المنهج والفلسفة:

١ - التفسير الإسلامي للتاريخ (٥ طبعات) (دار العلم للملايين - بيروت).

٢ - حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٣ - المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتكمري وات)، (طبعتان)، (دار ابن كثير - بيروت).

٤ - دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو) (طبعة واحدة) (دار الرازي - عمان).

٥ - مدخل إلى التاريخ الإسلامي (التأصيل الإسلامي للتاريخ)، (٤ طبعات)، (المركز الثقافي العربي - الرباط).

٦ - مدخل إلى الحضارة الإسلامية (٤ طبعات)، (المركز الثقافي العربي - الرباط).

السيرة والتراجم:

٧ - دراسة في السيرة (١٨ طبعة)، (دار النفائس - بيروت).

٨ - ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

٩ - عماد الدين زنكي (٤ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

١٠ - نور الدين محمود: الرجل وتجربته الإسلامية (٣ طبعات)، (دار القلم - بيروت).

قضايا في التاريخ المعاصر:

١١ - لعبة اليمين واليسار (٥ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

١٢ - أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (طبعتان)، (دار ابن كثير - بيروت).

ثالثًا: الأعمال الفكرية:

المنظور الإسلامي للمعرفة:

١ - أصول تشكيل العقل المسلم (حول إعادة تشكيل العقل المسلم)، (٥ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

٢ - العلم في مواجهة المادية (٤ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

٣ - مدخل إلى إسلامية المعرفة (٤ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

٤ - تهافت العلمانية (٧ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

المنظور الغربي للإسلام:

٥ - قالوا عن الإسلام (طبعتان)، (دار ابن كثير - بيروت).

٦ - القرآن الكريم من منظور غربي (طبعتان)، (دار الفرقان - عمان).

٧ - المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي (طبعتان)، (دار الفرقان - عمان).

٨ - الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي (طبعتان)، (دار ابن كثير - بيروت).

٩ - نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم (طبعة واحدة)، (دار النفائس - بيروت).

١٠ - غربيون يتحدثون عن الإسلام (طبعة واحدة)، (دار السلام - القاهرة).

البحوث والدراسات:

١١ - مع القرآن في عالمه الرحيب (٣ طبعات)، (دار العلم للملايين - بيروت).

١٢ - رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (٣ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

١٣ - مقال في العدل الاجتماعي (٤ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

١٤ - اللّـه أو الطاغوت: مسائل أساسية في التصوّر الإسلامي (طبعة واحدة)، (دار السلام - القاهرة).

المقالات الإسلامية:

١٥ - آفاق قرآنية (٣ طبعات)، (دار العلم للملايين - بيروت).

١٦ - مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (٣ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

١٧ - في دائرة الضوء (طبعة واحدة)، (دار السلام - القاهرة).

١٨ - من النافذة الإسلامية (طبعة واحدة)، (دار السلام - القاهرة).

١٩ - العالم ينتظر البديل (طبعة وحدة).

٢٠ - آيات قرآنية تطل على العصر (قيد النشر).

٢١ - أحاديث نبوية تطل على العصر (قيد النشر).

رابعًا: الأعمال الأدبية:

الدراسات الأدبية والفنية:

١ - الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (٣ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

٢ - فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (٤ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

٣ - الفن والعقيدة (٣ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

التنظير:

٤ - في النقد الإسلامي المعاصر (٤ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

٥ - مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (٣ طبعات)، (دار ابن كثير - بيروت).

٦ - حول استراتيجية الأدب الإسلامي (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي)، (طبعتان)، (دار ابن كثير - بيروت).

٧ - متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (طبعة واحدة)، (دار ابن كثير - بيروت).

٨ - من يوميات الأدب الإسلامي (قيد النشر).

النقد التطبيقي:

٩ - محاولات جديدة في النقد الإسلامي (طبعتان)، (دار ابن كثير - بيروت).

١٠ - في النقد التطبيقي (طبعتان)، (دار ابن كثير - بيروت).

١١ - في النقد التطبيقي الإسلامي (طبعة واحدة)، (دار ابن كثير - بيروت).

* * *
* *
*

الكتاب في سطور

هذه جملة من المحاضرات التي ألقيت عبر مدن شتَّى من عالم الإسلام على مدى ربع قرن من الزمان؛ بعضها يسلط الضوء على جوانب مؤثرة من حياة الرسول المعلّم ﷺ، وبعضها الآخر يمضي مع فلسفة التاريخ والحضارة أو تفسيرهما؛ لكي يحلّل نشوء الحضارات ونموّها من المنظور القرآني، أو تدهورها وسقوطها من ذات المنظور، ولكي يتحدث عن قيمة التاريخ، وعن علاقة الأدب بالتاريخ، وعن منهج المؤلف في البحث فيه، وخبرته مع الاستشراق، وعن الفكر الخلدوني في التصوّر الإسلامي، وابن خلدون وإشكالية الفلسفة.

وثمة محاضرات أخرى تقف لحظات مع الصدّيقين والشهداء، أو تسعى لتحليل جوانب راقية في تاريخنا الإسلامي، أو تطرح منهجًا في التعامل مع التراث، أو تناقش المفردات المنهجية لأقسام التاريخ في بعض الجامعات.

فالكتاب يهمُّ القرّاء الذين يسعون لمعرفة تاريخ أمتهم وحضارتها المتألقة، وأن يؤمّموا جهدهم ووجودهم لاستعادة دورها الضائع بمعونة الله.

Dar-Alsalam Designs











الناشر



دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٠٨٠٢٨٧٦

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٢٠٣)

www.daralsalam.com info@daralsalam.com

ISBN: 978-977-

9 789777 17